نظريـة
ناقة النبي صالح

وبعض قصص الأنبياء الأخرى
(تطابق الدين والعلم)

استنباطات
سيفي سيفي
2009 م

الفهرس

الفصل		الصفحة
المقدمة		5
1 – الفصل الأول:	قصة سيدنا آدم(ع)	19
2 – الفصل الثاني:	قصة سيدنا نوح(ع)	68
3 – الفصل الثالث:	قصة سيدنا إبراهيم(ع)	97
4 – الفصل الرابع :	قصة سيدنا صالح(ع)	118
5 – الفصل الخامس:	قصة سيدنا موسى(ع)	194
6 – الفصل السادس:	قصة سيدنا سليمان(ع)	214
7 – الفصل السابع:	قصة سيدنا المسيح(ع)	246
8 – الفصل الثامن:	قصة النبي أشعيا(ع)	275
خاتمة الكتاب		283

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

من بين أعقد الأمور التي أُشكل فهمها على أصحاب الديانات جميعاً دون استثناء وعلى مر الدهور والأزمان، ومن بين أعقد المسائل التي فسحت المجال على مصراعيه لدخول أمواج الجدل والنزاع وعواصف التفرقة والتكفير واستباحة الدماء التي لم تغلق أبوابها حتى اليوم، موضوع فهم وتفسير الآيات الإلهية المتشابهة، أي الآيات التي تقبل أو تحتمل أكثر من تفسير أو معنى؛ فرغم وجود المجلدات والكتب والمراجع الكثيرة التي امتلأت بها المكتبات الإسلامية والأدبيات الدينية وغيرها، إلا أنه ما زال يظهر المزيد والمزيد منها؛ والعجيب أن كل من أدلى بدلوه في هذا المجال وشارك برأيه، ختم حديثه بعبارة (الله أعلم)، وهذه العبارة تعني مما تعنيه أن العالِم أو المفسِّر لا يجزم برأيه أو يقطع به، بل هو يضيف تفسيرا آخر أو رأياً جديدا إلى ما سبق وَوِجِدَ من تفاسير السابقين، وأنه لم يزد في عطائه وبحثه المتتبعين والباحثين وطالبي الحقيقة والساعين خلفها سوى رأي فوق رأي؛ والغريب أن هذه التفاسير لم تقف عند حد معين، بل تعدتها لتدخل مجالات الحياة

المختلفة بجميع أشكالها وفروعها، لتصبح من أعقد أسباب التباعد والاختلاف حتى بين أصحاب المذهب الواحد؛ وحار الناس بمن يقتدون ومن يتبعون وإلى من يتوجهون، فالكل يدعي الإيمان والإدراك وصاحب الطريق الصحيح والرأي الصائب والمُثل العليا. ولو سألت أحدهم عن مذهبه، لأجابك بحكمة وحذر شديدين درءاً للإحراج وسدّاً لباب النقاش أو لتغطية قلّة ثقافته في معتقده أو دينه: كتاب الله وسنة رسوله. والحقيقة أن هذا الجواب لا يعتبر جواباً كافياً شاملاً بل ينم عن توجس وحذر يختلط بشيء من السياسة المبهمة، لأن جميع المسلمون يعتقدون بكتاب الله وسنة رسوله ويؤمنون بهما، ولو كان هذا هو الحل الأمثل والموقف الصحيح، فمن أين إذن ظهر كل هذا الاختلاف والتكفير بين أهل الملل وأتباع المذاهب والعقائد المختلفة على مرّ التاريخ؟ وفي الحديث الشريف المتفق عليه إشارة واضحة ودليل قاطع على صحة ما حدث ويحدث **(انقسمت أمة اليهود إلى سبعين فرقة، وانقسمت أمة النصارى إلى إحدى وسبعين فرقة، وستنقسم أمتي إلى اثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار ما عدا واحدة)**[1]. والغريب أن هذا الحديث الشريف يتقبله جميع المسلمون بمختلف مذاهبهم تقريبا ويتفقون عليه، لكن النقطة المهمة الجالبة للانتباه هي أن كلا منهم ينسب إشارته الأخيرة إلى مذهبه أو معتقده.

تنقسم التفاسير الدينية بمجملها إلى ثلاثة أقسام تقريبا، الأول يتناول الآيات الإلهية حسب معانيها الظاهرية، أي أن المفسّر يستند في تفسيره على حدود معاني الكلمات الظاهرية ودلالاتها، فيعتمد على درجة معرفته واطلاعه على قواعد اللّغة العربية ومعاني كلماتها بالإضافة إلى سبب وتاريخ نزول الآية.. الخ، وهذا النوع من التفاسير هو السائد اليوم بين غالبية المذاهب وأتباعها؛ لكن هذا الميزان ليس دقيقا بدرجة كافية، لأنه يعتمد في أساسه على قوة إدراك العقل الإنساني ودرجات الفهم لمعنى الآية، وطالما كان الإدراك فرع من فروع العقل، وطالما ثبت أن أولوا الألباب يختلفون في فهمهم لنصوص الآيات كل حسب قوة عقله ودرجة إدراكه، وأن العقول النيّرة تختلف في درجات الفهم وسعة البصيرة كما يحصل بين العلماء والفلاسفة والحكماء عند تمحيص قضية مبهمة أو مسألة معينة فيتفقون أو يختلفون في نتائجها؛ إذن لا يصح الاعتماد بشكل تام على قوة الإدراك، إذ لابد وان يعتريها شيء من الضعف أو الخطأ.

أما القسم الثاني من المفسرين، فهم أولئك الذين يبحثون بين سطور الآيات ومعاني كلماتها الخفية ويتدبرون الغاية من نزولها، فيركزون على معانيها الباطنية معتمدين على قوة عقولهم وإدراكهم في البحث والتنقيب، لأنهم يؤمنون أنه كلام سماوي من عند الله

سبحانه وتعالى وليس كلام بشر، ولا بد أن يكون في أعماق بحور معانيها جواهر أسرار لم تطمثها يد إنس ولا جان. ومع ذلك، فهذه الطريقة لا تنجي هذه الفئة من الوقوع في مجالي السهو والخطأ أيضاً، إذ ينطبق عليهم نفس المقياس السابق ونتائجه، لأن ميزانهم هو ذات قوتي العقل والإدراك؛ كما انه لا يمكن الاقتصار على المعاني الباطنية للآيات دون ظاهرها.

أما القسم الثالث، فهم الأكثر دقة والأقل وقوعاً في مجالي السهو والخطأ، وهؤلاء يحاولون تطبيق ومجانسة مفاهيم معاني كلمات الآيات الإلهية الظاهرية على معانيها الباطنية ليدركوا منها كل حسب قدرته العقلية أيضاً وبقدر مقدور ما أراد لهم سبحانه وتعالى النيل من جواهر علومها ودرر حِكَمها واضعين نصب أعينهم على مجمل معاني بقية الآيات. وعلى العموم فكتابات هذه الشريحة من العلماء والمفكرين ومؤلفاتهم قد تكون هي الأقرب إلى العقل والمعقولية في فهم النصوص المباركة من الشريحتين السابقتين. ولكن مع شديد الأسف، فمثل هؤلاء المفسرون نادرون جداً وبعيدون عن عامة الناس لأنهم يتكلمون بمستويات دقيقة يصعب على مدّعي العلم والمعرفة وأنصاف المتعلمين والمثقفين إدراكها أو فهمها، لذلك تراهم يسلكون سبل الحيطة والحذر في طريقة كلامهم واسلوب كتاباتهم حفاظا على نتاجاتهم الأدبية

وحياتهم وابتعادا عن الاحتكاك بغيرهم من الذين يسارعون لمد أيديهم قبل ألسنتهم، بل تمادى هؤلاء الأفذاذ في حيطتهم حتى ألبسوا كلماتهم حللا لا يفهمها إلا من خلق من طينتهم وسار على نهجهم فضلا على ما يضعه خصومهم من عقبات وسدود وموانع أمام انتشار أدبياتهم.

لكل هذه الأسباب والعديد غيرها، سندخل موضوع هذا الكتاب متكلين على الله تعالى معتمدين على نورانية عقول تلك الندرة القليلة من رجال هذه الأمة وعلى صفاء قلوبهم، وسنختار بعض القصص الدينية القديمة التي ما انفكت تتردد على ألسنة الناس وتتداول فيما بينهم منذ قديم الزمان دون مناقشتهم لأحداثها أو حتى محاولة التفكير والتأمل في مفاهيم جديدة لها، فأصبحت عندهم وكأنها قصصا بسيطة مسلم بمعانيها تدرّس وتلقن وقائعها وأحداثها العجيبة وتعلّم لصغار الطلاب في مراحلهم الابتدائية بشكلها الظاهري البسيط.

إن الأفكار التي تمس صميم العقيدة وجوهر الإيمان، تعتبر من أخطر الأمور وأجلّها عند عموم العباد، ولا يتطرق غالبيتهم إليها بل ولا يتقربون لمناقشتها مخافة الشطط والزلل رغم أهميتها في تمشية أمور مجتمعاتهم وتنظيم قوانينه، وإذا ما حاول مفكّر ما

التقرّب منها أو أبدى رأياً جديداً مخالفاً لما شاع وانتشر بين الناس عنها، فإنه وبمجرد أن يقرأ أو يسمع الجاهل المتعصب رأياً مخالفاً لما توارثه عن أجداده واعتاد سماعه من أفواه الناس المحيطين به أو وجد فيه ما يخالف فكره أو معتقده ولو حسب الظاهر، يبدأ من فوره بالرعد والزبد والتوعد، ويشرع بالطعن واللعن وكيل التهم بشتى الأنواع والأشكال. وكم من فكرة راقية سليمة وئدت حال ولادتها ووئد معها قائلها ومن شايعه وناصر فكرته، فخسرت الأمة بمثل هذه التصرفات المشينة غير اللائقة سبباً من أسباب رقيها ورفعتها وتقدمها.

إن حرية الفكر والتفكير وحرية الكلمة والكتابة وحرية الرأي والتعبير لهي من أسمى مبادئ الدين الحنيف والحياة الإنسانية السليمة، وهي من أهم الأسباب التي أدت وتؤدي إلى رقي الأمم ونشوء حضاراتها واستمرارها. والعكس صحيح أيضا.

فإن كانت الأفكار المطروحة في هذا البحث مقبولة وتتفق مع قدسية الدين ومنهجه العلمي الإيماني، استفادنا منها، وإن كانت على غير ذلك، كفاها تصدي المفكرين والعقلاء لها تصدياً فكرياً عقلانياً لدحضها وإبطالها بالحجة والمنطق **(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)**[2].

إن ارتفاع الأصوات في جميع أنحاء العالم مطالبة بوحدة الجنس البشري وضرورة نبذ وسائل العنف والقوة وإدانة الإرهاب والمطالبة بالحقوق الإنسانية وتصوير الأرض كقرية صغيرة واحدة والبشر سكانها وتشابك مصالح الدول والشعوب والبحث عن أنجع الوسائل للتعاون فيما بينها وظهور المخترعات والاكتشافات التي ساهمت بشكل واضح جدا على تقريب الأفكار والمسافات بين الشعوب، ليست سوى إشارات مضيئة وأدلة واضحة على دخول البشرية جمعاء في مرحلة عالمية تاريخية جديدة لم يسبق أن مرت بها أمم الأرض من قبل. فإن نوقشت هذه الأفكار، فمن المحتمل أن يكون لثمارها دور إيجابي قد يساهم في تقدم هذه الأمة ويخرجها مما بقيت تتخبط فيه لقرون عديدة من نظريات وأفكار عرجاء لا يخفى على العاقل اللبيب ما طفى على السطح من نتائجها السلبية الواضحة آثارها بين مجتمعات العالم الثالث، لأن البشرية لابد لها وأن تصل ذات يوم إلى عهد السلام والطمأنينة وتنبذ النزاع والحروب والإرهاب مهما طال الزمن، ومن الأحرى بهذه الأمة العريقة أن تشارك غيرها وتجد لها دورا واضحا في هذا المجال الإنساني؛ أما إذا رفضت، فمن السهل إهمالها ونسيانها، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى **(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ)**[3].

أمـا أن يـدعي داع دون إمعـان نظـر أو تـدقيق حصـيف ويصفها بأنها أفكار غريبة دخيلة لم يسبق أن سمع وأقرانه بها أو إنها أفكار خطرة تمس صميم العقيدة المقدسة وتهدم ما توارث عن الآباء والأجداد، وأنه من الواجب التصدي لها بحزم والوقوف في وجهها قبل أن تشوّه التراث والعادات والتقاليد وما توارثناه عن الآباء والأجداد. فعزاؤنا أنها تهمة سبق ووجهت إلى الكثير من الكتّاب والمفكرين والمؤلفين والمبدعين والمخترعين وإلى غالبية ما جدَّ من جديد النظريات الاجتماعية حال ظهورها؛ كما أن الديانات الإلهية المنزلة، سبق لها وأن تعرضت خلال مراحل تاريخ حياتها الطويل دون استثناء إلى الكثير من الهجمات اللئيمة الشريرة، سواء أكانت هجمات فكرية أم دينية أم عسكرية أم ثقافية، لكنها بقيت سليمة نقية معافاة، وفي النهاية خرجت من جميع تلك الأزمات متماسكة أقوى من سابق عهدها وآمن بها الناس وطبقوا قوانين شرائعها (فللبيت رب يحميه)، وما دام الجميع يعتقد بوجود إله واحد خالق جبار، وعد البشر وأنذرهم بإنزال العقاب الإلهي على كل من يتجرأ التقول عليه **(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)**[4]، فحسبنا هذا التهديد والوعيد الإلهي، وما علينا إلا مناقشة كل جديد والتفكر به لاستشفاف الخير للمجتمع.

إن الأفكار الواردة في هذا الكتاب ما هي إلا محاولة لا يمكنها الرقي إلى ما جاد به أعلام الأمة الكبار وجبال العلماء الأخيار على مر الزمان، فالإيمان المطلق بقدرة الله سبحانه وتعالى على الإتيان بمعجزات خارقة لقوانين الطبيعة لنصرة أنبياءه ورسله وانتشار شرائعه، وكذلك الاعتقاد بحقيقة حدوث تلك المعجزات بشكل أو بآخر واعتبارها حوادث تاريخية مادية حصلت بالفعل أمام عيون الناس، أمر لا يمنع من محاولة تجديد التفكير بتفاصيلها والبحث بين مضامينها وأحداثها وشخوصها لاستلهام نصائح وعبر وأفكار ومبادئ ومعاني جديدة وجوانب معنوية لتفسيراتها، فذلك أفضل من تناولها بطرق تخالف العقل الراجح وتجانب المنطق السليم أو الوقوف أمامها جامدين لا نلوي على شيء، فقد يكون من أسباب تكرار ذكرها بين متون الكتب الإلهية المقدسة، هو انتظار حلول موسم ربيع نضوج الفكر الإنساني الذي نعيشه اليوم وما يصاحبه من تطور سام ورقي رفيع.

فلو افترضنا أن الله سبحانه وتعالى كان يتكلم في الأزمنة القديمة . وهو العالم بما كان يفعله رجال الدين والدولة والسحرة، إن كان بعلم أو بغفلة منهم، من منع للناس عن تعلم القراءة والكتابة، بل وتحريمها شرعاً على أتباعهم وسنّ العقوبات المدنية والدينية الشديدة وإنزالها بكل من تجرأ على مخالفتهم وتعلمها سراً أو

علانية، وكيف كانوا يقصرونها فقط على أنفسهم لتبقى مقاليد قيادة دفّة البشرية بين أيديهم . مع خلقه وعباده من خلال كتبه ورسله وأنبياءه كما يتكلم الأب الحكيم مع أطفاله الضعفاء الصغار غير الناضجين، فيبقى يضرب لهم الأمثلة التوضيحية من واقع حياتهم الاجتماعية، أو كما يتكلم الأستاذ أو المعلم مع تلاميذه الصغار بلسان سهل وكلمات بسيطة ليشرح لهم بعض ما يتناسب مع عقولهم الصغيرة من مفاهيم معنوية دقيقة صعبة الاستيعاب، فيضعها في قوالب مادية من واقع الحياة ليرفع من مستوياتهم الذهنية والعلمية؛ لو افترضنا ذلك، لأدركنا ضرورة المحاولة في إعادة فهم حقيقة مفاهيم هذه القصص القديمة قدم التاريخ والسعي للاستفادة من عبرها وحكمها والبحث عن معاني عقلية ودلالات علمية مبتكرة لها، فلابد أن يكون لحكمة رب العباد مقاصد جوهرية عديدة ومعاني عميقة شتى من وراء تثبيتها وتجديد سردها في كتبه المنزلة، ولابد لها من حِكَم عظيمة ونصائح بالغة ومقاصد سامية يمكن التوصل إلى قبس من أنوارها، بعدما ترقى إنسان اليوم إلى مراتب عالية في مجال العلم والمعرفة والثقافة ومن تفهم جيد لأمور الدين والأيمان، كي ننافس بقية الأمم المتقدمة ونسترجع بعضا من أولئك المفكرين والعلماء إلى صفوف الأمة من الذين حادوا أو بعدوا عن طريق الأيمان والدين لظنّهم بمخالفة الدين لميزان العقل؟

ورُب قائل يسأل: ولماذا نبحث لهذه القصص عن تفاسير جديدة أو مفاهيم حديثة، ولماذا لا نأخذها مثلما فعل آباؤنا وأجدادنا، ولماذا نستنكر حصولها بشكلها المادي الظاهري، فالله قادر أن يفعل كل شيء وهو الذي يقل للشيء كن فيكون، وأن التاريخ القديم مليء بقصص المعجزات الخارقة لقوانين الطبيعة التي صدرت من بين أيدي الرسل والأنبياء؛ وما توقف حصولها وانقطاعها في هذه الأيام، إلا لانتهاء عهد المعجزات وزمانها، وما علينا إلا تصديق وقبول ما وصلنا من أخبارها خاصة وأنها وردت في الكتب المقدسة، فنحن لن نكون أفضل عقلاً وأوسع علماً من أجدادنا وأسلافنا، ثم من ذا الذي سيضمن الاستفادة من تجديد معانيها؟

وجواباً لكل ذلك هو قوله الكريم **(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)**[5]، فهذه الآية الكريمة والكثير غيرها، تستنكر على الإنسان تقليد أفعال غيره والتمثل بها، بل وتطالبه في البعاد عن الجمود الفكري والذهني، وتحثه على التفكير والتأمل والاستنباط والاختراع والسعي في أعمال الخير لجعل يومه أفضل من أمسه وغده أحسن من يومه لبناء مجتمع أفضل.

إن ما يرتفع اليوم من أصوات هنا وهناك بين الفينة والأخرى منادية بإعادة فتح باب التفسير والاجتهاد، ما زالت تواجه وتصد بصرخات الكثير من المعترضين ممن أدركوا أن مصالحهم الشخصية والفكرية والمادية ستتأثر سلباً مع هذه الدعوة وستفلت من بين أيديهم زمام الأمور. لكن المعقول في هذا النداء، أن التفسير والتوضيح والبحث والتقصي كان ولا يزال من مستلزمات العقل، والعقل مربوط بخالقه العاقل العليم الحكيم الذي يدعو عباده على الدوام إلى التفكّر والتعقّل والتأمل **(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)**[6]، وطالما نؤمن أن الله سبحانه وتعالى ذاتاً غيبية مقدسة غير محدودة، فلابد أن نؤمن أن عقل وتفكير عبده ومخلوقه المميز بين مخلوقاته غير محدودين، لأن المصنوع يدل على الصانع والإبداع يؤشر إلى المبدع، ومن هنا كان حتمية الاعتقاد باستمرارية تطور العقل الإنساني ودوامية نضوجه، كما يدل على ذلك التسلسل التاريخي لحضارات البشرية وتطورها، وكما تدل على ذلك تزايد المخترعات والاكتشافات العلمية الحالية؛ ولما كان الأمر على هذا النحو في الأمور المادية والحياتية، فلماذا يريد البعض تحديد قدرات العقول المعنوية والقوى الروحية الإنسانية بحدود أوهام قديمة وسلاسل خيال عتيقة، بينما أطلقت بقية الأمم لنفسها الحق والعنان للصول والانطلاق في هذا

الميدان، فكانت النتيجة، كل ما نشاهده اليوم من تباين وفروقات شاسعة بين مستوى أمم الشرق وأمم الغرب في مختلف المجالات.

ونعود لنتساءل: ألا يمكن الخروج بمفاهيم جديدة لهذه القصص الدينية القديمة قدم الزمان، توفق وتجانس بين العلم والدين معا؟ ألا يمكن أن تكون لهذه القصص معاني أخرى إضافة لما بين أيدينا؟ أمن الممكن استخراج جواهر معاني دفينة تساهم في اغناء الفكر الإنساني؟ هل غفل العقل البشري كل تلك القرون عن لئالئ حكمة الله في بطون أصداف كلماتها؟

إنها محاولة للفهم والاستيعاب وليس للاجتهاد والتفسير، وإنما الأعمال بالنيات، يدفعنا لذلك قوله تعالى **(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)**[7]، ودعوة المصطفى عليه السلام **(اطلب العلم ولو كان في الصين)**، وكذلك **(أنا مدينة العلم وعلي بابها)**[8]، وما هذا التبجيل والتعظيم من الله سبحانه وتعالى ورسوله المختار لمقام العلم والمعرفة إلا لتأثيرهما الفعال المؤكد في رقي الأمم وتقدمها.

الحواشي

(1) سنن ابن ماجه كتاب الفتن ج 2 رقم الحديث 3993، مسند احمد ج 3 ص 120 والترمذي في كتاب الأيمان.

(2) سورة الأحزاب الآية 25.

(3) سورة الرعد الآية 17.

(4) سورة الحاقة الآيتان 44،45.

(5) سورة الشعراء الآية 74.

(6) سورة آل عمران الآية 191.

(7) سورة الزمر الآية 9.

(8) صحيح الترمذي ج 5 ص 25 مستدرك الحاكم ج 3 ص 26.

الفصل الأول

قصة سيدنا آدم(ع)

من بين مختلف قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم ومن قبله كتاب التوراة، نجد قصة سيدنا آدم(ع) القديمة والتي تتميز بنكهة خاصة فريدة باعتبارها تحكي عن بداية خلق الإنسان وإيجاده ونزوله من الجنة وسكنه على الأرض وكيفية تكاثره. ففي هذه القصة العجيبة نجد أحداثا وأمورا غريبة تسرح بالخيال إلى أبعد الحدود حتى تتخطى حدَّ الواقع والمعقول، فما دار من حوار بين الله سبحانه وتعالى من جهة وبين إبليس من جهة أخرى وإعطائه الفرصة الكاملة لغواية الناس وتوريدهم موارد الهلاك رغم تمتعه بكل تلك القوى العجيبة التي يقف الإنسان أمامها عاجزا تماما، لا يمكن أن يتفق مع رحمة الله وحكمته، كما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى **(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَاسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ . قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنْ الْمُنظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ . قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ**

أَجْمَعِينَ . إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ . قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ . لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)[1]، وكذلك ما جرى من حوار غير متكافئ بين سيدنا آدم(ع) وإبليس! كما ورد في قوله تعالى **(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى)**[2]، وما حصل بعد ذلك من عملية العقاب الإلهي لسيدنا آدم(ع) ومن ثم لجميع أولاده وأحفاده من البشر بسبب مخالفة تعتبر في ظاهرها بسيطة لا تستحق مثل هذا العقاب الشديد والمعاناة الطويلة الأمد للبشرية جمعاء. كل هذا وغيره، يدفعنا لإعادة قراءة القصة بصوت عال والبحث بين سطورها والتفكر في مضمونها علنا نجد معاني أخرى لها أكثر عمقاً.

ومن الضروري قبل الدخول في معاني هذه القصة القديمة أو تحليل أحداثها وشخوصها، مراجعة بعض الأسس والتفاصيل التي استندت عليها في بعض جوانبها اللطيفة، وبذلك كان من الضروري العودة إلى أصولها وبداياتها ومن أين لنا بمثل هذه المعلومات القديمة قدم الإنسان.

من المعلوم أن كتاب التوراة يعتبر من أقدم النصوص المقدسة المدونة التي اعتمد عليها المؤرخون والمختصون لقراءة تاريخ نشوء البشرية قديما وحديثا، حيث لم يكن القرآن الكريم قد نزل بعد، وعندما نقرأ سفر التكوين . وهو أول جزء من أجزاء سفر التوراة . نجد فيه سرداً متسلسلاً لأسماء أبناء وأحفاد سيدنا آدم وأعمارهم

حتى يصل الترتيب إلى سيدنا موسى(ع)[3]. وعندما نحصي عدد السنين الفاصلة بين ولادة آدم(ع) حتى ولادة سيدنا نوح(ع)، نجدها بحدود (1056) سنة تقريبا، ثم نجد أن هناك (600) سنة تفصل بين ولادة سيدنا نوح وحدوث الطوفان، ثم نجد كذلك أن هناك حوالي (390) سنة بين ولادة سام ابن نوح حتى ولادة سيدنا إبراهيم(ع)، يضاف إليها حوالي (200) سنة بين ولادة اسحق ابن إبراهيم(ع) وبين ولادة يعقوب أبو يوسف، ثم وبنص التوراة هناك مدة (433) سنة تفصل بين هجرة النبي يوسف إلى مصر عندما كان عمره آنذاك (17) سنة وبين زمن خروج بني إسرائيل من مصر مع سيدنا موسى(ع) وعودتهم إلى الأرض المقدسة، فإذا أضفنا إلى كل ذلك المدة الفاصلة بين ظهور سيدنا موسى وظهور سيدنا عيسى عليهما السلام، وهي بحدود (1500م) سنة، وكذلك المدة الفاصلة بين ظهور السيد المسيح(ع) وظهور سيدنا محمد(ص) وهي بحدود (622م) سنة، وكذلك مدة عمر الديانة الإسلامية حتى اليوم (1425هـ)، نجد في النهاية أن المدة الإجمالية التقريبية بين ولادة سيدنا آدم(ع) وتاريخ اليوم هي بحدود الستة إلى السبعة آلاف سنة. فإذا تذكرنا أن هذه المدة هي التي كان يعول عليها رجال الدين والباحثون القدماء ويأخذها المؤرخون في الحسبان قبل القرن الثامن عشر تقريبا، أي قبل ظهور الاكتشافات والحفريات وعلوم الجيولوجيا والآثار، وأن غالبية البشر كانوا يعتقدون بصحة هذا

التاريخ ويلتزمون به باعتباره إرثاً وحيداً فريداً حيث لم يكن لديهم مصدراً آخر غيره يعتمدون عليه في معرفة عمر الأرض ونزول سيدنا آدم(ع) من الجنة إلى الأرض، وأن الشك لم يتطرق إلى هذه التواريخ إلا بعدما تطور العلم وظهر علم الجيولوجيا وأظهرت الحفريات في بقاع مختلفة من الأرض آثارا لهياكل بشرية تعود أعمارها إلى مئات الألوف من السنين.

فلقد ورد في كتاب سلسلة عالم المعرفة: {تختلف الآراء حول عمر الإنسان على هذا الكوكب، وأقرب الآراء إلى القبول هو ما ذهب إليه المؤرخ أرنولد توينبي من أن أقدم آثار للإنسان عثرنا عليها ترجع إلى ثلاثمائة ألف سنة، ولكن أكمل الهياكل العظمية الكاملة التي وجدناها ترجع إلى تسعة وأربعين ألف سنة.}[4].

وكذلك: {فإن المؤرخين المعاصرين يرون أنه إذا كان عمر الإنسان في الأرض ثلاثة ملايين من السنين، فقد انقضت منها مليونان وتسعمائة ألف سنة وهو أسفل الجبل (جبل التاريخ) يكتشف هذه الاكتشافات الأولية، من استخدام النار وصنع الفخار ومعالجة صيد الحيوان للتدثر بجلودها قبل أن يأخذ في صعود الجبل. بل هو أنفق تسعين ألف سنة أخرى قبل أن يأخذ طريقا مفتوحا للصعود المستمر، فكأنه أنفق في الاستعداد للصعود والبحث عن الطريق، تسعاً وعشرين مرة قدر ما أنفق في السير الحضاري إلى اليوم.}[5].

ومن خلال هذه الكتابات وغيرها من البحوث التي لا تعد ولا تحصى، نفهم أن هذه الاكتشافات العلمية قد نجحت في أخذ بعداً علمياً حقيقياً لها، وبالتالي تكون قد ألغت ثم نسفت النظرية الدينية التي سبق وحددت عمر وجود الإنسان على الأرض بستة أو سبعة آلاف سنة من الأساس، وبهذا تكون قصة نزول سيدنا آدم من الجنة الى الأرض قد اهتزت أيضا ولكنها بقيت مترسخة في عقول الكثير من البشر باعتبارها إرثاً دينياً مؤيداً بنصوص سماوية، وبقي أتباع الديانات التوحيدية يعتقدون بهذا الاعتقاد القديم استنادا إلى ما ورد من نصوص في كتبهم المقدسة، كما أيّد ذلك قوله تعالى في قرآنه الكريم **(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)**[6].

لذلك كان من الضروري محاولة غلق هذه الثغرة الواضحة بين المفاهيم الدينية والمفاهيم العلمية قدر الإمكان ومحاولة التوفيق بين ما يقوله العلم الذي يستند في نتائجه على حسابات دقيقة لا تقبل الخطأ، وبين النصوص المنقولة عن الكتب المقدسة التي تقبل مختلف التفسيرات والتأويلات وتقول بخلق الإنسان ثم نزوله على سطح الأرض.

قبل كل شيء علينا أن لا ننسى أن للنصوص المقدسة معاني كثيرة لا حصر ولا عدّ لها، بدليل أنها فتحت المجال على مصراعيه للسابقين واللاحقين في توسيع دائرة التفسير والتأويل

والتبيين وبالتالي ظهور مختلف أنواع الفرق والمذاهب، فلو كان النص السماوي واضحا صريحا لا لبس فيه والبشر يتفهمونه ببساطة بمختلف مستوياتهم العلمية دون عناء، لما اختلفوا في تفسيره وتباينت وجهات نظرهم وظهر الاختلاف فيما بينهم، بل ولما تشعبت الأديان إلى فرق ومذاهب عديدة، ولما ظهر التباين واضحاً شاسعاً بين تفسيرات النصوص المقدسة وبين النتائج العلمية.

وهناك نقطة مهمة أخرى لابد من تناولها، وهي أنه ليس من المعقول أن يكون معدل حياة الإنسان القديم الذي عاش قبل سبعة آلاف سنة بحدود التسعمائة سنة أو أكثر أو أقل، كما هو الحال مع عمر سيدنا نوح(ع)، ثم بدأ يقل ويتقلص بهذه السرعة الكبيرة حتى وصل اليوم بحدود الستين أو السبعين سنة، فهذا أمر يخالف الواقع وما تثبته النتائج العلمية والبحوث الطبية، بل ولم يجد علماء اليوم أي أثر جيولوجي أو مادي قاطع يدل على طول حياة إنسان تلك الحقب السحيقة.

من كل هذه التناقضات كان لابد أن يكون هناك حلٌ وسط أو تفسير مقبول لهذه المعضلة التاريخية يتقبله العقل الراجح والمنطق السليم؛ فلو قلنا أن حدود عمر الإنسان الطبيعية بقيت ثابتة منذ قديم الزمان حتى اليوم لا تتغير كثيرا، وتتراوح بين الستين والثمانين كمعدل متوسط، بل أن العلم الحديث يقول أن معدل عمر إنسان اليوم هو أطول نسبيا من السابق وذلك بسبب وجود الأطعمة

الجيدة النظيفة والأدوية الناجعة والمعقمات الفعالة وسبل الاعتناء بالصحة العامة وكيفية الاستفادة من العلم والمعرفة وعناية الدولة والمؤسسات الصحية وتصاميم الأبنية الحديثة وما إلى ذلك من الاختراعات والمكتشفات الحديثة، قد يوحي لنا أن ما ذكر في الكتب القديمة عن طول أعمار بعض القدماء، هي إشارة في بعض معانيه إلى طول عمر أديانهم وشرائعهم منذ بداية ظهورها حتى نهاية أجلها؛ فلو أخذنا بهذا الرأي لكان أكثر معقولية ولجاء التفسير أكثر قبولا، خاصة وأن الحضارات العراقية القديمة التي تعتبر من أقدم الحضارات البشرية والتي تعود أعمار بعضها إلى آلاف السنين، لم تذكر شيئاً عن هذا الموضوع.

فلو وافقنا أن نوح عاش كل هذه السنين الطويلة، فهذا يعني أنه بقي على قيد الحياة إلى قبل ولادة سيدنا إبراهيم بأربعين سنة فقط حسب التواريخ التوراتية، بينما نجد أن سيدنا إبراهيم(ع) لم يعش أكثر من 150 سنة فقط! وأن ابنه يوسف(ع) عاش 110 سنين فقط. فمثل هذه الطفرة الطويلة غير الطبيعية في تباين أعمار الناس خلال فترة بسيطة تعتبر غير معقولة، فلماذا يبقى إنسان مثل نوح(ع) على قيد الحياة طوال تلك الفترة بينما يعيش أحفاده أقل من سدس مدة حياته؟

قد نجد تفسيرا منطقياً لهذا التباين في الأعمار إذا افترضنا أن المقصود بمدة حياة نوح(ع) كما ورد في قوله تعالى (**وَلَقَدْ**

أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)[7]، هي إشارة إلى مدة حياة شريعته التي عاشت بين الناس حتى ظهور الشريعة الإلهية التالية، وهي بذلك تعتبر ذات فترة بقاء اسمه حياً كصاحب شريعة وكتاب. هنا يمكن اعتبار هذه الفترة معقولة إذا تذكرنا في المقابل أن عمر شريعة التوراة كان 1500 سنة، وأن عمر شريعة الإنجيل حدود ستمائة سنة، وأن عمر الشريعة الإسلامية أكثر من أربعة عشر قرنا حتى اليوم. وبهذا يكون من الممكن القول أيضا أن سيدنا موسى(ع) عاش 1500 سنة، وعاش سيدنا المسيح(ع) أكثر ستمائة سنة، وأن عمر سيدنا محمد(ص) أكثر من أربعة عشر قرنا حتى اليوم.

نعود إلى قصة سيدنا آدم(ع) التي يبدو أن لها معانٍ عميقة خفية في باطنها بقيت بحاجة ماسة إلى كثير من التمعن والتفكير الدقيق، حيث يتضح بعد التمحيص أن لها دلالات علمية عميقة وخطيرة تغوص إلى أعماق النفس البشرية، خاصة وأن بعض الآيات القرآنية تحدد نهاية فاعلية تأثير قوة (إبليس) الخارقة على نفوس البشر بموعد محدد أخير أشير إليه في الآيات الكريمة السابقات بمفاهيم وأسماء وصفات متعددة، منها: **وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ... قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ... إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ... والى** يوم القيامة، ويوم الخروج، ويوم الحشر،

ويوم الصاخة، ويوم الواقعة..الخ. لذا كان من الضروري التأمل بمفاهيمها جيداً، ولولا أهميتها وفائدتها العظيمتين لبني البشر، لما حفظها الله سبحانه وتعالى وكررها في كتبه المنزلة.

من المعلوم أن صياغة أي مثال أو تشبيه بشكل صحيح وصورة سليمة، لابد من توافر مقوماته المطلوبة بشكل كامل تقريبا ليتحقق الهدف من ضرب المثال، لذا فذكر ظرفي الزمان والمكان ووصف الشخوص وتسلسل توقيت الأحداث هي أمور لابد منها لتوضيح الصورة. وما ورد في هذه القصة القديمة قدم تاريخ البشرية من أحداث ومسميات، نرى معالمها فعالة وآثارها متواترة باقية حتى اليوم، كما هو الحال مع مفردات الجنّة والأرض والشجرة والثمرة والحيّة والإنسان والمرأة والخير والشر والسعادة والشقاء وروح الإنسان ونفسه؛ ومن الوارد جدا، أن الله سبحانه وتعالى مطلع تماما وعالم بعلمه الغيبي أن العقل الإنساني سيرتقي ويحاول ذات يوم بعدما تتوفر له الأدوات التقنية والعلوم المناسبة في البحث والاستقصاء عن كيفية وطريقة خلقه وتاريخ وجوده على الأرض، وكيف تكوّن الكون بمجراته وكواكبه، ومن أين بدأ، وما هي مواد تكوينه، وما هو دور الإنسان الحقيقي والغاية من وجوده في كل ما جرى ويجري؟

وبما أن الإنسان سيجد صعوبة كبيرة في العودة إلى معالم خلقه ودلالات وجوده من خلال استقراء ذلك التاريخ البعيد الموغل

في القدم، بعدما تبدلت معالم سطح الأرض واختلفت طبقات قشرتها واختفت واندثرت آثار كثير من الحضارات الإنسانية وانطمرت معالمها، لذلك ترك سبحانه وتعالى للبشرية هذه القصة الإعجازية (قصة سيدنا آدم) بين بطون كتبه المقدسة ليسهّل على الإنسان (مخلوقه المحبوب المميز) ويمهد له عملية الاستدلال والبحث من خلال أحداثها المختصرة والموجزة بشكلها العجيب، ليستشف منها قدراً مقدوراً عن بداية خلقه ووجوده على الأرض، وليدرك شيئاً عنً بداية رأس خيطها الرفيع وتاريخه وتاريخ قدماء البشر وحضاراتهم، عسى أن يستوحي منها ما يفيده في ترتيب مستقبله بشكل أفضل.

إن ما يشجعنا في البحث عن معاني جديدة لهذه القصة العجيبة، إيماننا بأن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا العقل الإنساني الجبار المبدع المتطور الذي لم يعد يتقبل المفاهيم القديمة والنظريات الموروثة دون محاولة التحقق من صحتها ودراستها أو مطابقتها مع العلم التجريبي، فالعقل الإنساني يكبر ويتوسع بالعلوم والمعارف على الدوام، وكلما وجد العقل الناضج أن لباس مفاهيمه العلمية أو التراثية قد ضاقت وصغرت عليه ولم تعد تليق به أو تناسبه، يحاول خلعها ورميها جانباً ليرتدي لباس مفاهيم جديدة أخرى تتوافق مع حجمه وقدّه الجديد. لذلك فمن المؤكد أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بصيغة علمية حكيمة معقولة قد يتقبل ويفهم منها العقل الإنساني أمورا في حينها ثم قد يكتشف حقائقها لاحقا

فيما بعد، وأنه تعالى ما ألبسها ذلك اللباس التشبيهي المرمّز إلا رعاية لقدرات الإنسان العقلية المحدودة في الأزمنة السحيقة، وأنها كانت وما تزال في حقيقتها بعيدة كل البعد عن مفاهيم الخرافات وضروب الأوهام، ولابد أنها أعلى مرتبة ومقاماً من عقل مخلوقه الإنسان، إذ ليس من المعقول أن يستنتج المخلوق أفكاراً ونظريات علمية يتفوق بها على العقل الكلي الإلهي ومن ثم يحتج بها عليه، كما قال تعالى **(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)**[8]، فهذه الآية الكريمة على سبيل المثال، تفتح المجال واسعاً أمام العقل البشري للتفكير بمعاني أخرى لهذه القصة الإلهية الخالدة خلود الإنسان على الأرض وغيرها حتى لا تكون للناس حجة على كلام الله. وكما علمنا، أنه مثلما تكون كلمات الله كثيرة لا حصر ولا عدَّ لها، كما أكد على ذلك قوله تعالى **(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)**[9]، كذلك لا بد وأن يكون لآياته وقصصه وأمثاله معاني لا عدَّ ولا حصر لها، كما قال تعالى **(وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ)**[10]. كل هذا وغيره يشجعنا على البحث والتحري داخل حدود الأيمان وأطر الدين والعلم.

فعلى سبيل المثال، لو افترضنا أن من معاني هذه القصة العجيبة، ما ينطبق منها بشكل من الأشكال على ساعة ولادة

الإنسان من بطن أمه، وعلى استمرار حياته في هذه الدنيا، لاتضح أن لها معنى آخر جديد من عديد معانيها، ولوجدنا انطباق هذا التصوير على مجريات أحداث القصة بشكل من الأشكال.

فلو افترضنا أن شخصية (آدم) المعروفة، تمثل روح كل مولود جديد يخلقه الله في هذه الحياة الدنيوية؛ وأن رحم الأم هو بمثابة (الجنة) التي عاش فيها آدم الجنين سعيداً طاهراً نقياً من غير مساوئ أو أخطاء؛ وأن هذا العالم المادي (الأرض) هو العالم الذي نزل إليه (آدم) الجنين بعد ولادته؛ وأن (الثمرة) هي إشارة إلى ثمرة التربية الخاطئة التي يتغذى عليها بعض الأطفال عن طريق مجتمعاتهم؛ أما (الحيّة) فيمكن تمثليها بالطريقة الهادئة التي تتسلل بها كل فكرة سيئة إلى عقل الإنسان دون شعور أو انتباه خلال حياتهم؛ أما (إبليس) فيمثل رمزاً لذات الفكرة السيئة أو تشبيهاً لكل رفيق سوء يلتقي به الإنسان في مسيرة الحياة؛ أما بالنسبة إلى الرمز (حواء) فهي تمثل كل نفس إنسانية ضعيفة التربية ترتضي التقرب من السيئات أو تحث غيرها على ممارستها. أما بالنسبة إلى ما جاء في القصة من كلمات التوجيه أو التوبيخ أو المنع الإلهي (لآدم) الطفل حال تناوله الثمرة، فهو يمثل بشكل من الأشكال ما يبتغيه المربي السليم للطفل ويرجو له من خير وسعادة وما سينقله له من تعاليم وتربية صالحة صحيحة نابعة من مبادئ الخير وتعاليم الشرع والدين الحنيف والعلوم والأفكار الحسنة.

فمن المعلوم أن جسد المخلوق الإنساني يتكون في رحم الأم بحجم صغير جدا لا يرى بالعين المجردة ساعة انعقاد نطفته، ثم تبدأ عملية النمو بطريقة متدرجة حتى تكتمل جميع حواسه خلال فترة الحمل، وخلال هذه المدة، يكون جسد هذا الكائن اللطيف في حالة تكوين وبناء، ومن أهم ما يبنى فيه من أعضاء هي الحواس الخمسة التي ستعينه فيما بعد على اكتساب تربيته وتعليمه وخبرته من خلال الاتصال بما حوله، فهي الأبواب والنوافذ التي من خلالها ستتصل الروح وتتواصل مع عالمها الخارجي وتتعامل معه. ومثلما يكون هذا النمو والبناء جاريا على الجسد والحواس المادية، يكون جاريا في نفس الوقت على القوة الكامنة المعنوية (الروح)، أي ما يسمى في قصتنا بـ (آدم)، أي حقيقة الذات الإنسانية التي يبدأ وجودها وخلقها في لحظة انعقاد النطفة واتحاد قطبيها (الحيمن والبويضة).

فإذا علمنا أن تصرفات الإنسان هي ترجمة فعلية لأفكاره، وان الأفكار تدخل إلى العقل من خلال الحواس الخمسة، وهي على العموم تنقسم إلى قسمين، إما أفكار حسنة أو سيئة. فإذا افترضنا أن للأفكار الحسنة تعلق بالروح، بينما تتعلق الأفكار السيئة بالنفس، نفترض أن للذات المعنوية الإنسانية الواحدة، وجهان مختلفان متناقضان، الأول هو وجه (الروح) الخيّر الإيجابي السليم،

أما الوجه الثاني فهو (النفس) السلبي الأمّار بالسوء، وهو ما يمثلهما في قصتنا، شخصيتي (آدم) و(حواء).

فطالما كان الجنين (آدم) باقياً في بطن أمه، وطالما أنه لم يولد ولم يخرج وينزل إلى هذا العالم المادي الخارجي بعد، فهو يعيش سعيداً رغداً في جنته مطمئناً متمتعا بعالمه الخيّر، وروحه لم تتدنس بموجودات العالم الترابي بعد، وفي هذه الحالة، أي وجوده في فترة الحمل، لا يكون هناك أي دور سلبي على الإطلاق للنفس الأمارة (حواء) للتأثير عليه، فهو لم يخرج من جنته ولم ينزل بعد حتى يتلوث بموروثات مجتمعه وقيمه الدنيوية التي تختص (حواء) باستقبالها والتعامل معها. وقد يكون هذا بعض ما تشير إليه القصة من وجود فترة زمنية فاصلة بين خلق آدم وبين خلق حواء (التي خلقت فيما بعد من أحد أضلاعه).

وبمعنى آخر، يخلق الإنسان في بطن أمه نقياً طاهر الروح، لأنه من عمل يد الله سبحانه وتعالى وصنعة يده، لذلك لابد أن تكون هذه الصنعة وهذه الخلقة خير في خير وخالية من أي سوء، وبهذا يكون الإنسان في صميم جوهر روحه مستعداً لاستقطاب كل الصفات الحسنة والخيّرة إذا أحسنت تربيته وكمل تعليمه، لكن هذه الروح الطاهرة لها جانبها السلبي وصفتها الأخرى اللصيقة بها، وهي النفس الإنسانية (حواء) التي لا يبدأ عملها وفاعليتها ولا تولد

أو توجد إلا لحظة تنفسها روائح السوء عند تقبلها الأفكار السيئة والميل لاكتسابها والتقرب إليها إذا ما أسيئت تربيتها.

وبالاختصار، يخلق ويتكوّن الإنسان طاهرا نقياً في رحم أمه، فتبدأ روحه (آدم) في النمو والعيش في جنتها (الرحم) وهي سليمة نقية من الآثام والمساوئ، وعندما يكتمل نمو جسده وينزل من رحم (جنته) إلى مجتمعه وعالمه المادي (الأرض)، يكون لروحه استعداد كامل للتأثر بكل ما حولها من مؤثرات إيجابية خيّرة أو سلبية شريرة، وذلك من خلال استعمال نوافذ حواسه المادية الخمس المطلة على مجتمعه الخارجي. فإذا عاش الإنسان (آدم) في مجتمع سليم وتربى على الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم المفيدة في عائلة طيبة، بقي روحاً سليمة طاهرة صالحة، أما إذا عاش في مجتمع أو بيت فاسد رديء، عندها تتلوث روحه وتفقد صفاتها الروحانية لتتبدل إلى صفات نفسانية فاسدة، فتسمى بالنفس الأمارة السيئة. لكنه طالما كان وما يزال هذا العالم المادي تغلب عليه صفات التلوث بالشرور والآثام، وأن تصرفات البشر بقيت في غالبيتها سلبية غير ناضجة منذ زمن وجوده حتى هذا اليوم، لذا يمكن إلقاء بعض الضوء على بعض أسباب صبغة تاريخ البشرية بكل تلك الشرور والحروب والدماء.

إن أخلاق (آدم) وصفاته الظاهرة بقيت تتأثر بقطبي واقعه وتتأرجح بين الخيّر والشرّ، وبقي يكتسب صفاته الايجابية أو

السلبية من مجتمعه ومن المحيطين به ويتفاعل معها وينمو ويتذبذب بين هذه وتلك، فتارة نراه طفلاً مؤدباً حسن السلوك، وأخرى متمرداً سيئ التربية؛ واستمر على هذا المنوال تتجاذبه مفردات مجتمعه ومكتسباته، حتى يكتمل نموه، فيكون في النهاية إما شخصاً كامل ذا روح حسنة، أو نفس ذات سوءات ورذائل. وباكتمال العقل ورجاحته، تظهر شخصيته الحقيقية على طبيعتها من خلال ترجمة أفكاره إلى تصرفات وأفعال، فإذا كان حسن الأخلاق، ينتصر روحه (آدم) على نفسه (حواء) ولا يترك لها مجالا للتأثير على تصرفاته، وبهذا يكون فرداً صالحاً في مجتمعه. أما إذا تأثر (آدم) الروح بما قابله من مساوئ وشرور في مجتمعه، عندها تنتصر (حواء) عليه ويصبح نفساً ملوثة فاسدة يترجم ما في داخله إلى تصرفات سيئة غير مقبولة.

ومن أوضح هذه الأمثلة وأجلاها للعيان ما يظهر على رجال الدولة والقادة من تصرفات وأفعال، فيكتب التاريخ عن هذين الصنفين، أن هذا الرجل العظيم قد رفع من شأن أمته إلى أعلى قمم المجد والحضارة، وذاك الرجل الشرير دمرها وأنزلها إلى أدنى مستويات الحضيض.

وهكذا يكون لهذه القصة الخالدة، قصة (آدم وحواء) معنى آخر، وهي قصة حياة الإنسان الفرد، فهو يخلق ويتكون طاهراً في (جنة) عالم الرحم الخالي من الشرور، ثم ينزل إلى العالم الأدنى

(الأرض)، فيبقى في بداية حياته وصغر سنه طاهراً سليما حتى يبتدئ التأثر بما يدور حوله من مؤثرات إيجابية أو سلبية، هذه تلتصق بروحه النقية وتلك تتغلغل في نفسه الأمارة، ومع مرور السنين تنعكس هذه المكتسبات المعنوية بنوعيها المتناقضين على تفكيره ومن ثم تترجم إلى تصرفات، فيتبين شدة تأثيرهما عليه وأيهما كانت الأرجح والأقوى على شخصيته، فإن كان تأثير (إبليس) سيئات المجتمع قوياً، وسمح (لحيّة) الإغواء في التسلل إلى ذاته والتأثير عليه ليتقدم ويأكل من (ثمرة) الشرور، هنا يسلك سبيل الرذيلة وغوايتها. أما إذا كان تأثير (إبليس) الشرّ ضعيفا أو معدوماً على روحه، ولم يسمح (لحيّة) الإغواء بالتسلل إلى روحه، واستطاع المربي أو المعلم حفظها وصيانتها وتحصينها، ولم يترك للحيّة مجالاً أو ثغرة تدخل منها لتلتجئ في داخلها، بقي إنساناً سوياً ولبنة فعالة مفيدة في مجتمعه.

* * *

ولننظر إلى قصة (آدم وحواء) من جانب آخر، فمن المعلوم أن كل إنسان في المجتمع، أما أن يكون مفيدا أو مخرباً، إيجابياً أو سلبياً، يحب مصلحة الجميع أو أنانياً يحب مصلحة نفسه ويفضلها على سواه. فلو مثّلنا البيت الطاهر السليم بجميع أفراد عائلته بالـ (الجنة)، ومثّلنا المجتمع الخارجي عن البيت بـ (الأرض)، وافترضنا

أن (إبليس) هو عموم صفات المجتمع السيئة، وأن (الحيّة) هي العلاقة بين الفرد ومجتمعه، لوجدنا هناك معنى آخر لهذه القصة.

لنفترض أن (آدم)، هو الإنسان الذي ما يزال يعيش في (جنة) بيته وعائلته متنعما بتعليم وتربية والديه وإخوانه وأقربائه الطيبة الحسنة، ولمّا يخرج بعد إلى عالمه السفلي (المجتمع)، فعندما يأتي زمن الكمال والنضوج والخروج من البيت للاختلاط بالمجتمع، تكون هي لحظة نزول آدم من (جنة) البيت إلى (أرض) المعرفة والتمييز، هنا تبدأ (روح) آدم بالاحتكاك بمجتمع التناقض ومواجهة تصرفات أفراد مجتمعه السلبية أو الايجابية، فإذا كان أساس بناء روحه، متين متشبع بالخير والأخلاق ومتحصن بمبادئ الدين والعلم والمعرفة والصلاح، بقيت روحه قوية التربية سليمة العريكة، وبقي هذا الفرد يمثل جانب الخير والطهارة بين زملائه وأقرانه ومجتمعه. أما إذا كانت أجواء بيته ملوثة بالأفكار الفاسدة الشائبة، فنراه غير متردد في الارتماء بين أحضان شريحة المجتمع الفاسدة.

وقد يعيش الإنسان وسط أجواء عائلة تتذبذب أفكارها وتصرفاتها بين الخير والشر، فنراه يعيش في مواقف متباينة يحتاج فيها إلى اتخاذ قرار ذاتي خاص، ويحار في أمره ويتحير، هل ينجرف مع تيار الرذيلة أم يقف مع الخير والسلوك الحسن. في هذه الحالة يظهر ميزان التربية ومكتسبات البيت والعائلة، فإذا كانت

مكتسباته التربوية العائلية جيدة، فسيحاول رفض الواقع الرديء ويجاهد في تغييره، وهنا تعتمد النتيجة على قوة روحه الطاهرة، وبهذا قد يستمر حتى نهاية حياته رافضاً مبادئ السرقة والرشوة أو استغلال الفرص والكذب والغش وغيرها من الأمور السيئة غير اللائقة. أو قد يضعف وترتخي قبضة روحه عن صفات الخير، فيتراجع بالتدريج عن طيبته حتى يمسي فردا سلبيا كأقرانه. أو قد يندمج على الفور في مجتمعه السلبي ولا يحتاج إلى فترة تردد، وذلك لاستعداده النفسي المسبق المستمد من أجواء العائلة.

* * *

وقد يكون (آدم) الطفل أو الطفلة هذا، نقياً في صغره عند أول خروجه من بيته (جنته) متوجها إلى مدرسته (أرضه) حينما يواجه لأول مرة (إبليس) التناقض بين أجواء عائلته وأجواء المدرسة، وقد تتسلل (حيّة) أخلاق أقرانه السلبية بدرجة من الدرجات إلى داخله دون أن يشعر بها، فيأكل من ثمرة الشر ويستلذ طعمها، أو لا يستلذ، كل ذلك يعتمد على ذات (روح) تربيته في بيته (جنته). وقد يمر ويتخطى (أرض) مدرسته بمختلف مستوياتها بروح قوية مسلحة بأسلحة التربية والخوف من الله والطمع في نعيمه وبركاته دون التأثر بمن حوله، فينتقل من مدرسته إلى مجتمعه وهو روح نقية وعضواً نافعاً، وقد يستمر على هذه الحال الجيدة مدى

الحياة. بينما قد يتأثر (بأبالسة) الشر الصغار من أقرانه في المدرسة أو خارجها ممن تأثروا بحيّات الشر مثله، وساعتها لن تنفع معه مناهج التربية والتعليم أو أحكام ونواهي (شرائع الله)، فيحذو حذو أقرانه ويحيد عن الطريق المستقيم، فيكمل أو لا يكمل دراسته ويشق طريقه في الحياة يتحين الفرص للانقضاض على فرصة سانحة أو فريسة غافلة يضعها حظها المشئوم في طريقه ليتغذى عليها وعلى منافعها مفضلا نفسه عليها.

* * *

و (آدم) هذا، هو الإنسان الذي يخرج من (جنة) بيته ليدخل مجال العمل (الأرض)، فيجدها مليئة بالشرور والآثام، أو بالفضائل والأعمال الحسنة، حسب رداء روحه وما تعكسه مرآتها من مفاهيم الحياة، فإن كان رداءاً جميلا، نظر إلى الحياة بعين الجمال والرضى والاطمئنان، وإن كان ملبساً شريراً، نظر إليها بعين الشرور والحسد وشارك في مستوى تردي مجتمعه.

* * *

و (آدم) هو المرأة بحد ذاتها!! فهي إنسان يحمل ذات الروح الطيبة عند خلقها وتكوينها، وعند خروجها من جنتها (بيتها وعائلة والديها) تنزل إلى دنيا المدرسة أو العمل (الأرض)، وهي مستعدة

للتجاوب مع أحوال مجتمعها. فإن كانت روحها ضعيفة غير سليمة سبق لها التأثر (بالأباليس) المحيطة بها، سلكت سلوكهم حسب استعدادها وانعكاس صورتها على مرآة نفسها. أما إذا كانت شجرة روحها قوية طيبة عميقة الجذور، فلا تتأثر بعواصف (الأبالسة) وتأثيرات سمومهم، وتبقى شامخة تظلل بفيء أغصان محبتها وأفنان تربيتها وأوراق حنانها كل من يستجير بظلها.

* * *

و (آدم) هذا، هي البنت الصالحة الناضجة لسن الزواج، بعدما تزف كعروس طاهرة وهي خارجة من (جنة) بيت أبيها إلى (أرض) بيت زوجها، فإن ارتبطت برجل يحمل روحاً (حوائية) فاسدة، واستطاعت (حيّة إبليس) أفكار زوجها التسلسل إلى روح نقاوتها بهدوء وخفّة دون شعور منها، وأقنعها بتناول ثمرة المفاسد، تنزل من جنة الخير العلوية إلى عالم الشر السفلي. أما إذا ارتبطت بروح زوج (آدم) نقية طاهرة شبيهة بها، بقيت سليمة نقية معافاة، وعاشا في (جنة) المحبة والخير ليكونا لبنة أسرة صالحة في بناء المجتمع.

* * *

وقد تكون الصورة عكسية، حيث يمكن أن يمثل الرجل (الزوج) شخصية (آدم) الخيّرة، بينما تمثل الزوجة شخصية (حواء)

الأمارة بالسوء .كما هي الفكرة المنتشرة بين الناس . فيتأثر (آدم) بأنفاس (حواء)، ويفسدان أجواء عش بيت الزوجية (جنتهما) معا.

* * *

وقد يكون من معاني شخصية (آدم)، الفكرة!! نعم الفكرة الطيبة الشريفة المبتدعة المولودة أو المخلوقة في (جنة) عقل كل إنسان طاهر شريف، فحالما يكتمل نمو (آدم) الفكرة في جنتها، أي داخل العقل، تخرج أو تنزل إلى عالم (الأرض) والواقع وهي نقية سليمة مترجمة إلى كلمات وبرامج أو مخططات وتصاميم تبهج القلوب والأرواح لتساهم في تعمير الأرض وبنائها. فإذا أخذت مسارها الصحيح إلى هدفها النهائي كما خطط لها، من خلال دقة الأداء وجودة التطبيق، فهي (آدم) الخير والفكرة الصالحة الخلاّقة. أما إذا تلقفتها أيادي وأفكار (أبالسة) السوء الفاسدين والمنتفعين، وأضافوا لها سموم ثعابين أفكارهم الشخصية بطرقهم الخبيثة الخافية عن عيون الناظرين من بني آدم، بعدما يجمّلوا شكل (ثمرة) فوائدها ونتائجها، نزلت (آدم) الفكرة وهبطت من عالمها الطاهر إلى أرض الفساد لتساهم في تخريب عقول ونفوس المجتمع.

* * *

ومن أهم ما يمكن أن ترمز إليه قصة (آدم وحواء) وتعبر عنه، أنها قصة مقدسة تمثل أو ترمز لكل دين سماوي ينزل من عند الله،

إذ يمكن تشبيه الدين بـ (آدم) أو تشبيهه بالماء الطاهر المقدس النازل من سماء القدرة والعظمة الإلهية إلى (الأرض) أرض عقول الناس وبيداء قلوبهم، لكن هذا الماء (آدم) لا يبقى على حاله، إذ لا بد . وبمرور الوقت . أن تمتد إليه أيادي (الأبالسة) من سحرة العقول والقلوب والعرافين والدجالين وأصحاب المصالح، ليتلاعبوا بمفاهيمه ويحوروا مقاصده ويحرفوا معاني كلماته ويغيروا من لون وطعم ورائحة معاني نصوص أحكامه ومقدساته بهدوء وخفة وكلما اقتضت الحاجة الاجتماعية أو الشخصية لذلك، كما تتسلل (الحيّة) إلى مقاصدها، يدفعهم إلى ذلك (حواء) أفكارهم ومعتقداتهم القديمة وثعابين تراثهم التي سبق واكتسبوها من تراث أحكام شرائعهم الموروثة، كما أنزل الله تعالى في ذلك أجمل وأروع وصف لمثل هذه الحالة المتكررة بين البشر، إذ قال وقوله الحق: **(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)**[11]؛ والغريب العجيب أن مثل هؤلاء المتطاولون، يظنون أنهم يحسنون صنعاً ويخدمون العباد ويجملون ثمرة الدين وفاكهة الشريعة بعملهم هذا تقرباً إلى الله، كما قال تعالى **(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)**[12]؛

أما إذا ظهر بينهم من يدعو إلى حقيقة الأيمان والعودة إلى أصول الدين الصحيح وصراط الله المستقيم، قامت قيامتهم وارتفعت أصوات استنكارهم حفاظاً على مصالحهم ومنافعهم الشخصية، وقالوا **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)**[13]. وبهذا يستمرون في تدنيس قدسية الدين وتحويل مساره عن صراطه المستقيم بعدما كان طاهراً، فينزلونه من (جنة) مرتبته الشريفة إلى (أرض) مستوياتهم الدانية، وبذلك يتدنى مستوى الأيمان في قلوب العباد وبالتالي يظهر من كلا الفريقين (التابعين والمتبوعين) أفعال سيئة تغضب لله ورسوله.

* * *

ومع كل ما سبق، وكما رأينا، إمكانية انطباق أحداث هذه القصة القديمة على كل فرد من أفراد المجتمع بمختلف أعمارهم وأجناسهم وأديانهم ومعتقداتهم ومستوياتهم الاجتماعية، فالكل يخضع لهذه النظرية الإلهية ويمثل دوراً من أدوارها في هذه الحياة بشكل من الأشكال، أنها تصوير شامل لما يحصل لكل إنسان في أي زمان ومكان على هذه الأرض. إلا أنه يمكن كذلك الاستفادة من أحداثها وشخوصها بشكل كبير في تفهّم شخصية الإنسان على مرّ الزمان للمحاولة في تقويم سلوكه نحو الأحسن ووضع المناهج والمؤلفات وسبل التربية والتدريس للمساعدة في تقويمه وإعادته إلى

دوره البنّاء لنشر الخير والعمل الصالح، بغض النظر عن معتقداته ومبادئه ومستوى تعليمه ولونه وجنسه وما إلى ذلك، فالله سبحانه وتعالى لم يقصّ هذه القصة الخالدة ويعيد ذكرها لمجرد السرد أو اللهو (معاذ الله)، طالما نقرأ قوله تعالى **(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)**[14]، فسبحانه وتعالى يعلو ويتجرد ويترفع عن مثل هذه المفاهيم البسيطة والقياسات الإنسانية المحدودة، فما مسألة تدوينها في الكتب المقدسة إلا للاستفادة من حكمتها في تربية الإنسان، مخلوقه المفضل، كما قال تعالى **(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)**[15]، وإلا فلا يمكن تصوّر أن يخلق سبحانه وتعالى هذا المخلوق المكنّى بـ (إبليس) بهذا الشكل المرعب وعلى هذه القوة الخارقة والقدرة الشريرة المدمرة الهائلة ويتركه يتلاعب بمقدرات هذا الإنسان الضعيف الجاهل، كما قال تعالى **(وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)**[16]، على اعتبار أنه لا يمكن تصوّر ظهور أي مقدار أو قدر ضئيل من الشر أو السوء مهما كان بسيطا من صنعة يد القدرة المقدسة الإلهية (معاذ الله)، فالله خير محض ورحمة تامة ولطف شامل. هذا إضافة إلى عدم إمكانية تصوّر تزويد هذا الإبليس بكل هذه القوى الشريرة الخارقة طوال مدة وجود الإنسان على الأرض، كما قال تعالى عنه **(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)**[17] وكذلك **(قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)**[18]، فتصور

وجود مثل هذا المخلوق الشرير، ينافي سعة الحكمة الإلهية العظيمة ورحمته الواسعة. نعم لقد قال سبحانه وتعالى أن إبليس عاجز عن إغواء المؤمنين والصالحين **(إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ)**[19]، وكذلك قوله الكريم **(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ)**[20]، لكنه . ومع كل الأسف . نجد أن نسبتهم قليلة ونادرة جدا مما يؤثر بصورة فعالة وكبيرة ويحد كثيرا من دورهم الإيجابي في هذه الحياة، بل لقد امتلأت الأرض بمختلف أشكال الشرور وأنواع المفاسد.

* * *

من خلال ما سبق، يتضح أن هذه القصة الربانية العظيمة توضح بشكل دقيق وبإشارات ورموز رائعة قصة تطور مسار حياة الإنسان الفرد أو البشرية جمعاء عبر تاريخ جميع مراحلها الطويلة، فهذا أقل ما يمكن أن توصف به هذه القصة أو يقال عنها. وبهذا يمكن ابتداع معنى آخر جديد من معانيها العميقة العديدة.

فإذا افترضنا أيضا أن شخصية آدم ودوره في القصة، يمثل بشكل من الأشكال (روح) آدم الخيّرة التي تأمره دائما بفعل الخير وإجراء الأفعال الطيبة الصالحة، أي أن آدم يمثل الجانب الخيّر الإيجابي في شخصية الإنسان؛ وان من معاني (الجنة)، هي تصوير للعالم الروحاني الخالي من الشرور، أو هي تصوير لعالم

الخير المحض الخالي من الآثام دون تحديد للمكان؛ وان من معاني (الأرض) التي نزل عليها آدم بعد خروجه من عالم الخير، هي عالم الحياة المادية الدانية وما فيها من أمور الخير وأفعال الشر وتعقيدات حياة الأفراد والشعوب؛ أما لو افترضنا أن من معاني (الحيّة) هو تمثيل لطريقة دخول وتسلل الدوافع والرغبات النفسية الأمّارة بالسوء إلى صميم النفس الإنسانية بطريقتها الهادئة غير المحسوسة وزحفها الخفي إلى داخل نفس الإنسان وفكره دون الشعور بسبل إغوائها وزمانه. وإذا افترضنا أن من معاني (الثمرة) هو نوع من أنواع التمثيل والتشبيه لطعم ومذاق وشكل الأعمال السيئة الرديئة في بداية تذوقها ولحظة الإقدام عليها وما يصاحب ذلك من مشاعر اللذة الخادعة والزهو والغرور الزائفين؛ وأن من معاني شخصية (حواء)، هو الجانب الضعيف من الروح، أي هي النفس الإنسانية، على اعتبار أن الروح والنفس هما وجهان لشخصية الإنسان الفرد، وهذا ما يفسر نسبة خلقها وتكوينها من ضلع جسد (آدم) الروح، فالنفس والروح وجهان لذات واحدة؛ لذلك لو افترضنا أن (حواء) تمثل (نفس) آدم الأمارة بالسوء، أي حالة الاستعداد والجاهزية لاكتساب السيئات وفعلها، أي هي القوة المخالفة لقوة الروح الخيّرة حينما تدعو صاحبها وتغريه من داخله إلى ارتكاب أعمال الشر والرذيلة المضادة لحقيقة روح آدم الخيّرة

المتطلعة إلى السمو والرقي والترفع عن عالم الماديات المليء بالمغريات والمشتهيات.

لو طبقنا هذا التصوير أو هذا التمثيل على جوانب القصة بمختلف مراحلها وشخوصها، لظهر للقصة وجه آخر يتقارب في مفهومه مع العقل الراجح والمنطق السليم، ويخالف ما دأب الآباء والأجداد على سرده وتكراره وتناقله من فم إلى آخر طوال آلاف السنين، ولأدركنا أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بمستوى سامي غاية في الرفعة والعلو والسمو، عجز عن إدراك مفهوم كنهه السلف الكرام وأهل الديانات السابقة، لأن الله هو خالق كل المدارك والعقول ولابد لكلامه من معاني كثيرة وعميقة أبعد مراماً وأدق نظراً من تصورات خلقه، فطالما انه يتكلم مع البشرية جمعاء بكل عصورها وتاريخها وأجيالها ومراتبها وقدراتها، فلابد أن يكون لكلامه معان عميقة تتناسب مع عقول البشرية مهما تطورت وتنامت على مرّ الدهور، وهو ليس كمثل كلام البشر الذي تمليه عليهم ثقافاتهم واكتساباتهم الدنيوية وموروثاتهم التراثية المحدودة ودرجات علومهم اليومية، فتخضع على الغالب للخطأ والصواب أو الإضافة والاختصار.

عندما خلق الله آدم، أي (الإنسان) منذ الأزل، خلق فيه فقط قوة الخير الخالصة الخالية من الشوائب، وبما أن هذا الخلق الجديد هو نفخة من نَفَسْ رب العزة والجلال الروحانية، ونفحة من روحه،

وإبداعاً من إبداعات صنعة يد قدرته، فلابد وان أول الخلق كان في أول البدء خيراً محضاً، أي خلق لم يعتريه شرٌّ ولم يكمن في طباع روحه سوء أو مفاسد، فلقد كان عجينة جديدة لم تمتد إليها يد التأثيرات المادية والأطماع النفسية بعد، لذلك عاش الإنسان الأول عيشة بسيطة لطيفة غير معقدة بعيدا عن المساوئ والمنكرات وعصيان الله، مثله كمل طائر الحمامة بوداعتها واستقلال حياتها.

فمنذ بداية عملية الخلق التي لا يعرف لبدايتها بداية، والمغمورة في قدم زوايا أعماق التاريخ، كان الإنسان يعيش على دوافعه الغريزية الحيوانية للبقاء على قيد الحياة غير محتاج لاستعمال عقله، مثله مثل أي حيوان أليف يعيش على غرائزه الطبيعية، لأننا علمنا أن العقل والتفكير ينموان ويظهران بالتدريج من خلال المكتسبات الخارجية، وطالما كان العالم الخارجي بسيط جدا وخال من التعقيدات، فلا وجود إذن لمفردات مكتسبة. واستمر الحال كذلك إلى الزمن الذي ابتدأ فيه الإنسان بالاحتكاك مع غيره من البشر رغم قلة أعدادهم في أرجاء الأرض، آنذاك انتبه للمغريات والدوافع وأعمال السوء، حينما ابتدأت تعتمل بداخله وتنتشر في عقله مؤثرات التنافس والمفاضلة (أي إلى زمن دخوله مرحلة التمييز، أي مرحلة تمييز الأنا من الأنت)، فلقد كان مثله مثل طفل حديث الولادة، بريئا في تصرفاته وأعماله وأفعاله لا يحاسب عليها حتى لو ارتكب أفعالاً مخالفة للعرف والتقاليد التي لم تكن هذه

أيضا قد اكتملت معالمها وحدودها بعد، فلقد كان همّه الوحيد وهدفه الأول هو المحافظة على وجوده وبقائه؛ وهذه المرحلة، مرحلة براءة الأطفال، بدأت منذ الولادة الأولى أي منذ بداية خلق الخلق ثم ظهور الإنسان على سطح الأرض باعتباره ثمرة خلق شجرة الخلق، والتي استمرت لملايين السنين حتى جاءت مرحلة التمييز.

إذن يمكن وصف فترة الطفولة والجهالة غير المميزة، بفترة البراءة البشرية (كل البشرية) على الأرض، حيث كانت أعمال البشر تتسم بفطرة المحافظة على الذات وخلوها من المقاصد الشريرة أو النوايا السيئة، وتتمثل في القصة، بأول زمن وجود آدم في الجنة (أي على الأرض وليس في مكان آخر)، وامتدت حتى خلق ونمو بذرة نفس الإنسان الأمارة بالسوء، أي ما تصفه القصة بولادة أو ظهور (حواء)، وتؤرخه بزمن خروجها من قمقم براءتها وعفويتها، عندما ابتدأ (آدم) ينتبه إلى الفرق بين الأنا والأنت والنحن والأنتم. هنا راحت النفس الأمارة بالسوء (حواء)، بعد أن نمت وتحركت وكبرت وتذوقت طعم الفرق والتمييز بين الأنا والأنت، راحت تغوي (روح) الإنسان (آدم) بالتقدم لأكل ثمرة التمييز وتفضيل الأنا على الأنت (الآخر)، أي حسب مفاهيمنا الحالية (ارتكاب أعمال الشر) بالتجاوز أو بالاعتداء على ممتلكات الغير، فمرة تغريه بشكلها وتارة بألوانها وأخرى بمذاقها. إذن فهي فترة البراءة المتسمة بصفة الجهالة والممتد عمرها حتى فترة التمييز

الإنسانية؛ وهذا يعني .كما ذكرنا . أن الإنسان كان يعيش في فترة وجوده الأولى على الفطرة الخيّرة دون نوازع شريرة بالمفاهيم المتعارف عليها اليوم، وكان الخير الخالص يعم كل تصرفاته، لأنه من المعلوم أن الحكم على الأعمال يكون من خلال النظر إلى النوايا والأهداف، ونيّة الإنسان في ذلك الزمن الطفولي كانت سليمة الفطرة، لأنه كان بسيط العقل والتفكير والإرادة والمتطلبات، ولم تكن لديه رغبات مقصودة في السيطرة وحب التسلط والاعتداء والكذب والغش والخداع وحب الذات والرغبات الشريرة، فجميع هذه الصفات السيئة وغيرها لم تظهر على تصرفات الإنسان (آدم) إلا ساعة موافقته على قبول اقتراح نفسه الأمارة (حواء) بالاقتراب من الرذائل والمنكرات وتذوق طعمها، أي الوقت الذي شعر بمفعول سموم الحسد والغيرة يعتملان في داخل نفسه. في ذلك الوقت دخلت البشرية المرحلة الثانية أي مرحلة التمييز بين الأنا والأنت، والنحن والأنتم، وبين الخير والشر، والحلال والحرام.

من خلال هذه الفرضية، يمكن تخيل انقسام حياة الإنسان الطويلة جدا على الأرض إلى عدة فترات، أو عدة مراحل، الأولى (فترة الخير المحض)، التي بدأت منذ بداية أمر الله عز وجل بإيجاد الخلق والتكوين، أي منذ أن أمر سبحانه وتعالى أمره المبرم القاطع، وقال كلمته الخلاقة التي ظهر كل شيء منها: **(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)**[21]، فكان عندئذ الخلق

والإيجاد والإبداع، وهذه تمثلها مراحل فصول القصة الطويلة، ببداية خلق آدم (الإنسان)، لتمتد حتى بداية فترة التمييز وبداية معرفته للدوافع النفسية السيئة حينما ابتدأت أفكار الشر والحسد والغيرة تتحرك في داخله. وهذه الفترة، أي المرحلة الأولى (فترة البراءة) لا يمكن تقديرها بالسنين والقرون وأعدادها، وذلك لطول مدة زمانها.

ثم جاءت المرحلة الثانية، مرحلة التمييز بين الأنا والأنت والنحن والأنتم، التي ابتدأت فيها نفس الإنسان (حواء) في محبتها لذاتها وتفضيل رغباتها على غيرها، أي حب الأنا ورغبة الاستحواذ والتملك والحسد والتنافس السلبي، كما نشاهد تجسّم صورتها على الإنسان الفرد واضحة في هذه الأيام، فالإنسان يجسد اليوم قمة ما وصلت إليه هذه النفس الأمارة من معالم التنافس السلبي السيئ بينه وبين غيره حتى ولو كان أقرب الناس إليه، وهو ما تظهر صورته واضحة بشكلها العام في الحروب والمنازعات والتخاصم حتى بين الأشقاء والأزواج عندما يفضلون مصالحهم الذاتية وراحة أنفسهم على غيرهم. ومن خلال هذه الأنانية ومحبة الذات، راح هذا الإنسان المغرور يستبيح لنفسه حق التجاوز والاستحواذ على أملاك الغير وممتلكاته والاعتداء على حقوقه وتفضيل نفسه على كل من سواه. وبذلك تعتبر فترة بداية ظهور الأعمال الشريرة بين البشر وتعاملهم بها، هي بداية الدخول في المرحلة الثانية (فترة التمييز)، أي هي فترة لاحقة بدأت منذ اللحظة التي انتهت فيها المرحلة

الأولى (مرحلة الفطرة)، حيث بدأ الشر المتعمد والمخطط له عن سابق قصد ينتشر وينمو في نفوس بني البشر ويسود تعاملهم. ومن المؤكد أن بداية ظهور أفعال الشر السيئة على تصرفات الإنسان بدأت فردية ومتفاوتة وفي أزمان مختلفة متتابعة، ثم راح يستفحل أمرها مع مرور الوقت ويتدرج بصورة فعل ورد فعل وتزداد تأثيراتها مع نمو البشرية ليتخذ في بعض الأحيان أشكالاً جماعية كلما دخلت مرحلة جديدة من مراحل أعمارها المتتالية، حتى راحت تتخذ أشكالا منظمة وترتيبات معينة يخطط لها الإنسان وينظمها ويستعد لها. لكن كل هذا استغرق وقتاً طويلا امتد لمئات الألوف من السنين، حيث كان لابد للنفس البشرية من المرور بمراحل الفوضى والشقاوة والاعتداء وما رافقها من تجاوزات على حقوق الآخرين، ثم المرور بمرحلة التفاعل مع واقع الحياة والمجتمع وتأمل جوانب تأثيراتها ومحاولة تفهم حقائق ما يحيط بها من موجودات ومخلوقات. ثم جاءت مرحلة الرقي البدائية التي كان من نتائجها معرفة النار والزراعة والاستيطان ثم البناء والتطور ثم ظهور الحضارات الإنسانية بمختلف أشكالها البسيطة أو المعقدة في مختلف بقاع الأرض بين مختلف شعوبها وأجناسها، وما رافق كل ذلك من أشكال التنافس أو التعاون المنظم أو العشوائي.

وبينما كان كل ذلك التطور والتغيير يجري، كانت مرحلة تنامي نضوج المتطلبات الجسدية والنفسية البشرية ترافقها وتمشي

معها جنبا إلى جنب. بعدها شعر الإنسان بالحاجة إلى التعليم والتعلم واختراع الحروف والكتابة ودخوله بداية عصر اختراع القوانين، والتمييز بين الخطأ والصواب والتفريق بين الخير والشر والحلال والحرام، فتذبذب في مسيرته بين ممارسة هذا وارتكاب ذاك، حتى وصل إلى ما هو عليه اليوم من تراكم المعارف والمعتقدات والتقدم العلمي، رافقه في ذلك كثرة الحروب والمظالم والانتكاسات وتناوب الثورات الفكرية والاجتماعية وما نتج عنها من تأثيرات مختلفة على تطور المجتمعات وظهور النظريات ونزول شرائع الأديان السماوية المعروفة والاستفادة من أخطاء الماضي.

أما ما يمكن وصف حياة البشر به اليوم في فترته الحالية وما يمكن تشبيهها به بعدما اجتازت كل تلك الملايين من القرون، فيمكن القول أنها فترة المراهقة التي يمر بها كل إنسان فرد، ومن المعلوم أن حياة الإنسان تتسم في فترة المراهقة القصيرة نسبيا، بشدة النشاط وسرعة الحركة وتفجر الطاقات والنشاط الذهني والقدرة على الاستيعاب وحب الاكتشاف والاختراع وتنامي الاستعداد والقدرة على التعلم وتفجّر صفة التمرد على الأنظمة والقوانين والميل إلى مخالفة العادات والتقاليد ومحاولة التملص من رقابة الوالدين والرقيب، والتذبذب بين الحالتين المادية والروحية، فهذا ما يميز حالة البشر في هذا القرن.

وفي المقابل أيضا، امتازت فترة مراهقة البشرية الراهنة، مرة باختراع أشد أنواع الأسلحة فتكاً ودمارا دون اعتبار لأخلاق أو وازع من ضمير، وتارة في السعي لاكتشاف أنجع الأدوية والمضادات الحيوية لما ينتشر من أمراض وأوبئة فتاكة وحلول سليمة لما يواجهه البشر من محن وآفات مهلكة. مرة بتجاهل ما يجري من مظالم ومجاعات بين البشر، وأخرى في المطالبة بوقف الممارسات غير الأخلاقية والسعي الحثيث في طلب العلم والمعرفة والسلام العادل بين الشعوب؛ كل هذه التناقضات والتباينات في سلوك البشر ما هي إلا إرهاصات فترة المراهقة التي تمر البشرية بها الآن.

لذلك من الوارد أن كل ما مرت به البشرية من مراحل السلام والصفاء أو الحروب والنزاعات المختلفة، إنما تبشّر بشكل لا لبس فيه استعدادها الحتمي لدخول مرحلة النضوج المقبلة، أي مرحلة الرجولة العاقلة، ومرحلة الأمومة الرءومة، ومرحلة الإدراك والنضوج الفكري والعلمي والسعي إلى فعل الخير والمحافظة عليه، والتوقف عن ارتكاب أعمال الشر والعداء والرذيلة، والبدء في قراءة وتقييم مجمل التاريخ البشري المنظور ومحاولة الاستفادة من التجارب والخبرات وإدراك سبب تدهور أحوال المجتمعات البشرية إلى هذا المستوى المتدني الذي لا يتفق مع ما وصل إليه مستوى عقلية الإنسان وقدراته من نضوج وثمار وما جناه طوال عمره الطويل من

خبرات ومزايا أخلاقية؛ وعندما سيفهم الإنسان أن كل ما يشاهده اليوم من انتشار للآثام والمنازعات والحروب والظلم، إنما مرده حصيلة الصفات السيئة والأفكار الخاطئة للنفس الإنسانية (حواء) ورغباتها الجامحة المضطربة، عندها ستتوقف البشرية بالتدريج عن ممارسة هذه الأفعال غير اللائقة بها، ويبدأ (آدم) الإنسان بالتدريج في دخول عالم الخير مرة أخرى ويشرع بتأسيس (جنة) الله على الأرض من خلال العودة إلى نداء العقل والروحانيات والدين، فيصحح مساره ويضبط تصرفاته وينصف أخيه الإنسان.

لذلك يمكن تفسير كل ما جرى للبشرية عبر تاريخها الطويل المفعم بالأحداث والمتغيرات، على أنه حلقات متتالية طويلة الأمد لعملية تطورها ونمو عقليتها، وأن ما نعيشه اليوم، ما هو إلا حالة مرور بمرحلة المراهقة أو مرحلة الشباب الطائش التي لا تعترف على الغالب بغير ذاتها ولا تفضل سواها، أو صفحة من صفحات تاريخها المعقد المرتبك نتيجة تراكم خبرات الفترات السابقة غير الناضجة والتي لم تعرف كيفية قرائتها بشكل سليم، وإنها لابد وان تتجاوزها البشرية إن عاجلا أم آجلا، وتنتقل منها وبقوة العقل . إن رضيت أم لم ترض . إلى مرحلة العمر الناضج المفعم بالحركة الإيجابية المجدية الممتلئة بالمخترعات المفيدة والاكتشافات السلمية والتطور الفكري والعلمي السليم، لتترجمها إلى منجزات عملية مفيدة . تسعى جاهدة للحفاظ عليها بقوة القوانين الوضعية والإلهية . مرحلة

تفوق وتتجاوز بقدراتها كل ما مرت به البشرية من منجزات سابقة، حتى تنعم بحياتها وترتاح في فترة نضوجها ورجولتها وأبوتها وأمومتها التي ستدخلها في مرحلتها القادمة قريبا والتي ستستمر عليها إلى أن يشاء الله أمرا كان مفعولا.

إن عمر فترة مراهقة البشرية الحالية المتذبذبة، قد تطول أو تقصر، فهذا مرهون بزمن انتباه البشرية وصحوتها، وقد تستمر إلى عشرات السنين القادمة أو إلى المئات، فهذا يعتمد على مجيء لحظة الانتباه والسرعة في نضوج الفكر الإنساني والاستفادة الحقيقية من الخبرات الماضية، وعندها ستصحح وتقوّم كثير من مفاهيمها الخاطئة وممارساتها الممجوجة، وتبدع إبداعاً فريداً في إيجاد الأفضل بشكل يعجز العقل البشري عن تصور أشكاله في هذه الأيام. وحينها توقن النفس الإنسانية وتتأكد أن الله لم يخلق مفهوم الشر والشرور، لأنه موجد وصانع الخير المطلق ولا يصدر من حضرته إلا الخير، أما هذه الأفعال الشائنة والمظاهر السيئة فلم تظهر في صفات الإنسان إلا بسبب سوء الفهم والقصور الذهني وقلة درجات الأيمان، وأنها من صنيعته وعمل يديه، وتفهم أن الشر ونتائجه هو حالة من العدم الصرف واللاوجود للخير ومبادئه، وتدرك في النهاية أن حقيقة الشر ما هو إلا تخلي البشر عن مواكبة التعاليم السماوية والابتعاد عن ممارسة قوانين الدساتير الإلهية أو تطبيقها بشكل صحيح وليس فطرة بشرية ذاتية جبل

الناس عليها، وتتخلى عن الفكرة الأزلية القديمة الخاطئة بأن الخير والشر مخلوقان صنوان موجودان على الأرض منذ القدم، أو هما مخلوقان قد أوجدهما الخالق ولن يفترقا أبد الدهر، وتتفهم أن سبب ظهور هذا الاعتقاد الخاطئ (وجود الخير والشر معاً) ما كان إلا بسبب طول مدة الفترة المظلمة الماضية التي مرت من عمر البشرية والتي استمرت لملايين السنين، وكذلك بسبب استقراء البشرية الخاطئ لمعالم تلك الفترة وأسبابها ونتائجها واستلذاذ (طفل البشرية) بمذاق (ثمرة) الشر والتجاوز بعدما عجز عن معرفة حقيقة ذات ثمرة الخير الشهية وتمييزها عن مذاق ثمرة الشر السيئ، وأنه كان باستطاعته . لو جاهد نفسه . الامتناع عن تناول (ثمرة) الشرور، ولأدرك وتفهم سبب استطاعة وقدرة تلك القلة القليلة من المؤمنين بأديان الله على مر التاريخ في الابتعاد عن هذا المسار الخاطئ وعدم تناول هذه (الثمرة)، كما أكد على ذلك قوله تعالى **(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ)**[22]، وان ذلك الاستثناء لم يكن بسبب قوة عقولهم وسعة إدراكهم حصراً، بل لشدة أيمانهم بأحقية كلام الله وثقتهم بحصنه الحصين وسلامة قلوبهم وطهارة نفوسهم التي أدت إلى ابتعادهم عن هذه المساوئ والخطايا، كما قال تعالى في تحديد قلّة أعدادهم **(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)**[23]، فوجود هذه القلّة المؤمنة القليلة، ما هو إلا دليل على إمكانية العيش في حياة سليمة طيبة صالحة خالية من الشرور،

وأنه في الإمكان تكبير مساحتها وتوسيع دائرتها لتشمل عدداً أكبر من الناس، وما شرط ذلك إلا تقوية الجوانب التربوية والتعليمية وروح الأيمان بين الناس.

وبهذا يمكن أيضا تشبيه مجمل الفترات والمراحل السابقة من عمر البشرية، بالليل المظلم الطويل، كما قال تعالى **(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)**[24]، وتشبيه فترة المراهقة التي نعيشها اليوم، بفترة الفجر أو أول تباشير الصباح، كما في قوله تعالى **(وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)**[25]، وكذلك **(وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ)**[26]، وكذلك قوله الكريم **(إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)**[27]. أما المرحلة القادمة التي تقف البشرية على أعتابها اليوم، فيمكن تشبيهها بالنهار المنوّر المضيء، كما قال تعالى **(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا)**[28]، وكذلك **(وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)**[29]، وأيضا **(وَأَشْرَقَتْ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا)**[30]، حيث ستتضح بالتدريج غالبية العلوم المعقدة والخفية من خلال السعي والاجتهاد الحثيث للبشر وتتفجر الأفكار والعقول بالمخترعات والاكتشافات بقوة العلم من خلال توالي تطور سطوع أنوار العلوم والمعرفة بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الإنسان إلى درجة سيكون فيها مستوى إنسان هذا القرن كالجاهل أو كالطفل الصغير مقارنة بمستواه في مستقبل الأيام؛ وعندها سيعود البشر إلى التمسك بعروة الدين والفضائل الإنسانية والأخلاق ويكتشفوا توافق وتناغم علوم الأديان التي نادى بها جميع الرسل والأنبياء الكرام على مرّ التاريخ مع

حقائق العلوم المادية الصرفة، كما وعدهم سبحانه وتعالى في قوله الكريم **(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)**[31].

* * *

من كل ما سبق يمكن تلخيص فكرة هذه القصة الأزلية، كالتالي:

لمّا تحركت المشتهيات النفسية الأمّارة داخل كيان آدم الإنسان حال انتقاله إلى مرحلة التمييز، بعدما كانت كامنة وفي حالة سبات ونوم، وتاقت واشتهت للتقرب من المنكرات والرغبات النفسية التي أمره الله بالابتعاد عنها، وحاول تجربتها وتناول ثمرتها نتيجة تسلل رغبته النفسية (الحيّة) بهدوء وخفة إلى داخل حقيقته، ونتيجة لجمال ثمرة (الأعمال السيئة) وشكلها الشهي ومذاقها الحلو في أول تناولها، وبترغيب ودفع من نفسه الأمارة التي سميت (حواء) فيما بعد مجازاً، تحركت هذه النفس الغاوية ونمت وكبرت وتمكنت من تحريك سواعد إغراءها ووجدت المقدرة على إغواء (آدم) بعمل المنكرات وعصيان أمر الله القاضي بالتمسك بأحكام الدين وعدم التقرب من أثمار السيئات والابتعاد عنها، فلقد تسللت إليه بهدوء وخفة دون أن يشعر بها كما تتسلل الحيّة نحو فريستها، عندها أقدم الإنسان (آدم) على الاستجابة لرغباته النفسية الأمارة،

وبذلك انتقل من مرحلة نقاء الغريزة والفطرة الخيّرة إلى مرحلة الصراع بين روحه ونفسه، فالروح بقيت تطالبه بالسمو والرفعة والتمسك بأحكام الله وتدعوه إلى أعمال الخير وصلاح المجتمع عبر تعاليم أنبيائه ورسله، بينما بقي شيطان النفس وإبليسها يدفعانه إلى العصيان ويغويانه إلى عمل المنكرات، فبقي هذا الإنسان المتمثل بآدم ينحرف إلى هذه تارة ويميل إلى الأخرى تارة أخرى، لكن السمة الواضحة الغالبة في المراحل السابقة والحاضرة كانت ولا تزال هي سيطرة النفس الأمارة على البشر وانتشار الظلم والآثام والموبقات بسبب عدم اكتمال نضوج العقل والروح الإنساني.

لكن دوام الحال من المحال.. إذ لابد لهذه المرحلة من نهاية، ولا بد لها من جلاء، كما وعد بذلك سبحانه وتعالى، **(وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)**[32]، وساعتها ستدخل البشرية مرحلتها القادمة الجديدة، مرحلة العقل والمعقولية والنضوج والمنطق السليم والاقتراب من الصفات المثلى ووقف المنازعات والحروب وضرورة الاتحاد بين بني البشر وانتشار السلام العالمي والرجوع إلى الله والعمل بأوامره ومرضاته، كما قال تعالى **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)**[33]، فالله سبحانه وتعالى سيشاء بعونه وأمره تعالى ويجمع الناس أمة واحدة، ولهذا السبب الأعظم ولهذا

الغرض الأحلى ولهذا الهدف الأسمى قد وجدهم وخلقهم حتى تشهد هذه الغبراء ثمرة وجود الإنسان، كما قال تعالى **(رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)**[34].

لكن هذا الهدف النبيل العزيز الغالي لن يأتي دفعة واحدة ولا بشكل مباغت، بل سيحتاج إلى سنين طويلة وعمل إنساني جماعي دؤوب وتكاتف بين الدول والمجتمعات البشرية لهبوط سفح جبل التردي والشرور وسيرافق ذلك معاناة ومصاعب عالمية شديدة، وعسى أن يكون هذا النزول سريعا وهادئا وفي أقرب وقت وتحت عناية رحمة الله وألطافه . إن شاء الله . حتى تعود البشرية لتبدأ في تسلق سفح جبل العقل والأخلاق والمثل والقيم العليا من جديد. وبذلك سيتغير كل ما وجد على الأرض من قوانين ونظم وثقافات وأفكار ومبادئ وحضارات واختراعات واكتشافات، لأن كل ذلك وجد واخترع وارتفع بنيانه على قاعدة خاطئة وأساس واه ، ألا وهي قاعدة وجود الخير والشر على الأرض معا، والتي فسّرت ووضعت بموجبها خطأً غالبية أحكام الشرائع الإنسانية والقوانين الوضعية والأفكار والثقافات البشرية السابقة والحالية، بل وتشارك غالبية الحكماء وأكثرية المفكرين في صياغة مفاهيمها وسن أحكام قوانينها استنادا إلى هذا المفهوم الخاطئ. ولكن.. مهما طالت مدة مرحلة المراهقة البشرية، فلابد لها أن تنتهي ويضمحل تأثيرها وتجتازها

البشرية لتدخل مرحلة العقل والإدراك والرجولة والأمومة الناضجة والحضارات السامية والعقائد الرائعة وزمن الإنسانية المثلى.

لقد كتب الفيلسوف الخالد أفلاطون عن المدينة الفاضلة وتصور إمكانية وجودها وتأسيسها، وهذا التنبؤ كان سابقاً لأوانه بآلاف السنين، فلقد كان هذا الرجل عبقري فطحل ذا نظرة خارقة فذّة استطاع من خلالها تصوّر إمكانية وجود هذه المدينة النموذجية إذا ما توفرت لها ظروفها المطلوبة وقوانينها المناسبة. لكن الذي غاب عنه ولم ينتبه إليه، هو أن هذه المرحلة الراقية من عمر البشرية التي حلم بها وتصورها، ترتبط ارتباطا وثيقا بمرحلة تطور الإنسانية المتسلسل وتنوّر عقولها ومفاهيمها التدريجي التي لم تكن قد نضجت في زمانه بعد، وان الإنسان لا يمكنه تناول ثمرة النضوج والتمتع بها والاستفادة منها إلا بعد اكتمال فترة نضوج عقليته ومداركه ومجيء فصل ربيع الفكر الإنساني. فهذا الفيلسوف الرائع، لا بد وانه كان ينظر إلى قوة عقله وسعة مداركه و مستوى أقرانه ثم تصوّر وفكّر وكتب وألّف وأوجد هذه النبوءة اللطيفة للأجيال التالية.

إن فكرة قصة (آدم وحواء) العظيمة، لا تبشّر بتأسيس المدينة الفاضلة فقط، فهذا هدف تحقق اليوم بالفعل في مدن كثيرة من أنحاء الأرض، فنماذج المدينة الفاضلة بشكلها المادي موجودة في كل مكان، وهناك الكثير منها بالفعل، صغيرة كانت أم كبيرة،

يعيش أهلها في حالة من السعادة والراحة المادية والهناء والتنعم بالأمن والاستقرار ولا يشوب حياتهم أي نوع من أنواع المشاكل أو المنغصات، وهي مستمرة على الدوام باستقطاب كبار الأغنياء وميسوري الحال والباحثين عن الراحة والسعادة والاطمئنان من مختلف أرجاء المعمورة.

لكننا نقول ونتأمل بما هو أكبر من ذلك وأوسع وأعظم بكثير، فهذه القصة الإلهية العجيبة تبشّر بإمكانية تأسيس الأرض الفاضلة، كرة أرضية نموذجية، بكل أقوامها ومللها وشعوبها ومجتمعاتها وألوانها وأديانها وثقافاتها وأفكارها ولغاتها، لأن البشرية كما ذكرنا، ستدخل حتما وبالتدريج مرحلة الاستعداد لولوج فترة العالمية الفاضلة واتحاد الجنس البشري طراً. فسمو العقل البشري وتطور مبادئه وأفكاره وخبرته الطويلة واستعداداته التي لا حدود لها وضميره الذي يستيقظ ويصحو يوما بعد يوم، لهو كفيل تماما بتحقيق هذا الهدف الإنساني العظيم، كما قال تعالى في مقام آخر **(وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)**[35].

نعم سيشاء الله سبحانه وتعالى بفضله وألطافه وبركاته ونعمه وإحسانه ورحمته، وسيجعل الجنس البشري أمة واحدة، وهذا من علم الساعة وشؤونها وأحوالها، ونحن كمؤمنين به وبقدرته، نصدّق قوله ونؤمن بقدرته ولا نشك بحتمية حدوث أمره وتحققه، نظراً لما نشاهده

بين مختلف شعوب الأرض من تطور مستمر للقدرات الإنسانية ومسيرتها الخلاقة نحو الكمال، ورغم ما نشاهده من أمواج بحر الاضطرابات وأمطار الرزايا الحالية، إلا أن المحصلة الإجمالية تبشر بذلك وتنبئ به. أما أهل القبل والأمم السابقة، فلم يتصور ملائكة مؤمنيها الأطهار ولا ملائكة السماء المقدسين إمكانية تحقق مثل هذا الهدف الإلهي المقدس النبيل، لأنهم كانوا ينظرون إلى أفعال البشر القديمة المنافية للتعاليم السماوية وما كانوا يسبحون ويغوصون به من بحار الجهل والتخلف وامتلاء الأرض بالدماء والآثام، وهذا ما دفعهم للإفصاح عن رأيهم أمام رسل الله وأنبيائه وبالتالي أمام الله رب العالمين بالقول **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ)**[36]، فلقد استغربوا وتعجبوا من إمكانية تحقق هذا الهدف الإعجازي وتوريث الأرض في مستقبل الأيام لهذا المخلوق الضعيف الجاهل المتمرد.

* * *

إذن .. ومرة أخرى يمكن استخلاص معنى آخر من معاني هذه القصة المرمزة (قصة آدم وحواء)، وهو أنها تصوّر درجة التشابه بين حياة البشرية طراً وبين حياة الإنسان الفرد، فالبشرية

عاشت وتعيش وستعيش مراحل مشابهة تماما لمراحل نمو حياة الإنسان الفرد خلال فترة حياته القصيرة على الأرض، أي مرحلة الطفولة والبراءة والميل نحو اللهو واللعب، ومرحلة المراهقة والتمرد والفوضى والعصيان، ومرحلة الرجولة والأمومة والنضوج والتعقل. وما تكرار هذه القصة العجيبة في كتب الله المقدسة، إلا نوع من التنبيه والحث لعقل الإنسان على إدراك كنه هذه القصة الخفي وقيمتها الجوهرية التي حفظها رب العباد لآلاف السنين بين كلمات آياته لدفع الإنسان إلى التصرف بطريقة سليمة راقية تليق بمقامه المقدر له على الأرض وخلق جنة الله عليها.

أخيرا .. كلما يمكنني قوله هو انه لابد أن يكون لهذه القصة الرائعة معاني أخرى كثيرة لا عد ولا حصر لها، سيستخلصها المفكرون مع مرور الوقت ومع ازدياد توسع المدارك الإنسانية.

الحواشي

(1) سورة (ص) من الآية 75 إلى 85.

(2) سورة طه الآية 120.

(3) **التوراة سفر التكوين الإصحاح الخامس:** عاش آدم 130 سنة حتى ولد له ولداً اسمه شيثاً. عمر آدم 930 سنة. عاش شيث 105 سنة ثم ولد له ولداً سماه أنوش. عمر شيث 912 سنة. عاش أنوش 90 سنة ثم ولد له ولداً سماه قينان. عمر أنوش 905 سنة. عاش قينان 70 سنة ثم ولد له ولداً سماه مهللئيل. عمر قينان 910 سنة. عاش مهللئيل 65 سنة ثم ولد له ولداً سمّاه يارد. عمر مهللئيل 895 سنة. عاش يارد 162 سنة وولد له ولد سماه أخنوخ. عمر يارد 962 سنة. عاش أخنوخ 65 سنة وولد له ولد سمّاه متوشالح. عمر أخنوخ 365 سنة. عاش متوشالح 187 سنة وولد له ولد سمّاه لامك. عمر متوشالح 969 سنة. عاش لامك 182 سنة وولد ابناً سمّاه نوحاً. عمر لامك 777 سنة. كان عمر نوح 500 سنة وولد له ثلاثة أولاد (سام وحام ويافت). عاش نوح 950 سنة. حدث الطوفان في الأرض عندما كان عمر نوح 600 سنة. مما سبق تكون الفترة الفاصلة بين ولادة آدم وولادة نوح هي: 1056 سنة. يضاف إليها 600 حتى حدوث الطوفان. عاش سام ابن نوح 100 سنة حتى ولد له ولد اسمه أرفكشاد. عاش سام 600 سنة. عاش أرفكشاد 35 سنة وولد له ولد اسمه شالح. عمر أرفكشاد 438 سنة. عاش شالح 30 سنة وولد له ولد اسمه عابر. عمر شالح 433 سنة. عاش عابر 34 سنة وولد له ولد اسمه فالج. عمر عابر 464 سنة. عاش فالج 30 سنة وولد له ولد اسمه رعو. عمر فالج 239 سنة. عاش رعو 32 سنة وولد له ولد اسمه سروج. عمر رعو 239 سنة. عاش سروج 30 سنة وولد له ولد اسمه ناحور. عمر سروج 230 سنة. عاش ناحور 29 سنة وولد له تارح. عمر ناحور 148 سنة. عاش تارح 70 سنة وولد له ثلاثة أولاد (أبرام وناحور وهاران). عمر تارح 250 سنة. هؤلاء الأولاد الثلاثة عاش منهم أبرام وناحور، بينما مات هاران في حياة أبيه، لكنه خلّف ولداً اسمه لوط.

مما سبق تكون الفترة الفاصلة بين نوح وولادة إبراهيم 390 سنة. و 40 سنة بين وفاة نوح وولادة إبراهيم.

تزوج أبرام من ساراي وكانت عاقراً لا تلد. بينما تزوج ناحور من مِلكةُ. خرج الوالد تارح من أرض أور الكلدانيين وذهب إلى أرض كنعان ومعه ابنه أبرام ولوط حفيده ابن هاران المتوفى وساري كنته امرأة أبرام ولده. توفي تارح في أرض حاران. كان عمر أبرام 75 سنة عندما خرج من أرض حاران وكان معه زوجته ساراي ولوط (اليتيم) ابن أخيه هاران الذي توفى في أرض أور الكلدانيين. كان عمر أبرام عندما هاجر من أرض حاران 75 سنة. كان عمر أبرام 86 سنة حينما ولد له إسماعيل من زوجته المصرية هاجر جارية زوجة أبرام الأخرى ساراي. كان عمر أبرام 99 سنة عندما غيّر الرب اسمه إلى إبراهيم. وفي نفس هذا العمر أمره بختان قومه وبتبديل اسم زوجته إلى ساره وكان عمر ساره 90 سنة، أما عمر إسماعيل فكان عمره 13 سنة عندما ختن مع أبيه. كان عمر إبراهيم 100 سنة حين ولد له اسحق من زوجته ساره. عاشت ساره 117 سنة حتى توفيت. عاش إبراهيم 150 سنة. عاش ابنه إسماعيل 137 سنة. كان لاسحق ولدين، ولدا وعمره 60 سنة: عيسو و يعقوب.

تكون هناك حوالي 200 سنة بين ولادة اسحق ابن إبراهيم وولادة يعقوب.

أولاد يعقوب من ليئة بنت لابان الكبرى: رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون وبنت اسمها دينة. أولاد يعقوب من راحيل بنت لابان الصغرى: دان ونفتالي وحاد وأشير ويوسف وبنيامين. بدّل الله اسم يعقوب إلى إسرائيل. عاش إسحق 180 سنة. أولاد عيسو: أليفاز ورعوئيل ويعوش ويعلام وقورح. حادثة البئر ليوسف حدثت له وعمره 17 سنة. عاش يعقوب 147 سنة. عاش يوسف 110 سنة. أولاد لاوي: جرشون وقهات ومراري. عاش لاوي ابن يعقوب 137 سنة. عاش قهات 133 سنة. أولاد قهات: عمرام وبصهار وحبرون وعزيئيل. عاش عمرام أبو موسى(ع) 137 سنة. كان عمر موسى 80 سنة وعمر هارون 83 سنة حين كلما فرعون. أولاد يوسف هما منسّي وأفرايم.

بقاء بني إسرائيل في أرض مصر من زمن يوسف إلى خروجهم مع موسى 433 سنة حسب نص التوراة.

يكون التسلسل كالتالي: إبراهيم ثم اسحق ثم يعقوب ثم يوسف.

يكون التسلسل الآخر: إبراهيم ثم لاوي ثم قهات ثم عمرام ثم موسى.

(4) (سلسلة عالم المعرفة 237/الحضارة/تأليف د. حسين مؤنس/صفحة 19).

(5) (سلسلة عالم المعرفة 237/الحضارة/تأليف د. حسين مؤنس/صفحة 77).

(6) سورة الأعراف الآية 24.

(7) سورة العنكبوت الآية 14.

(8) سورة النساء الآية 165.

(9) سورة لقمان، الآية 27.

(10) سورة العنكبوت، الآية 43.

(11) سورة يونس 24.

(12) سورة الكهف الآية 104.

(13) سورة البقرة الآية 11.

(14) سورة الدخان الآية 38.

(15) سورة التغابن الآية 3.

(16) سورة النساء، الآية 28.

(17) سورة ص الآية 82.

(18) سورة الأعراف، الآية 14.

(19) سورة الحجر الآية 40.

(20) سورة الحجر الآية 42.

(21) سورة يس الآية 82.

(22) سورة ص، الآيتان 82،83.

(23) سورة سبأ الآية 13.

(24) سورة الليل، الآية 1.

(25) سورة التكوير، الآية 18.

(26) سورة المدثر، الآية 34.

(27) سورة هود، الآية 81.

(28) سورة الشمس، الآية 3.

(29) سورة الليل، الآية 2.

(30) سورة الزمر، الآية 69.

(31) سورة فصّلت الآية 53.

(32) سورة الروم، الآية 6.

(33) سورة هود الآيتان 118،119.

(34) سورة آل عمران، الآية 9.

(35) سورة الزخرف الآيتان 60،61.

(36) سورة البقرة الآية 30.

الفصل الثاني

قصة سيدنا نوح(ع)

بعد أن اطلعنا على عدة معان لقصة سيدنا آدم(ع)، وشاهدنا كم هي الأفكار التي يمكن استنباطها من أحداثها ورموزها، ننتقل إلى قصة أخرى من قصص الأنبياء الكرام، ألا وهي قصة سيدنا نوح(ع) وسفينته التاريخية العظيمة، لنتناولها بأسلوب آخر قد يختلف أيضا مع ما دأبنا على سماعه من أفواه المحيطين بنا، محاولين التوفيق بين رموزها ومفاهيمها مع ما يتقبله الأيمان والدين والعقل والمنطق السليم، بعيداً عن ظواهر معاني الكلمات أو ما تناقله الناس ودأبوا عليه من أفكار قديمة وحكايات موروثة قد لا تتفق ولا تتناسب مع ما وصلت إليه عقول البشرية من تطور شاسع وعلوم عميقة وثقافات عالمية. ولقد سبق وقلنا أن نصوص الكلام الإلهي لابد من توافق معانيها مع العلم والعقل، فإذا شوهد أي اختلاف ظاهري بينهما، فما مرد هذا الاختلاف والتباين إلا لتفاسير البشر ومستوى قدراتهم العقلية في تناول دلالاتها، وليس إلى معاني كلمات النصوص الإلهية المعصومة. لذلك فما يشاهد من أحداثها على الظاهر وما يطفو من مفاهيمها على السطح، لابد وأنها ما

زالت بحاجة إلى تحليل وتفكيك لرموزها المستعصية وإلى استنباطات جديدة تخرجها من تلك المفاهيم الظاهرية التي بقي الناس يتعاملون بها ومعها بشكل بسيط لقرون وعصور طويلة.

فلو قرأنا ما جاء في قوله تعالى في سورة هود عن قصة النبي نوح(ع)، نلاحظ أنها تتكلم في جوهرها وصميمها عن قصة ظهور رسول كريم بدعوة جديدة بين الناس، وكيف عامله قومه بطريقة مبتذلة رخيصة مثلما تعاملت جميع أمم أصحاب الكتاب على مر التاريخ مع كل من ظهر عليهم من رسل الله وأنبيائه الكرام قبل أن ينقلبوا فيما بعد ويتحولوا إلى الإيمان بدعواتهم ويغالوا بها.

فسيدنا نوح(ع) كان رسولا من عند الله ونذيرا للبشر، كما قال تعالى **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)**[1]، وكما تشير وتوضح الآية الكريمة أن صفة النذير يمكن إطلاقها على الرسول أو النبي، فهو ينذر الناس ويحذرهم من مغبة استمرارهم في الاعتراض على دعوته والبقاء على شريعتهم التي نسخها الله تعالى واستبدلها بغيرها، كما قال تعالى في حق سيدنا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيراً)**[2]؛ فالنبي نوح(ع) لم يطلب من قومه إلا العودة والرجوع إلى الصراط المستقيم وعبادة الله الواحد والتنصل مما وجدوا عليه آبائهم وأجدادهم وترك تبعية أصنام سحرتهم وأوثان رجال دينهم، كما قال تعالى **(أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ**

عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)[3]؛ لكن قومه كذّبوه وكفروا بدعوته، إما لأنهم كانوا يتبعون معتقدات مقدسة قديمة، أو لأنهم كانوا يتصورون وحسب ما توارثوه عن آبائهم من أساطير وحكايات أن رسل الله لابد أن يظهروا على الناس بقدرات عجيبة وقوى عظيمة ويفعلون معجزات خارقة لقوانين الطبيعة تقنع الناس بصحة دعوتهم، لذلك تحدوا نوح أن ينزل بهم ما يعدهم به من عقاب وعذاب، هذا بالإضافة إلى تمسك جميع أمم أصحاب الكتاب السابقين بالفكرة والنظرية الأزلية، أن لا رسول ولا نبي يظهر للناس بعد رسولهم أو نبيهم.

من خلال وقائع القصة وتفاصيل أحداثها، يتضح أن النبي نوح لم يكن ذا شأن كبير بين قومه قبل إعلانه دعوته، مثله كمثل غيره من بقية الرسل والأنبياء، فغالبيتهم عانوا إما من الفاقة والفقر أو من قلة التعليم أو من ضعف مراكزهم الاجتماعية، وعلى الغالب كان أكثرهم يمتهن مهناً بسيطة يكسبون بها لقمة عيشهم كمهنة الرعي أو النجارة ..الخ. كما أن ما زاد في إعراض المعرضين من قوم نوح على دعوته، أنهم لاحظوا أن غالبية من آمن بها، ليس إلا أراذلهم والعوام من جهلة قومهم، كما قال تعالى **(فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)**[4]، وهذه الحالة لم تقتصر على مؤمنيه من قومه فقط، فلقد شملت أيضا جميع أتباع الرسل في بداية مراحل دعواتهم قبل

انتشارها ودخول الناس أفواجا تحت لوائها، فعلى سبيل المثال، كان أتباع موسى(ع) من بني إسرائيل عبيدا أقنانا لدى أمة الفراعنة؛ وكان أغلب حواريو السيد المسيح(ع) يمتهنون صيد الأسماك ولا يعرفون القراءة أو الكتابة، وكان أوائل صحابة الرسول الكريم، من الأميين مثل سابقيهم، ولنا أن نتذكر قصة أسرى معركة بدر من المشركين وشرط إطلاق سراحهم دليلا على صحة ذلك؟

ورغم كل هذا الاعتراض والتصدي، بقي نوح يدعو قومه للتفكّر بحقيقة دعوته وتأمل معاني آيات كتابه وأحكام شريعته، وبقي يحاول إقناع قومه أنه ليس من المستحيل أن يبعث الله فيهم وبينهم رسولا جديدا بشريعة سماوية تالية. واستمر في تقديم البراهين والأدلة عن احتمال عجزهم عن رؤية قوة آيات كتابه أو إدراك مدى شدة ارتباطها بشريعتهم التي آمنوا بها من قبل، فكان يزيد من نصحهم بقبولها والأيمان بها، كما قال تعالى **(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)**[5]؛ وبقي يكرر ويوضح لهم أنه لا يبتغي من وراء دعوته مصلحة مادية شخصية أو مركزا اجتماعيا، وأنه لن يستغني عن مؤمنيه ويبعدهم من حوله ويفضل عليهم قومه المناهضين لدعوته، وحاول أن يشرح لهم جهلهم بحقيقة دعوته وغفلتهم بأحقيتها، كما قال تعالى **(وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ**

وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ)[6]؛ واستمر يذكرهم أن هؤلاء المؤمنون الضعفاء ما هم إلا خميرة الإيمان الحقيقي المتجدد على الأرض وأنهم أسّ أساس صرح مدائن أديان الله وعواميد أبنية شرائعه في كل زمان؛ ثم راح يعيد إلى ذاكرة المعرضين صور أحداث أول أيام ظهور دينهم ورسولهم بينهم، وكيف كان صحابة رسولهم من أجدادهم خميرة الإيمان من قبلهم كما هو حال مؤمنيه اليوم **(وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)**[7]؛ ويبدو أنهم كانوا مثل غيرهم من بقية أمم أصحاب الكتاب يملكون مسائل فقهية ودينية وآيات متشابهة لا يفقهون معانيها ولا يتفقون على تفسيرها، فراحوا يطلبون منه تفسيرها وتوضيحها ليثبت لهم أنه رسول من عند الله، لذلك كان يجيبهم: أنه لا يملك خزائن علوم الله ولا يعلم الغيب وأنه ليس بملك من الملائكة المقربين، وأن مهمته محددة محصورة بدعوتهم إلى الإيمان بدينه الجديد، وأنه عاجز عن الجزم أو التأكيد بحصول أتباعه على خير إلهي أبدي دائم، وأنه لو وعد أتباعه ببقائهم وخلودهم على الأيمان الصحيح إلى نهاية الزمان، فإنه سيخدعهم ويظلمهم **(وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمْ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنْ الظَّالِمِينَ)**[8].

وبما أن نوح بقي لسنين عديدة يصيح وينوح محذراً أمته من عذاب الله إن هم أصروا على التكذيب والعناد، راحوا يتحدونه أن

ينزل ربه بهم ما يدعيه من رزايا وعذاب **(قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)**[9]؛ لذلك حاول جاهدا أن يفهمهم أن الغضب والعذاب الإلهي لا ينزل على الناس فجأة ومرة واحدة، فطريقة الله تختلف كل الاختلاف عن طرق خلقه، فعذاب الله يعم وينتشر بالتدريج ويستمر لمدة طويلة حتى يمحو آثارهم وآثار دينهم نهائياً، ولن يستطيعوا التخلص أو التملص من عذاب الله أبداً مهما تعبدوا الله وزادوا في صلواتهم وصيامهم حسب طقوس شريعتهم السابقة **(قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)**[10]؛ وفي النهاية أخبرهم أن نصحه وتحذيره لن ينفعهم طالما يتمسكون بأحكام شريعتهم السماوية السابقة، لأن هذا هو امتحان الله الحقيقي لقلوب عباده، فهم كمن يتمسك بكتاب الله السابق ليضل به عن كتاب الله اللاحق، وكمن يرفض أمر الخالق الجديد ويتمسك بأمر الخالق القديم، أو كمن يؤمن برسول سماوي سابق ليضل به عن رسول سماوي لاحق **(وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)**[11]؛ ويكمل النبي نوح(ع) قوله: أنه طالما لا تصدقون دعوتي، وطالما تظنوني كاذباً، فهذا أمر سيحكم الله فيه بيني وبينكم، ولكني أنفض يدي من دينكم السابق ومعتقداتكم القديمة وأعلن براءتي من جريمتكم في تكذيب دعوة الله التي آمنت أنا بها

وصدّقتها وأدعوكم لها **(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ)**[12].

في النهاية أدرك نوح(ع) أن حجة الله قد تمت على قومه وأنه بذل كل ما في وسعه لإقناعهم، ولن يؤمن بدعوته إلا من سبق وتقدم للإيمان بها. لذلك يوحي تعالى له بعدم التأثر والحزن على قومه **(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)**[13]؛ وأن واجبه يقضي عليه إكمال بناء سفينة شريعته بعيون الرعاية الإلهية وبما يوحيه له من مدد الآيات المنزلة، والاهتمام بمؤمنيه وأتباعه وتثقيفهم وتعليمهم أمور دينه، أما بقية القوم فلابد أنهم سيغرقون في النهاية في مياه كفرهم وبحور جهلهم ويغوصون في مجاهل طمطام التاريخ **(وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)**[14].

بقي نوح(ع) يصنع سفينة شريعة دينه ويقويها بألواح آيات كتابه ومسامير مؤمنيه ويعلمهم كيفية الإبحار بها مستقبلا على سطح بحر كفر الناس المحيطين بهم. أما عندما كانت تهيج عليه أمواج بحر شتائم أعدائه وتطغي عليه مياه سخرية معارضيه وهو جالس في سفينة أيمانه بين أتباعه يعلمهم ويثقفهم، فكان يرد عليهم، بأنه وأتباعه سيسخرون منهم في نهاية الأمر عندما سينزل عليهم مطر غضب الله وسخطه ويمحو ذكرهم وذكر دينهم **(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا**

مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)[15]؛ وراح يوصي قومه بتذكّر هذه الأيام مستقبلا عندما سيعيشون حياة ملؤها الشقاء والعذاب والبلايا المترادفة **(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)**[16].

فلما حان وقت إعلان الانفصال بين شريعته الوليدة وبين شريعة أمته السابقة، وأدرك قومه أنها سفينة شريعة مستقلة بكتاب ورسول، بدأ فيض مياه تنور بحر الغضب الإلهي يفور على الكافرين، حاملا سفينة أمر الله ومن آمن بها بسلام على سطحه **(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ)**[17]؛ فقال نوح مخاطبا أتباعه: اركبوا سفينة الدين الجديد، واذكروا اسم الله الذي سيجريها في بحر هذه الحياة بين الناس، وهو الذي سيوقفها فيما بعد عند بلوغ أجلها وعند رسوّها على ساحل النهاية وشاطئ النسخ، إن الله غفور لذنوب عباده، يرحمهم على الدوام بتنزيل بركات شرائعه المتتالية **(وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)**[18].

كان لنوح ابن يحبه حباً جماً، وأراد له أن يكون معه في سفينة الإيمان، كما قال تعالى **(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)**[19]، لكن أمواج الاختلاف والتباين بين عقيدتيهما كانت

قوية جداً وعالية، أعجزت الابن عن اجتيازها وعبور عقبات أمواج مفاهيمها، ورغم هذا التباين الشديد بين فكريهما وعقيدتيهما، إلا أنه كان بالإمكان خلاص الابن من الغرق بمياه الكفر العميقة بمجرد الأيمان بشريعة والده وركوب سفينة دينه، لكنه بقي معاندا وبعيدا عن رحمة دين الله، ولم يتمكن من فهم سنّة الله الدائمة في تبديل سفن شرائع الله وتجديدها.

بعدما بقي الابن يعتقد أنه على دين الله الحق، وأن لا دين بعد دين قومه، وأن والده انحرف عن الصراط الحق وراح يدعو الناس إلى أمر باطل؛ فكّر بطريقة يستوضح بها عن معضلات هذه المسألة الدقيقة ليستيقن أن سفينة دينه هي سفينة النجاة الحقّة وليست سفينة دين والده الجديد، وأنه لن يغرق في بحر الكفر كما حصل لوالده، قال لوالده أنه سيأوي إلى جبل رجل دينه السابق وسيحتمي بعلو قمم علومه ويتحصن بمرتفع فقهه، وأن رجل العلم وجبل المعرفة هذا، لابد وأنه سيحل ويوضح له حقيقة هذه المعضلة الصعبة، وسيفسر له سبب هذه الفتنة الشديدة التي وقع فيها هو وقومه، ولماذا بات والده يدعو الناس لركوب سفينة عقيدة جديدة، بينما أكثر الناس وكبار رجال قومه ينكرونها ولا يصدقوها ولا يعتقدون بظهور شريعة جديدة بعد شريعتهم. فرد عليه والده أن هذا هو يوم الفتنة والامتحان الإلهي، وأن الله سبحانه وتعالى لا يترك المؤمنين بدين من أديانه على حالهم، إذ لابد وأن يمتحن في يوم

من الأيام حقيقة معدن ذهب أيمانهم بنار الافتتان ليطهره من شوائب الظنون والأوهام التي شابته وتراكمت عليه ليعيده نقياً خالصا كما كان أول مرة، كما قال تعالى **(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)**[20]، وكما قال تعالى في خطابه لسيدنا محمد(ص) **(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً)**[21]، وحاول الوالد أن يوضح لولده أن هذا هو يوم تمحيص قلوب أهل الدين السابق ويوم قيامتهم لنصرة دين الله، وأنه لن ينجو أحد منهم من الغرق في بحر الكفر ويم الضلالة فالكل واردها إلا من رحمه الله وفتح قلبه للايمان ونوّر عقله لتفهم أمور دينه. لكن الابن بقي على معتقده ولم تنفع معه كل توضيحات ونصائح والده، ولا كل ما سمعه من آيات الله البيّنات.

حزن نوح حزناً عظيماً لما آل إليه مصير ولده لبقائه على دين الكفر، فدعا ربه راجياً أن يهديه بحكم علاقة الدم والقرابة **(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)**[22]؛ لكنه سبحانه وتعالى أراد أن يعطي لعباده درساً واضحاً في سمو رابطة الدين والعقيدة على رابطة الدم والقرابة، ويفهمهم أن من يلبس رداء الكفر ويرفع علم العصيان ويحمل سيف العناد ويسن خنجر الغلو ويحارب أمر الله ورسوله، لا

شفاعة ولا مغفرة له، فهذا حكم الله من قبل ومن بعد **(قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ)**[23]؛ فندم نوح على طلبه واستغفر ربه على جهله بحقيقة هذا الحكم الإلهي **(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ)**[24].

وفي النهاية افترق كل إلى حال سبيله، فنوح ومن آمن بدعوته ركبوا سفينة الأيمان ونجوا من الغرق في بحار الضلالة والكفر، والابن التجئ إلى جبل الكفر وغرق الاثنان تحت أمواج الكفر العالية، كما قال تعالى **(قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ)**[25].

بعدما استتب الأمر لشريعة النبي نوح(ع) وتم حكم الله، وبعدما فاضت عين مياه شريعته الزلال بين الناس وتبدل مذاق مياه الشريعة السابقة إلى ملح أجاج ولم يعد يروي ظمأ الشاربين؛ توقف نزول قطرات ماء الآيات الجديدة من سماء الفضل الإلهي، وكملت أحكام الشريعة الجديدة وتم رسو سفينتها على ساحل بحر الأيمان، واستوت سفينة أمر الله على أرض الجود والكرم والعطاء الرباني، وسجّل مؤمنو الدين السابق في سجل الكافرين، وانتهى ذكرهم عند الله ودخلوا مرحلة النسيان والفناء **(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا**

سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[26].

ثم بشّر الله نبيه نوح ومن آمن معه بالاستقرار على جنة أرض الإيمان والتمتع بنعمته ورحمته، وكذلك كل من سيؤمن بدينه من الأمم الأخرى حتى حلول موعد ظهور رسول جديد بعده بدين آخر، عندها سيحل بأمته ومن آمن بدينه ذات الامتحان الإلهي وسيقعون تحت نفس قوة التمحيص لإيمانهم، فإذا كفروا مستقبلا بدين رسولهم التالي، فسيصيبهم ذات العذاب الذي حلَّ بأمته السابقة وابنه وجبال رجال دينهم القديم **(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)**[27].

وفي نهاية هذه القصة اللطيفة، يخبر الله سبحانه وتعالى سيدنا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، إن هذه القصة قد غاصت في علم مجاهل التاريخ القديم ولا يعلم تفاصيلها إلا هو، وأنه يقصّها عليه عن طريق الوحي ليستفيد من عبرتها وقومه، حيث لم يكن لأحد علم بتفاصيلها، ويوصيه بالصبر والاصطبار لأن النهاية تكون دائماً من نصيب المتقين **(تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)**[28].

* * *

من بعد هذه المقدمة التي ازدانت بالعديد من آيات سورة هود، والتي حاولنا تقديمها بشكل جديد مبتكر. لابد من التفكير بطريقة أخرى للوصول إلى ما يعقل منها، فقديما قالوا: حدّث العاقل بما لا يعقل، فإن عقل، فلا عقل له.

فإذا اعتبرنا أن السفينة التي كان يصلحها ويعمّرها النبي نوح(ع)، ليست سفينة من السفن العادية التي نشاهدها تمخر فوق مياه الأنهار والبحار، ولا هي مصنوعة من الأخشاب والمسامير والقير والقماش والحديد، وليس لها دفّة وأشرعة وسواري وملاحين وقبطان وغير ذلك. إذا ابتعدنا عن هذه الفكرة المادية القديمة قليلا، نخرج بأحداث قصة روحانية أخرى مختلفة تماما، وإلا فبقية أحداث القصة القديمة وتفاصيلها المسلية التي يرويها الأهل والأجداد، تثير العجب والاستغراب والتساؤلات حتى في عقول الأطفال الصغار، حيث يقال انه جمع في سفينته زوجين من كل نوع من المخلوقات! ولا يخفى على العاقل اللبيب، كم تحتاج مثل هذه العملية الصعبة من جهد خارق ووقت طويل وخبرة لا تضاهى قبل أن يتم انجازها وتحققها، هذا بالإضافة إلى ما تستغرقه عملية البحث عن أصناف الحيوانات والزواحف والطيور في مختلف بقاع الأرض من زمن طويل للامساك بها واصطيادها، ومن المهم التذكّر أن بعض القارات الموجودة حاليا لم تكن قد اكتشفت آنذاك، فمن أين جاء بالجاموس والنسر واللاما الأمريكيين والكنغر الاسترالي والدب

القطبي وغيرها من أنواع الطيور والزواحف التي تشتهر به تلك القارات؟ ثم أن عملية الجمع تحتاج إلى عالم حيوانات خبير متخصص يندر وجوده حتى في هذه الأيام مع كل هذه العلوم المتوافرة، ليعرف أماكن تواجدها وليميز بين الذكور والإناث من الحيوانات والطيور، ومن الضروري أن يكون نوح قد كرر سفره إلى تلك البلدان وذات البقاع عدة مرات ليجلب بقية الأنواع المختلفة من الحيوانات والطيور، إذ من المستحيل عليه أن يأتي بجميع الأنواع مرة واحدة ويجلب كل الأصناف في وجبة واحدة أو وجبتين. ثم أن عملية التجميع والحجز لابد وأنها كانت بحاجة إلى رعاة ومسئولين متخصصين ومن ذوي الخبرة والدراية ليقوموا على رعاية كل أنواع هذه الحيوانات وتزويدها بالشراب والطعام، فمن كان يقوم بكل هذه الأمور الشاقة الخطيرة، والنبي نوح منشغل بتجواله في أطراف الأرض يغيب شهورا وسنينا؟ ومن أين لهم بالمال الكافي لكسب رزقهم ورزق عوائلهم وتوفير طعام الكواسر والوحوش وهم من فقراء القوم وأراذلهم؟ ثم كيف سمح قومه وأعدائه له ولأتباعه الضعفاء بتنفيذ هذه المهمة العجيبة على أرضهم وفي بلادهم، وكيف ارتضوا بمخلوقات مفترسة ضارية تعيش على مقربة منهم ومن عوائلهم؟ وكيف امتنع الأسد والنمر والذئب والضبع وابن آوى والثعبان عن افتراس بقية الحيوانات الأليفة والمخلوقات اللطيفة؟ وهل كان النبي نوح(ع) عالماً جغرافياً عارفا بطبيعة البلدان أو متخصصاً بارعا

بأنواع الحيوانات والمخلوقات وأماكن تواجدها تحت الأرض وعلى بواسق الأشجار وفي الكهوف والجحور وفوق قمم الجبال؟ وكيف حفظ نفسه وهو يجول في غابات ذلك الزمان الكثيفة الموحشة ويبيت في ظلمات الليالي بين بطونها؟ وكيف استطاع تسلق قمم الجبال والنزول منها وهو يجمع فراخ النسور والصقور؟

إنها ببساطة عملية يستحيل تحققها وتنفيذها في ذلك الزمان مع صعوبة سبل المواصلات البدائية البطيئة آنذاك، هذا إذا تذكرنا ولم ننس أن الحجاج المسافرين الذين كانوا يقصدون مكة الحرام للحج أو العمرة قبل أكثر من مائة عام وليس أكثر، كانوا يمضون الشهور العديدة في الذهاب والإياب، وكم منهم من ضاع وهلك أثناء سفره وهم يسافرون في قوافل منظمة وطرق مطروقة، وكم منهم من افترسته كواسر الطريق ووحوشها أو غرق في قيعان البحار؟ ثم إن كانت مياه فيضان الغضب الإلهي قد نزلت بالكافرين من أمة نوح(ع)، فما ذنب بقية الأمم ممن لم يكن لهم علم بظهوره، وما ذنب أطفال البشر ونساؤها وشيوخها من البسطاء والوادعين ليؤخذوا بذنب كفار قوم نوح؟ ثم إذا كان الفيضان قد أغرق جميع المخلوقات الأرضية، فلماذا استثنيت المخلوقات المائية والبرمائية، فمثل هذه المخلوقات لا تغرق؟ إن كل هذه الأسئلة والكثير غيرها، لا يمكن التوصل إلى حل أو إجابة معقولة لها، إذا بقيت طريقة التفكير على ذات الحال والمنوال القديمين.

ثم أن النبي نوح سيكون بهذا العمل الشاق المضني منشغلا تماما طوال وقته عن الهدف السامي الحقيقي الذي ظهر من أجله وأمره به رب العالمين، ألا وهو تبليغ أمر دينه للناس ودعوتهم للايمان به، فهو ليس صياداً للحيوانات والوحوش، ولا رحالة يجوب القفار أو بحّار محترف، ولا هو مستشرق يعرف طبيعة البلدان وجغرافيتها ولا هو عالم أحياء مطلع على أنواع الحيوانات وأصناف الطيور ومميزات الزواحف في كل القارات المعروفة آنذاك، بل هو نبيّ مقدس يبحث عن طرائد العقول المنورة وشوارد القلوب السليمة ليبني ويعمر بهم سفينة دينه الجديد.

أما إذا قال أحدهم أن سيدنا نوح عاش تسعمائة وخمسون سنة، وبذلك ملك الوقت الكافي لإتمام هذا العمل الخارق استناداً إلى قوله الكريم **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمْ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)**[29]، فهذا أمر يحتاج مرة أخرى إلى تأمل وتفكير، فبحسبة علمية بسيطة، لا يوجد ما يثبت أن إنسان القبل كان يعيش كل هذا الفارق الزمني العجيب عن إنسان اليوم. لكن قد يكون لمعنى هذا العمر الطويل . وكما ذكرنا سابقا . أنه إشارة إلى عمر دينه ومدة بقاء شريعته على الأرض، وهذا أمر يمكن للعقل تقبله، فمثلما كان عمر سيدنا موسى(ع) ألف وخمسمائة سنة، عاشها في قلوب أتباعه حتى وقت موت ونسخ شريعته بظهور دين سيدنا المسيح(ع) الذي عاش هو

أيضا أكثر من ستمائة سنة حتى ظهور سيدنا محمد(ص) الذي عاش في قلوب المسلمين أكثر من أربعة عشر قرناً حتى اليوم. كذلك يمكن أن يكون عمر بقاء شريعة نوح(ع) بين قومه 950 سنة. وبذلك تكون هذه المدة إشارة إلى عمر شريعته وفي نفس الوقت إشارة إلى زمن ظهور الديانة التالية بعد ديانته، وليست دليلا جازما على مدة بقاء جسده حياً يرزق فوق سطح الأرض.

من هذه الزاوية الجديدة، يمكن أن تكون قصة سفينة سيدنا نوح(ع) المشهورة، قصة إلهية مجازية عميقة المعاني، يراد بها تثبيت قلوب الناس والأجيال المتعاقبة على الإيمان والدين وتنوير قلوبهم بالهدى والإيقان، وليست قصة خرافية نزلت للتسلية والسمر، فهي ليست سفينة خشبية ركابها حيوانات وزواحف وطيور وملاحيها مؤمنين ومؤمنات وربانها نبي من أنبياء الله تعالى.

* * *

نستخلص من كل هذا .. أن من معاني سفينة نوح(ع) هي (الديانة أو الشريعة)، وهذا ينطبق على أي شريعة سماوية أخرى نزلت على أي رسول، كما هو الحال مع سفينة الإسلام التي ركبها الصحابة والمؤمنون الأوائل وأبحروا بها فوق سطح بحور الشرك وأمواج الضلالة، وأنقذوا بها كل من ركب معهم والتحق بعقيدتهم فيما بعد من الموت غرقاً في بحور الكفر وعصيان الله؛ وأن عمل نوح وجهده في إعمار سفينته وبنائها وتشييد هيكلها، هو حركته

الدائمة الدءوبة وانشغاله المستمر في تبليغ أمره المبارك للناس وتجميعهم للركوب على متنها؛ ولنفترض أن الأرض أو الأراضي التي كان يبني فوقها سفينته، هي أراضي قلوب الكفار والملحدين والمشركين بالله الواحد، وبمعنى آخر، هي أراضي قلوب قومه المترسخ في أعماقها جذور أشجار العقائد القديمة البالية وأعجاز نخيل إلحادهم الممتدة في أعماق قلوب آباءهم وأجدادهم منذ مئات السنين، وهي أراضي بيوت عقائدهم العتيقة المبنية من خيوط أوهامهم العنكبوتية؛ ولنفترض أن الأرض الجديدة التي رست عليها سفينته، هي أرض الأيمان وساحل الإيقان وجنة الجود وواحة البركة وبطحاء الرحمة وبرّ العطاء الإلهي اللامتناهي.

إذن يمكن القول أن النبي نوح(ع)، كان يبني سفينة دينه ومركب شريعته على أراضي قلوب قومه ليؤمنوا بدعوته وليركبوا معه سفينة الإيمان، مثلما فعل سيدنا موسى وسيدنا عيسى وسيدنا المصطفى المختار عليهم وعلى صحبهم ومن تبعهم أفضل الصلاة والسلام.

لقد حاول النبي نوح(ع) تعمير بناء سفينة دينه الحق بكل الوسائل الممكنة بين قومه وراح يبلّغ الناس ويدعوهم إلى مفاهيم الديانة الجديدة لسنين عديدة ليركبوها معه، مرة بالمحبة والترغيب وأخرى بالتحذير والترهيب وتارة بالوعود الإلهية الجميلة وحيناً بتذكيرهم بالدنيا وملذاتها الخادعة وأخرى بالآخرة وحسناتها وأحيانا

بشرح فضائل الايمان بالله وشريعته الجديدة. لكن الفشل كان سمة جهود هذا النبي الملاّح على طول الخط؛ أما قومه، فبقوا على حالهم متمسكين بألواح أخشاب دينهم القديم المتهرئة، وبقايا أخشاب سفينة دين آبائهم وأجدادهم البالية، متشبثين بأطواف معتقداتهم السائدة لا يقبلون تركها أو الانفكاك عنها، وكانوا يضحكون ويسخرون من كثرة توسلاته ومناداته ومن إصراره على تعمير هذه السفينة الإلهية الجديدة وترتيبها وتزيينها في عيونهم، وادعاؤه أنها المنقذ الوحيد لهم من فيضان ماء غضب الانتقام الإلهي الجبار، لأنهم كانوا يظنون أنهم راكبين بالفعل سفينة دين سماوي، وأنها آخر سفينة إلهية ولن تأتي بعدها سفينة دين أخرى أبداً، كما حصل من قبل ومن بعد مع جميع أمم أصحاب الكتاب التي عارضت ما ظهر عليها من جديد سفن الرسل ومراكب شرائعهم لنفس السبب ولذات الفكرة.

أما لو عدنا للتحقق مما يثبت ويؤكد أن قوم نوح كانوا قوما موحدين يتبعون ديناً سماوياً قبل أن يظهر سيدنا نوح بينهم، وأنهم لم يكونوا مشركين بلا دين أو شريعة كما يظن البعض، فهو قوله تعالى **(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ)**[30]، ففي هذه الآية الكريمة يؤكد سبحانه وتعالى أنه لم يترك أمة من أمم الأرض ولا شعباً من الشعوب، إلا وأرسل لهم رسول أو نبي من عنده وقام بإبلاغهم كلمته. كما انه سبحانه وتعالى يطالبهم

على لسان نبيّه بالتذكر **(وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)**، فماذا سيتذكرون إذا كانوا قوما ملحدين كافرين؟ لكننا لو افترضنا أنهم كانوا مؤمنين بدين سماوي وسبق لهم وأن مروا بمراحل الاعتراض والإيمان، عند ذلك سيتحقق معنى كلمة (تذكّرون).

وقد يقول قائل، أن لكل شيء بداية، ولابد أن البشر كانوا في يوم من الأيام ملحدين كافرين لا يعرفون رباً لهم، ثم ابتدأت فيما بعد عملية إرسال الرسل والأنبياء ونزول الشرائع السماوية المقدسة.

قد يبدو هذا الرأي حائزاً على وجهة نظر مقبولة بعض الشيء، لكننا عندما نقرأ قوله تعالى **(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)**[31]، نفهم أنه سبحانه وتعالى يجزم مؤكداً أنه لم يترك الإنسان مخلوقه المفضل وخليفته على الأرض دون رعاية أو توجيه في أي فترة من الفترات على الإطلاق، وبما أننا نعلم أن رعاية الله وطريقة اتصاله بعباده لم تكن ولن تكون إلا عن طريق الرسل والكتب والأنبياء والشرائع السماوية، لذلك يمكن القول أن عملية ظهور الرسل والأنبياء بين البشر كانت عملية أزلية قديمة منذ ملايين السنين قدم خلق الإنسان على الأرض، بغض النظر عن طرق التعليم وبساطة التربية ونوعية الأحكام وأشكال الشرائع وكثرة أو قلّة أحكامها أو درجات قوتها وشدتها، فهذا أمر في علم غيب الله ويبقى في مجاهل التاريخ البشري، لكن المهم هو

أنـه تعـالى لـم يتـرك الإنسـان وحيـدا دون قطـرات أمطـار عنايتـه المقدسة يوما من الأيام، وهذا ما يؤكده قوله عز وجلّ أيضا **(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)**[32]. أما الآية الكريمة **(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)**[33]، فتبقى تذكرنا بالسبب الجوهري من خلق الإنسان قبل ظهور نوح أو بعده.

فلو افترضنا هذه الفرضية، وطبقناها على ما جاء من وقائع القصـة، لوجـدناها تتفق مـع العقل وتتوافـق مـع المنطـق بشـكل لا تخـالف فيـه الدين أو الإيمـان فـي أي جانـب من جوانبها، بل علـى العكس تماما، إنها تعطي الأديان السماوية مفاهيم علمية وعقلانية ترفع من شأن مثل هذه القصص السماوية القديمة وتفتح أمام عقول العباد أبوابا واسعة لفهم أديانهم بشكل أفضل مما يعزز الإيمان في قلوبهم ويزيد من قوته.

أمـا عـن ابـن نـوح(ع) وقصـته ومعنـى بقـاءه مـع ملـة الكفـر المعارضين لدعوة والده، وعملية التجائه إلى جبل عال يعصمه من الفيضـان والغرق، كما قال تعالى **(قَالَ سَـآوِي إِلَـى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَـاءِ)**[34]، فالحقيقة أن علماء كل دين يعتبرون جبالاً راسخة فـي الـدين والإيمـان فـي زمـن حيـاة أديـانهم وقبـل نسـخها وموتهـا، فحيـاتهم ووجـودهم مـرتبط بحيـاة الـدين ووجـوده، فهـم الـذين يقـودون النـاس إلـى طريـق الهدايـة والنـور، لـذلك لا يسـتغرب أن يشـبههم سبحانه وتعالى في مواقع أخرى أيضاً، بالنجوم اللامعة في سماء

الأديان، لأن الناس يستدلون بأنوارهم للسير في سبل الأيمان وسلوك طرق الهدى إذا ما غابت شمس رسولهم من بينهم، ويحتمون بظلهم ويلوذون برسوخهم ويستظلون بفيئهم ويتبعون تفاسيرهم ويتمسكون بفتاواهم بعدما تغرب شموس رسلهم وتختفي أنوار أشعتها.

وما يؤكد هذا الاستنتاج في المعنى أيضا، قوله تعالى **(وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ)**[35]، فالكلام هنا عن جبال رجال الدين عندما يفشلون في معرفة نور شمس الحق عند إشراقها من مشرق نور أفق رسول جديد، وليس الكلام عن الجبال الشاهقة والتلال المرتفعة، لأن الجبال والتلال لا تعقل ولا تعي حتى تكفر أو تضل، بل المقصود، هم جبال رجال الأديان القديمة عندما يرفضون التخلي عن موروثاتهم الدينية ويشجعون أتباعهم على الإقتداء بهم والتمسك بأفكارهم للبقاء تحت جنح ظلام ليل الغفلة وحلكة سواد التبعية مقيدين بسلاسل أفكارهم الصدئة وحبال تراثهم البالية بعيدا عن أنوار شمس الحق والحقيقة والتحرر، وبذلك يكونون سببا في ضلال خلق كثير.

وفي المقابل عندما نقرأ قوله تعالى **(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)**[36]، نكون أمام النوع الآخر من جبال رجال الدين، لأن الجبل لا يخشع ولا يتصدع لمجرد نزول

القرآن عليه، ولا يمكنه التفريق بين كتاب عادي وآخر مقدس، إنما الكلام والقصد عن جبل رجل الدين والمؤمن الحقيقي.

وقد تكون الإشارة في هذه الآية الكريمة، إلى مقام عظمة سيدنا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، فهو ليس كغيره من الرجال، ودليل ذلك تحمله هبوط الوحي المقدس ونزول كتاب القرآن على صدره المبارك وبقائه سليما معافى وبصحة جيدة واستمراره على نشر دين الله بشجاعة وحكمة رغم كل ما لاقاه من اعتراض وحروب، ورغم تزلزل كيانه الجسدي وإصابته بالمرض والحمى في أول الأمر، فهبوط الوحي الإلهي أمر عظيم عظيم. أما لو كان هذا القرآن الكريم قد نزل على قلب رجل عادي من رجال أديان ذلك الزمان، لعجز عن البقاء سليما معافى ولتصدّع كيانه وهيكله ولفقد عقله ولبّه من تأثير هذا التنزيل العظيم العزيز الجبار، كما ظنَّ كبار رجال قريش وأحبار اليهود وقساوسة النصارى آنذاك خطأً أن سيدنا محمد(ص) غير جدير بهذه المهمة الإلهية المباركة (استغفر الله) وأنه لن يستطيع الصمود لتنفيذ هذه المهمة الإلهية بشكل جيد، بعدما شاهدوا ضعفه وبساطة مكانته الاجتماعية الظاهرية وعدم معرفته للقراءة أو الكتابة، كما أخبر عن ذلك رب العزة بقوله العزيز **(وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)**[37].

لكن هؤلاء العلماء، أي رجال الأديان السابقة على العموم، كان ينحسر دورهم وتتراجع مكانتهم عند ظهور أي دين جديد، ولا يصبح لضياء نجومهم شأن يذكر عند بزوغ شمس جمال الرسول أو النبي الجديد في كل عهد ودور وعلى مرّ الأزمان، بل على العكس، كان عليهم أن ينتبهوا أن إصرارهم على العناد وتفضيلهم البقاء على دينهم القديم وتشجيع أتباعهم على التمسك بدين آبائهم وأجدادهم، سيكون سبباً لضلال الناس وتيه أتباعهم وخسرانهم دينهم ودنياهم، مثلهم كمثل أغصان شجرة الدين، فإن نسخت أو ماتت شجرة الدين المقدسة ونزل أمر أزوف أجلها ووفاتها من عند الله وانتهى عمرها، فبالضرورة تموت معها أغصان رجال دينها وتجف أفنان علمائها وكل ما يتعلق بها من أوراق أتباعهم وثمار أعمالهم الصالحة، ولا تعد تصلح إلا حطباً للنار، كما قال تعالى **(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)**[38].

لذلك.. طغت مياه الكفر والاعتراض والتصدي، وعلت فوق رأس ابن نوح وفوق رأس أكبر جبل من رجال الديانة السابقة، وأغرقتهما ومحيت آثارهما وآثار قومهما واسم دينهم وشريعتهم

بمجرد ظهور سفينة دين سيدنا نوح واكتمال بنائها وانطلاقها على أسطح بحار قلوب العباد ومحيطات عقولهم، ولم يتبق لذلك العالم الجبل، أي ذكر في الكتب التاريخية القديمة، بل أصبحت قصته عبرة للناس. وإن من نجا من طوفان الكفر والإلحاد خلال أزمان تلك الدورة بجميع رسلها وشرائعهم، هم فقط الذين تمسكوا بأذيال حبال دعوات أنبيائهم ورسلهم الجدد وآمنوا بهم وصدّقوهم وركبوا معهم سفن أمرهم المباركة، وبهذا الثبات والتمسك بعروة الله الوثقى، وصل المؤمنون إلى سواحل أرض الجود والعطاء واستقروا في فلك النجاة والبقاء والخلود، ورسوا على سواحل أرض جنة مرضاة الله. فهذا الطوفان المعنوي الروحاني المتكرر المتجدد، يحدث في زمن شروق شمس كل رسول جديد وفي زمن بناء كل سفينة دين جديد. وفي زمن نوح(ع) لم تهدأ فورة هذا التنور الإلهي إلا بعد انتشار أمر الله ورسو سفينة أمر الله على ساحل الكرم والجود، فنزل المؤمنون إلى يابسة الإيمان وأرض الإيقان ليعمروا بيوت دين الله ومساجده ومعابده بين الناس. بينما انتهى حال كل من كفر وضلَّ إلى الموت المادي والروحاني معاً، ومحيت آثار الكفر وطمست معالمه، كما حصل لكل من كفر بأي دين ظهر على الأرض قبل النبي نوح أو بعده، وبذلك بقي ذكر المؤمنون عند رب العالمين في الدنيا والآخرة، ومحي ومحق اسم الكفرة والضالين من كل ذكر خير في شأنهم.

أما النقطة المهمة والإشارة الدقيقة المعصومة في قوله تعالى **(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)**[39]، فهي تشير بشكل بديع إلى تكرار نزول مياه الأمر الإلهي إلى أرض قلوب البشر وحلوله محل ماء أفكار كفرها القديم الذي طغى على حياتها السابقة، فمياه أي دين سماوي، يكون زلالا فراتاً صافياً نقياً طاهراً حال نزوله من سماء العزة والقدرة وطوال عمره المقدر له، وفي ساعة النزول هذه، يتبدل على الفور ماء الديانة السابقة ويمسي ماءً مالحاً فاسداً أجاجا لا يروي ظمأ عطشى المؤمنين ولا يصلح كدواء شاف لأرواحهم وعقولهم، بل ينقلب مفعوله إلى العكس تماما فيكون سببا للعلة والسقم والمرض وتفشي مختلف أشكال العلل والأمراض الاجتماعية والفكرية، كما قال تعالى **(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُوراً)**[40].

أما من معاني أمر الله سبحانه وتعالى للسماء السامية العلية بالتوقف عن إنزال مزيد من ماء الغيث السماوي، فما هو إلا الأمر بالتوقف عن إنزال المزيد من مياه الآيات والأحكام والقوانين الإلهية، وذلك لكفايتها وتمامها في سدّ حاجات الناس لفترة محددة آنذاك، كما قال تعالى **(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)**[41]، وأن أمة نوح لم تكن بحاجة إلى مزيد من

الأحكام والنواهي، لأن ما نزل منها كان كافياً لهم ولزمان أجيالهم من بعدهم، وأن قوانينها وأحكامها ستقودهم وتهديهم إلى العزة والسؤدد، وستفتح معاني آياتها أبواب قلوبهم بمفاتيح الايمان والعلوم لتكون مستعدة لرؤية أنوار شمس رسول الحق في ظهوره التالي الجديد، كما قال تعالى **(فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ)**[42]، حيث نلاحظ في هذه الآية الكريمة أمراً مهما جديداً، وهو أن غرق الكافرين من قوم نوح(ع) قد تم بنزول مياه آيات الكتب الإلهية، وليس بماء الأمطار المادي وما يخلفه من برك وبحيرات ومستنقعات، وأنهم كانوا قوما عمي عاجزين عن مشاهدة أنوار حقائق آيات الله الجديدة في كتابه الجديد الذي أنزله على نوح، ولم يكن المقصود أنهم لا يجيدون العوم أو السباحة أو الإبحار وقيادة السفن والمراكب. فسماء السمو الإلهية، توقفت عن إنزال المزيد من مياه الدين والآيات، وذلك لكفايتها في تحقيق الغاية الإلهية المقدرة لها مستقبلا، كما قال تعالى **(وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)**[43]، أي أنه يمكن لسفينة دين نوح الآن الاستقرار على سطح أرض قلوب المؤمنين، بعدما انتهى تأثير الأفكار الكافرة المضلة في صدّ دعوتها الإلهية الجديدة، وكما قال تعالى في شأن سيد المرسلين عندما أنزل ما يكفي لأمة المسلمين من الآيات والأحكام والنواهي في كتابه المحكم

العزيز **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا)**[44].

وبمعنى آخر، هو أمر إلهي نافذ من العزيز القدير بعودة مياه مستنقعات أفكار الكفر الآسنة التي كانت سائدة آنذاك فوق أراضي عقول وقلوب أصحاب الشريعة السابقة إلى باطن أعماق أرض قلوبهم الجرزة، بعدما نزلت أمطار مياه أيمان جديدة مقدر لها الحلول محلها، وكذلك هو أمر مقدس لظهور أراضي قلوب أيمان جديدة خصبة مستعدة لاستقبال بذرة الإيمان الجديدة ورعايتها، لتنبت فيها وعليها شجرة وارفة محملة بثمار الأعمال الصالحة وفواكه الأيمان حتى يستظل تحت فيئها عباد الله الخاشعون. إنها إشارة دقيقة لعملية تكرار نزول هذه المياه السماوية المقدسة، وإلى إمكانية عودة مياه الفيضان على الناس من جديد فور انتهاء قوة ديانة نوح وفساد مياه دينه وحال عودة ظهور الظالمين ونهوضهم من نومهم وسبات غفلتهم عند ولادة أجيال أمتهم الأخيرة؛ فمياه الكفر والضلالة لم تختف في يوم من الأيام ولم تزول أو تمحى بشكل دائم وإلى الأبد، بل غاضت واستقرت في أعماق أرض قلوب الناس، ولم تذهب بعيدا، بل بقيت تنتظر فرصة تنقيبهم وبحثهم عنها لتفيض بينهم وعليهم مرة أخرى ولتعلو بالتدريج فوق هاماتهم ورؤوسهم بعد زوال تأثير الأيمان كما حصل مع كل أمة مؤمنة سابقة من أصحاب الكتاب.

الحواشي

(1) سورة هود، الآية 25.
(2) سورة الأحزاب، الآية 45.
(3) سورة هود، الآية 26.
(4) سورة هود، الآية 27.
(5) سورة هود، الآية 28.
(6) سورة هود، الآية 29.
(7) سورة هود، الآية 30.
(8) سورة هود، الآية 31.
(9) سورة هود، الآية 32.
(10) سورة هود، الآية 33.
(11) سورة هود، الآية 34.
(12) سورة هود، الآية 35.
(13) سورة هود، الآية 36.
(14) سورة هود، الآية 37.
(15) سورة هود، الآية 38.
(16) سورة هود، الآية 39.
(17) سورة هود، الآية 40.
(18) سورة هود، الآية 41.
(19) سورة هود، الآية 42.
(20) سورة العنكبوت، الآية 2.
(21) سورة الفرقان، الآية 20.
(22) سورة هود، الآية 45.
(23) سورة هود، الآية 46.
(24) سورة هود، الآية 47.
(25) سورة هود، الآية 43.
(26) سورة هود، الآية 44.
(27) سورة هود، الآية 48.
(28) سورة هود، الآية 49.
(29) سورة العنكبوت، الآية 14.
(30) سورة فاطر، الآية 24.
(31) سورة الإنسان، الآية 1.
(32) سورة الأعراف، الآية 34.
(33) سورة الذاريات، الآية 56.
(34) سورة هود، الآية 43.
(35) سورة يس، الآية 62.
(36) سورة الحشر، الآية 21.
(37) سورة الزخرف، الآية 31.
(38) سورة النور، الآية 35.
(39) سورة هود، الآية 44.
(40) سورة الفرقان، الآية 53.
(41) سورة الحجر، الآية 21.
(42) سورة الأعراف، الآية 64.
(43) سورة المؤمنون، الآية 18.
(44) سورة المائدة، الآية 3.

الفصل الثالث

قصة سيدنا إبراهيم(ع)

يحكى أن رجلا ظهر قبل أكثر من ألفين وخمسمائة سنة في منطقة أذربيجان أقصى الشمال الغربي من بلاد فارس (إيران) قرب نهر يسمى (آراس)، يدعى زرادشت. ادعى هذا الرجل أنه نبي أو رسول وله كتاب منزل من عند الله، وبدأ الناس يستمعون له، فمنهم من عارضه وابتعد عنه ومنهم من صدّقه وآمن به. وبمرور السنين صار له أتباع ومريدون عرفوا فيما بعد باسم الزرادشتيون أو المجوس، وبالتدريج وشيئا فشيئا آمنت بدعوته غالبية الأمة الفارسية وما حولها. وما يهمنا من هذه الحكاية أنه عند تفحص كتب تلك الأمة القديمة، نجدهم ما زالوا يحتفظون في كتب تراثهم وتاريخهم، قصصا عجيبة لنبيّهم زرادشت لا تختلف كثيراً عن قصة سيدنا إبراهيم(ع)، بل قد تفوقها في غرابة أحداثها، خاصة وأنها حدثت له وهو ما يزال صغيرا في سن الطفولة.

تقول إحدى القصص: عندما كان النبي زرادشت طفلا رضيعاً، رماه سحرة الأمة السابقة في وسط نار مذبح معبدهم بعدما تنبؤا بمستقبله العظيم خشية أن يخرب طقوسهم ويمحو معتقدات

دينهم عند بلوغه سن الرشد، لكن الغريب أن هذا الطفل بقي سالما ولم يحترق أو يصبه سوء حتى جاءت والدته لاهثة فزعة لتلتقطه من وسط النار وهو يلهو ويلعب في داخلها غير شاعر بلهيبها.[1].

وعندما فشلت جهود السحرة ورجال الدين في التخلص من هذا الطفل العجيب، استمروا في حياكة المؤامرات للنيل من حياته، لكنه بقي ينجو من دسائسهم في كل مرة حتى جاءه الوحي وهو رجل راشد وأعلن نبوءته. وعندما أراد أن يوصل لملك إيران بشارة نبوءته، توجه إلى بلاط قصره الكبير ووقف عند الباب يطلب مقابلته، (.. وأمسك زرادشت بيده كرة من النار ورفعها في وجه حارس الباب وهو يقول: لتكن هذه آيتي ودليلك على أني جئت باسم الإله الواحد الحكيم..! وانطلق حارس القصر في قوة واندفاع مذعوراً إلى قاعة العرش، حيث كان الملك جالساً يحيط به حكماؤه وكهنته. وهتف الحارس وهو يلهث: بالباب رجل عجيب حقاً، يريد أن يراك أيها الملك.. وهو يدعي أنه نبي من عند إله واحد، ويمسك في يده كرة من النار تلتهب ولكنها لا تحرقه..!)[2].

ورغم حصول كل تلك العجائب والخوارق للعادات والقوانين الطبيعية، إلا أن النبي زرادشت بقي في أول أمر دعوته وحيدا فريدا لعدة سنوات ولم يؤمن به إلا القلّة حتى آمن ذلك الملك بعد قصة طويلة مليئة بأنواع المعجزات العجيبة ما زالت مدونة في كتب تاريخ أولئك القوم وتراثهم.

فلو أردنا تفحص نقاط الاتفاق والاختلاف بين قصة النبي زرادشت وقصة سيدنا إبراهيم(ع) وحاولنا المقارنة بينهما وبحثنا عن الأسباب التي أدت إلى تجاهل المسلمون أو رفضهم للقصة الأولى والأيمان والقبول بأحداث القصة الثانية، لوجدنا أن نصوص القرآن الكريم تلعب دوراً أساسياً في هذا الاعتقاد، فطالما يؤمن المسلمون أن القرآن الكريم كتاب منزل من رب العالمين لا شك ولا ريب فيما سطّر بين دفتيه، وأنه أشار ولعدة مرات وبشيء من التفصيل لقصة سيدنا إبراهيم(ع)، بينما لم يأت على ذكر أمة المجوس ولا عن معجزات رسولهم إلا في آية واحدة تقريبا وليضع اسمها وسطا بين أمم أصحاب الكتب المعروفة وبين أمة المشركين، فقد يكون هذا التسلسل والتعداد في الآية الكريمة هو الذي أضفى على عقيدتها ظلالا من الريبة والشك أدى بالتالي إلى اعتبارها أمة مشركة، كما في قوله تعالى **(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)**[3].

أما عند قراءة قوله تعالى **(وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً)**[4]، وكذلك قوله الكريم **(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ)**[5]، نتساءل عن حقيقة تاريخ أمة أصحاب الرّس وأين كان أصلهم وموطنهم وأين عاشوا وسكنوا وأين آثار وبقايا حضارتهم وهل هناك علاقة بينهم وبين أهل إيران ونبيهم

القديم زرادشت. ومما يزيد الأمر استغرابا حشر القرآن الكريم لاسم أمتهم بين أمم عرفت بتاريخها الطويل في معارضة الرسل وتكذيبهم.

من المعلوم أن الزرادشتيون هم أهل إيران الأصليون قبل ظهور دين الإسلام، فإذا بحثنا بين الأسماء القديمة لتلك المناطق وجغرافيتها، وأخذنا في الاعتبار ما جرى عليها من تغيرات وتبديل نتيجة تعاقب الزمان وتناوب الأمم وما مر بها من هجرات الأقوام واستقرارهم وتغير اللغات وتطور اللهجات والفرق الواضح بين لغة الفرس القديمة وبين لغتهم في هذه الأيام وما كان للغة العربية من تأثير بالغ الأثر عليها بعد دخولهم دين الإسلام، نتساءل: هل هناك علاقة ما بين كلمتي أصحاب (الرس) ونهر (آراس) الواقع في الشمال الغربي من دولة إيران، وهل تدل هذه الإشارة على أمر ما؟ أما عندما نقرأ ما دعا إليه زرادشت من تعاليم ووصايا ونصائح للناس، فنجدها ترتكز في أساسها على عبادة الإله الواحد ونبذ تبعية الأصنام وترك أقوال السحرة، وتدعو إلى مكارم الأخلاق والسلوك الحسن والعمل الصالح وخدمة وإصلاح المجتمع، وهذا ما يدفعنا للتساؤل: هل كان زرادشت نبياً من عند الله أم كان فيلسوفا أو مصلحاً اجتماعياً؟ وهل هناك علاقة بين (أصحاب الرس) و (المجوس)، وهل هما اسمين لأمة واحدة؟

لم يكن القصد من هذه المقدمة القصيرة، إلا لنعلم أن عملية الحرق بالنار لم تقتصر على سيدنا إبراهيم(ع) فقط، وإنما هناك أمما أخرى تعتقد بمثيلتها منذ قديم الزمان.

* * *

نعود إلى محور الحديث حول قصة سيدنا إبراهيم(ع)، ونحاول تناولها بطريقة جديدة من خلال إضفاء منظور علمي ديني عليها، محاولين إدراك مغزى قصة رميه في النار وكيفية خروجه سالما منها، وكيف أحيا الطيور الأربعة وأعاد لها الحياة وهي مقطّعة الأوصال منثورة الأعضاء على رؤوس جبال أربعة.

فالحكاية بطرحها القديم قد لا تتفق مع العلم، ومن الوارد أن هناك من ينظر إليها بعين الريبة أو يتخذها كحكاية تراثية مسلية. وسبق وقلنا بضرورة توافق المفاهيم الدينية مع العلم والعقل، فإن تناقضا أو تباينا، فأما أن يكون التفسير المطروح فيه شيء من الخطأ والوهم، والعلم هو الصحيح، أو يكون التفسير صحيحاً، والعلم هو الخطأ.

من المعلوم أن سيدنا إبراهيم(ع) ولد وعاش في أرض الرافدين، ومن خلال حسابات أقدم النصوص، يكون قد عاش قبل أكثر من أربعة أو خمسة آلاف سنة، وأن وجوده آنذاك تزامن مع وجود كثير من أتباع الديانات القديمة كما هو معروف عن أرض العراق. وبهذا يمكن افتراض ظهور سيدنا إبراهيم(ع) وسط أمة تتبع

شريعة سماوية، خاصة والقرآن الكريم يؤكد كما سبق وذكرنا أنه ما من أمة من أمم البشر إلا وقد جاءها نبي أو رسول نذير، ينذرهم من مغبة الكفر وتكذيب رسل الله تعالى **(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ)**[6].

ومن المعلوم أن البشر في قديم الزمان . ولا يزالون . ينحتون تماثيلا ويجسمون أصناما لأنبيائهم وأجدادهم وقديسيهم بعد وفاتهم ورحيلهم، تخليدا واحتراما لذكراهم، لكن هذا التصرف تسلل بخفة إلى عقول الناس وأذهانهم وراح يتطور ببطء ليتمحور مع مرور الوقت وتوالي الأجيال ولينقلب إلى نوع من أنواع التقديس والعبادة لهذه التماثيل والأصنام والمجسمات، وهذا ما أدى في نهاية المطاف إلى الابتعاد عن صراط كل دين حق والانحراف عن سواء السبيل.

إذن من الوارد أن تكون الأمة التي ظهر بينها سيدنا إبراهيم(ع)، أمة لها دين سماوي قديم، تحولت عبادتها وطقوسها مع مرور الوقت والزمان إلى عبادة الأصنام والأوثان، ومن الوارد أيضا أن الله سبحانه وتعالى يمثل ويشبه في قرآنه الكريم رجال الأديان القديمة بالأصنام والأوثان لما بينهما من حالات التشابه في العجز وعدم الفائدة وفي إضلال العباد وإبعادهم عن طريق الحق والصواب.

يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن تلك الواقعة الفريدة العجيبة **(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)**[7].

إن أول ما يوقفنا في هذه الآية الكريمة، كلمة (حرّقوه)، وفي الحقيقة تعتبر هذه الكلمة المحور الذي تدور حوله تفاسير حكاية الحرق بتمامها، فهي التي أدت إلى تفهّم مجمل تفاصيل القصة بالمفهوم السائد. لكنه وبعودتنا إلى كتاب "لسان العرب"، نجد أن لهذه الكلمة معنى آخر قد يساعد في استخراج مفاهيم معنوية أخرى مختلفة، حيث جاء من بين معانيها العديدة: {الـ (حرق): هو الغضب والغيظ والحنق}. وهنا نجد أن هذا المعنى يفتح آفاقا جديدة أمام تناول القصة بشكل آخر مختلف عما اعتدنا عليه. فلو استعضنا عن المفهوم المادي للنار في القصة، واستبدلناه بالمفاهيم المعنوية، مثل نار الكفر والضلالة ونار الحسد والبغضاء ونار الغيظ والحنق والغضب والكراهية، ورمضاء التعصب والعصيان والتمرد على الله ورسوله التي تستعر في قلوب أصحاب العقائد القديمة تجاه كل دعوة سماوية جديدة؛ لاتضح أن للقصة معنى آخر، ولأدركنا أنه من الوارد أن يكون النمرود وأتباعه ورجال الدين في زمانه لم يرموا سيدنا إبراهيم(ع) في هذه النار المادية التي توقد وتشعل من أعواد الحطب وألواح الخشب وسوائل الوقود فتحرق كل شيء وتصهر حتى أصلب أنواع المعادن، بل من الوارد أنهم

هاجموه بنيران ألسنتهم ونيران أحقاد قلوبهم وعقولهم ورموه بسهام نيران الكفر والعصيان وجمر العناد والمعاندة وضمراء الحسد والغيظ وآتون الحنق والمحاربة التي واجهوه وعارضوه بها لإخماد جذوة نار دينه الحق انتصارا لمعتقداتهم ومناصرة لأصنام رجال دينهم من قبل أن تتوسع نيران دينه الجديد وتحرقهم ومعتقداتهم القديمة وتنير سبيلهم وتضيء عقولهم. لكن سيدنا إبراهيم استطاع بالصبر والإيمان والتمسك بأوامر الله مثلما فعل من بعده ومن قبله جميع الرسل والأنبياء، الخروج من هذه النيران المعنوية الشريرة سليماً معافى، وتمكن من نشر أمره ودينه بين الناس وأوقد شعلة الأيمان الصادقة الحقيقية من جديد في مواقد القلوب الطيبة وبعث نيران الإيقان في مراجل العقول النيّرة وأحيا روح إيمان النفوس الميتة وبعثها بروح الحق الجديد، وفي نهاية الأمر انتصر على عناد النمرود ورجال دينه وبدد آمالهم وأفشل خططهم في وأد دعوته من خلال هجرته إلى بلاد أخرى باحثاً عن أراض قلوب خصبة مستعدة لقبول بذرة الأيمان والخشوع ورعايتها.

من المؤكد أن هذا الطرح الجديد، سيجد صعوبة في تبديل جذور الفكرة القديمة المترسخة في أعماق عقول الناس وقلوبهم للآلاف السنين؛ لكننا لو تعمقنا في البحث بين بطون الآيات الكريمة، لوجدنا أن هناك أدلة أخرى تشير إلى أن كلمات القرآن الكريم لا تؤخذ فقط بمعانيها الحرفية الظاهرية على الدوام. فعلى

سبيل المثال، لو قرأنا قوله تعالى **(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)**[8]، وأردنا أخذها على معانيها الحرفية، لاشتبهت علينا أمور كثيرة ولصعب التوفيق فيما بين ظاهر كلماتها ومقاصدها. لذا كان لابد من أخذها بمعانيها الرمزية المعنوية، لأن هناك فرق كبير بين النار والنور، فالنور لا يطفئ بالأفواه أو بالماء، ثم أن النفخ والريح والهواء يزيد من اشتعال النار ولهيبها ولا يساعد في إطفاءها. لكننا لو قلنا أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله المتلألئ في آياته بما يتقولون به من ضديات ورديات ومفتريات، ويأبى الله إلا أن يتم سريان قوة نور الأيمان في قلوب العباد حتى لو كره الكافرون ولم يرتضوا. لكان ذلك أقرب إلى المعنى الحقيقي.

ولنأت بمثال آخر على استعمال كلمة النار أو الحرق بطريقة مجازية في القرآن الكريم، قال تعالى **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)**[9]، فالإشارة إلى الذين (يكتمون)، قد تعني رجال الدين، فليس هناك غيرهم من يعرف أسرار الكتب الإلهية فيعلنها للناس أو يكتمها، والحقيقة أن الذين يكتمون ما أنزله الله من حقائق المعاني اللطيفة في مختلف كتب الأديان والعقائد السماوية، نراهم يمشون بين الناس بكامل الهيبة والوقار ولا يبدو عليهم أنهم يعانون أو

يتألمون من نيران تستعر في بطونهم، بل أنهم قد لا يشعرون حتى بأنهم يكتمون ما أنزل الله.

أما إذا قرأنا قوله الكريم **(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)**[10]، فنفهم من عبارتها الأخيرة، أنها صيغة تعجب تشير إلى قدرة أولئك الذين يشترون الضلالة بثمن الهدى ويتقبلون العذاب بثمن المغفرة على تحمل قوة النار والصبر على حريقها وهم في داخلها! أي أن الآية توضح بطريقة من الطرق، أن هؤلاء المشترين لهم الخيار والإمكانية على ترك النار والابتعاد عنها، لكنهم لا يفعلون بل ويستمرون في الجلوس وسط النار! فإذا تقبلنا فكرة جلوسهم على النار، فلا يمكن تقبل فكرة صبرهم عليها، فهذا أمر مستحيل لا قدرة لإنسان عليه؛ أما لو قلنا أنهم قادرون على تحمل نيران الضلالة والكفر وضمراء العذاب المعنوي، وأن بإمكانهم تحملها والصبر عليها وهم في داخلها، لأنهم يظنون أنهم يحسنون صنعا، ولكنهم هم المفسدون ولا يعلمون؛ لكان هذا أقرب إلى المنطق والعقل.

ومثال آخر عن مفهوم النار والنور: قال تعالى **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)**[11]، في هذه الآية الكريمة، ينزل الأمر الإلهي إلى سيدنا موسى(ع) بإخراج قومه (بني إسرائيل) من الظلمات إلى النور، والحال أن بني إسرائيل لم

يكونوا يعيشون في جحور محفورة تحت الأرض أو في كهوف غائرة في بطون الجبال بعيدين عن نور الشمس وضيائها، بل كانوا يعيشون على الأرض تحت أشعة الشمس وتحت نير سلطة فرعون وظلمه. إذن يمكن القول أن المقصود من الإخراج هنا، هو إخراجهم من ظلمة الكفر وديجور الضلالة إلى نور الإيمان وضياء الإيقان بدين الله.

ومثال آخر: قال تعالى **(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)**[12]، فلو أخذنا هذه الآية الكريمة على ظاهر معانيها، نستغرب من إيجاد النار أو إيقادها من الشجر الأخضر! ولماذا لم تقل الآية الكريمة (الشجر الجاف أو الشجر اليابس الميت)، فهذه هي المواد الطبيعية للحصول على النار منها. وإلا فالنار لا توقد من الشجر الأخضر، وهذا أمر بديهي يعرفه صغار الحطابين وبسطاء الفلاحين وعامة الناس ناهيك عن عقلائهم. لكننا عندما نتذكر أن الله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال حينما يشاء توضيح أمر ما لعباده من أولي الألباب، كما في قوله العزيز **(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)**[13]، نفهم أنه يمكننا تناول معنى الشجر الأخضر في الآية الكريمة على أنه شجر الشرائع الإلهية الطري؛ فعند بداية نزول أي شريعة سماوية، تكون في أول نزولها، شجرة نضرة خضراء حيّة تمنح من يؤمن بها حياة الأيمان وأثمار البركات

وتشعل في قلوبهم وعقولهم نيران العلوم والمعرفة وأنوار الإيمان والإيقان لتحييهم بحياتها وتخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الأيمان. أما عندما ينزل الأمر الإلهي بنسخها وتبديلها في نهاية حياتها وتمام عملها وبعد تحقق أهدافها في هداية العباد، عندها تمسي شجرة شريعة ميتة خامدة لا حياة ولا نور حق ولا نيران أيمان فيها، وكل من يبقى من أتباعها مصراً معانداً متعصباً للاستظلال بظلها، لا يجني من ورائها إلا ظلمات الكفر وظل الضلالة.

من هذا لا يمكن على الدوام أخذ معاني كلمات الآيات الكريمة على ظاهرها فقط، كما لاحظنا ذلك في الأمثلة السابقة ونلاحظه بين بطون أمهات كتب التفسير.

من كل هذا، قد تكون لقصة رمي سيدنا إبراهيم(ع) في النار، معاني أخرى، كرميه في نيران التعصب والكراهية والحقد من قبل رجال قومه لإطفاء نار شريعته الجديدة، لكنه سبحانه وتعالى نجّاه من كيد الكافرين ونصره في أرض أخرى وساعده في نشر دينه الجديد.

* * *

أما ما يعرف عن معجزة سيدنا إبراهيم(ع) في إعادة الحياة إلى أربعة طيور بعد تقطيعها وتوزيع أوصالها على قمم الجبال، فلنأخذ الآية الكريمة ونقرأها بطريقة جديدة، علّنا نجد فيها ما يضفي عليها بريقاً جديداً، قال تعالى **(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ**

الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[14].

قبل كل شيء، تتكلم هذه الآية الكريمة كغالبية آيات القرآن الكريم عن أزمان ظهور رسل من عند الله، وأزمان بداية إعلانهم لدعواتهم، كما أنها تثبت بصورة من الصور، أن النفس البشرية تمتاز منذ ذلك الزمان بروح العناد والجدل والتعصب، كما أشار إلى ذلك بصراحة قوله تعالى **(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)**[15]، وكذلك قوله الكريم **(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا)**[16]، فهذه الطبيعة البشرية السلبية، قد تشتد في عنادها حتى مع رسل الله وأنبيائه المقدسين، وقد ترفض دلائل الحق وآياته البينات حتى ولو رأتها بعينها ولمستها بيدها، كما قال تعالى **(يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ)**[17]، وكذلك قوله الكريم **(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ)**[18].

فسيدنا إبراهيم(ع)، يمثل في هذه القصة من جانب آخر، النفس الإنسانية العاقلة الحكيمة التي تقتنع بالأدلة والبراهين، ومن الوارد أنه يطلب من الله سبحانه وتعالى مشاهدة طريقة إحياء موتى

الإيمان وليس موتى الأجساد، باعتباره قد علم مسبقا أنه اختير لتنفيذ هذه المهمة الروحانية، كما هو الحال عند اختيار جميع مظاهر الله المقدسة ومن ضمنهم سيدنا محمد(ص) عندما خاطبه رب العزة في قوله تعالى **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)**[19]، فمحمد(ص) لم يحيي أجساد الأموات ولم يخرجهم من قبورهم بعد تحللها وتفسخها، بل أحيا أموات الأرواح والايمان بعدما ماتوا بروح الكفر والعصيان.

كما أن العبارة المشهورة في الآية الكريمة **(أَوَلَمْ تُؤْمِنْ)**، لم يقصد بها الإشارة إلى نوع من المجادلة بين سيدنا إبراهيم ورب العزة، أو حالة من التشكك بقدرة الله العظيمة، فهذا مفهوم بعيد عن عبودية الرسل ودرجات خشوعهم الكاملة، بل يمكن أخذها كنوع من التعليم الإلهي اللطيف لعباده وخلقه، لأن سيدنا إبراهيم(ع) كان رسولا مختاراً ونبياً مطيعاً ومؤمنا صالحاً وعبداً حنيفاً ومثالاً يحتذي به الناس في طريقة تعبدهم، كما قال سبحانه وتعالى عنه في مجموعة من آياته الكريمة **(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)**[20]، وكذلك **(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)**[21]، وكذلك **(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)**[22]، وأيضا **(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)**[23]، وكذلك **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ**

صِدِّيقًا نَبِيًّا)[24]، ثم **(سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ)**[25]، وكذلك **(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)**[26]. فبعد قراءة كل هذا الكم الهائل من الصفات الطيبة والمثل العليا التي يصف بها رب العزة سيدنا إبراهيم(ع) أبو الرسل والأنبياء، كيف يمكن أن يخطر على البال أو حتى مجرد تصوّر فكرة تشككه في لحظة من اللحظات بقدرة الله وعظمته على إحياء الموتى!؟

لذلك لابد أن يكون من معاني العبارة الكريمة **(أَوَلَمْ تُؤْمِنْ)** إشارة إلى أمر آخر غير التشكك وعدم الثقة والإيقان. ومن الوارد أن يكون من معانيها إشارة إلى الزمن السابق لبعثته، عندما كان إبراهيم ينتمي إلى دين أمته القديمة. أي: ألم تكن مؤمنا بالله من قبل؟ أو: ألم تكن مؤمناً من قبل بدين من أديان الله السابقة؟ فيجيب سيدنا إبراهيم(ع): **(بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)**، أي نعم أنا موقن ومتأكد أنك منزل شريعة آبائي وأجدادي السابقة، ونعم أنا موقن أنك أحييتهم بالأيمان من قبل، ولكني أريد أن أرى ذلك الإحياء الروحاني بعيني حتى يطمئن قلبي لمهمتي القادمة بين هؤلاء القوم قساة القلوب.

ومما يؤيد هذا الرأي، شهادة سيدنا إبراهيم(ع) على انفطار السماء في قوله تعالى **(قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ)**[27]، إذ ليس من الممكن، أو ليس من المعقول أن يشهد سيدنا إبراهيم(ع) على انفطار أو انشقاق

هذه السماء الظاهرة، فهو لم يكن قد خلق أو ولد بعد، لكنه يشهد على انفطار سماء الديانة القديمة التي شارك هو في فطرها وكشطها وإزالتها فعلا بعدما بدأ وشرع في تأسيس وبناء سماء دينه الجديد.

فسيدنا إبراهيم(ع) يشك ويتشكك ولا يتصور إمكانية أيمان قومه وانقلابهم لتقبل دينه الجديد، فهو منهم وعاش بينهم ويعلم مقدار عنادهم ودرجة تعصبهم لدينهم وقوة إصرارهم على عدم التخلي عن موروثاتهم. فالآية الكريمة، توضح ما كان عليه قوم إبراهيم من قوة العناد وشدة التعصب وقسوة القلوب بدرجة أن سيدنا إبراهيم(ع) لم يصدّق إمكانية تحولهم من حالة الموت بالكفر القديم إلى حالة الحياة بالأيمان الجديد الذي يدعوهم إليه، ويبدو أنه خبير مطلع بأحوالهم وعلى دراية تامة بمقدار توغلهم وغوصهم في بحور الغلو والتعصب. وهذا ما حصل فيما بعد بالفعل، ففي النهاية طردوه من أرضهم مما اضطر إلى ترك موطنه ومغادرة أرضهم والهجرة إلى أرض الشام وفلسطين ومصر ومن ثم إلى الجزيرة العربية لنشر دينه بين أقوام أخرى أكثر استعدادا لتقبل الإيمان. وبهذا تصدق مقولة السيد المسيح(ع): لا كرامة لنبي بين قومه.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى)، أي يا إلهي.. إنك أمرتني بإعلان دين جديد بين قومي، وأنا عشت وترعرعت بينهم، وأعلم مقدار تعصبهم وغلوهم في دينهم، وأنه من المستحيل

أن يتقبلوا دعوتي الجديدة، وسيفعلون كل ما يستطيعون عليه لمقاومتي وصدّي ووأد دعوتي.

(قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ)؟ هنا يسأل رب العزة خليله إبراهيم، ويذكّره بما سبق وحدث من قبل حينما حصل ذات الشيء بين قومه حينما ظهر دين أجداده الذي ما زال أبيه آزر يؤمن به حتى الآن، فلقد ظهر ذلك الدين بين ذات الأمة وكانوا من قبل على ذات العناد والتعصب وحاربوا رسولهم السابق، كما يتوقع إبراهيم منهم الآن محاربته. فهو لا يشك بقدرة الله وقوته وحكمته على تغيير قلوب الناس، بل يشك بنفوس قومه المتوغلة في أعماقها صفات العناد وجذور التعصب والغلو إلى حد النخاع حينما يجيب ربه: **(بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)**، أي أريد مثالاً واقعياً ملموساً على إمكانية إيمان هؤلاء القوم بديني الجديد، فأنا لا أتصور إمكانية تحولهم من دين عاشوا وتربوا على تعاليمه وطقوسه لمئات السنين إلى إيمان جديد بدين جديد بمجرد أن أدعوهم إليه.

(قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ)، نلاحظ أن الكلام كان عن الأيمان والدعوة إلى دين جديد، أما دخول مفهوم (الطير)، فيبدو غريبا عن جوهر الموضوع بعض الشيء. لكننا عندما نعلم أن الله سبحانه وتعالى يحب وصف المؤمنين التقاة الثابتين على دينه بالطيور وتشبيههم بها، كما قال تعالى **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ**

وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)[28]، نفهم بعضا من أصل الموضوع. ففي هذه الآية الكريمة، نجد أن الله سبحانه وتعالى يشير إلى أمر غريب وهو أن الطيور تدرك وتعلم وتفقه صلاتها وتسبيحها! ومن المعلوم أن هذا أمر مستحيل وغير ممكن حسب قوانين الطبيعة التي خلقها وأوجدها رب العزة بذاته. لأن الصلاة والتسبيح عمليتان لاحقتان لحالتي التفكّر والتعقل المتفرد بهما الإنسان لوحده، فهو المخلوق الفريد الذي يملك العقل ليفكر به. لذلك فالطيور لا تصلي ولا تسبّح، لا بعقولها ولا بألسنتها ولا بحركاتها، إنما هي تحكي للإنسان العاقل من خلال وجودها وطبيعة حياتها البسيطة عن عظمة خلق الله، وتضرب له مثلا بهذا المخلوق السامي المختلف عن غيره من المخلوقات حالة ترفعه وأنفته عن التعلق بتراب الدنيا وملذاتها. هذا بالإضافة إلى أن أحوال الطيور وأفعالها ومعيشتها ليست بالمسألة المستعصية الخافية، فالكثير من الناس يعرف تفاصيل حياتها وطريقة عيشها. لكن المقصود من الإتيان على ذكرها كمثال، هو تشبيه الإنسان المؤمن الروحاني بأحوالها وطريقة حياتها وسموها ولطافتها ووداعتها وجمالها وتنزهها عن متطلبات الحياة الأرضية الدانية، فهي تعيش في أوكارها وأعشاشها على أعلى الأغصان مبتعدة قدر الإمكان عن عالم التراب، عالمها هذا الفضاء الكبير، تكتفي بتناول ما بقربها من لذيذ الثمار والفواكه، لا تنزل من علوها إلى الأرض

إلا حينما تبتغي نيل بضع قطرات من الماء لتروي عطشها أو عندما تشاء التخلص من أدران الدنيا وأتربتها في مياه الجداول والأنهار، منتبهة حذرة من تقرب بقية المخلوقات منها والاعتداء عليها، تسارع للطيران والعلو حالما تنهي مهمتها.

وهكذا هو حال المؤمنين الروحانيين الحقيقيين، فهم يقضون جلَّ أوقاتهم طائرين في سماء العبادة وفضاء الخشوع والإيمان والعلو، مترفعين عن شؤون الدنيا التي تلهي غيرهم من الماديين وتجذبهم إليها.

إذا علمنا هذا وانتبهنا إلى هذه النقطة الحساسة، نفهم أن جوهر الحديث في الآية المباركة لم يخرج عن إطار الأيمان والدين والمؤمنين، وبقي في صلب الموضوع.

نعود للفقرة المباركة **(قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ)**، أي يا إبراهيم: لقد آمن بدعوتك عدد قليل من قومك، فخذ أربعة منهم وتكلم معهم وزد في ثباتهم وإيقانهم في أمرك ودينك وأرفع من مستوى أيمانهم ودرجة إيقانهم حتى يصبحوا مثل طيور السماء في علوهم وطهارتهم وترفعهم عن شؤون الدنيا، وعندما تثق من ثبات نفوسهم وتتأكد من تجردهم عن عالم التراب والماديات وأنهم نفضوا عن قلوبهم وعقولهم ما التصق بها من تراب الأوهام وغبار الخرافات السابقة، عندها **(ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا)**، أي أرسل كل واحد منهم إلى رجل جبل دين معروف من

أعلام الدين السابق ليناقشوهم في أمور دينهم ويتحاجوا معهم ويبرهنوا لهم أحقية دينك الجديد، واتركهم عندهم لفترة كافية حتى تتم الحجة ويكتمل البرهان **(ثُمَّ ادْعُهُنَّ)**، أي.. وبعد أن يكملوا نقاشهم ويقدموا ما لديهم من دلالات وحجج، اطلبهم ليعودوا إليك وإلى دينك؛ عندها تراهم **(يَأْتِينَكَ سَعْيًا)** أي ينهضون كالأسود من مجالس الكافرين نافضين عنهم غبار التعصب وعوالق العناد ويعودون كالجواهر النقية غير متأثرين بأقوال جبال رجال دينهم القدماء ثابتين على دينك لا يحيدون عن سبيل الحق وطريق الأيمان الصحيح، وسيأتون للانضمام إلى جماعتك ومؤمنيك مرة أخرى **(وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)**، أي وبهذا تتأكد أن الله عزيز غني عن دواب الكافرين وأنعام المعرضين ولا يريدهم بين صفوف طيور مؤمنيه، وهو حكيم في طريقة تعامله مع قلوب عباده، وعالم بكيفية تقليب قلوبهم إلى طرق الأيمان والسبيل القويم.

الحواشي

(1) كتاب قصة الديانات، صفحة 283 تأليف سليمان مظهر 2002م.
(2) نفس المصدر السابق صفحة 295.
(3) سورة الحج، الآية 17.
(4) سورة الفرقان، الآية 38.
(5) سورة ق، الآية 12.
(6) سورة فاطر، الآية 24.
(7) سورة الأنبياء، الآيتان 68،69.
(8) سورة التوبة، الآية 32.
(9) سورة البقرة، الآية 174.
(10) سورة البقرة، الآية 175.
(11) سورة إبراهيم، الآية 5.
(12) سورة يس، الآية 80.
(13) سورة الزمر، الآية 27.
(14) سورة البقرة، الآية 260.
(15) سورة الكهف، الآية 54.
(16) سورة الإسراء، الآية 89.
(17) سورة النحل، الآية 83.
(18) سورة الأعراف، الآية 179.
(19) سورة الأنفال، الآية 24.
(20) سورة آل عمران، الآية 67.
(21) سورة النساء، الآية 125.
(22) سورة هود، الآية 75.
(23) سورة النحل، الآية 120.
(24) سورة مريم، الآية 41.
(25) سورة الصافات، الآية 109.
(26) سورة النجم، الآية 37.
(27) سورة الأنبياء، الآية 56.
(28) سورة النور، الآية 41.

الفصل الرابع

قصة ناقة النبي صالح

من بين قصص الرسل والأنبياء الكرام العديدة، نتناول أيضا قصة النبي صالح(ع) التي ورد ذكرها كثيراً في القرآن الكريم، ونتأمل حياة هذا النبي الكريم وكيف عاش بين قوم ثمود وما لاقاه منهم من صدّ وعناد واعتراض، كما هو حال جميع الرسل والأنبياء الكرام، وبهذا كان لابد لنا من التطرّق إلى ناقته ومحور قصته التي بجّلها وعظّمها سبحانه وتعالى كثيرا ورفع من شأنها ومقامها لدرجة أن مجرد الاعتداء عليها أو المساس بها كان السبب في موت وفناء قوم ثمود بمجملهم. ونستغرب لكل تلك الصفات وذلك الاهتمام الكبير الذي يصفها بها رب العباد وما حظيت به هذه الناقة من مكانة سامية عنده وكيف أمر الناس بتركها لحريتها تفعل ما تشاء وترتع أينما تريد وعدم المساس بها، وهي ناقة وحيوان مثل غيرها! وبهذا يبزغ في أفق العقول مجموعة من الأسئلة: هل كانت هذه الناقة دابة مثل بقية النوق، وما هو الفرق بينها وبين غيرها؟ وكيف كان يميزها صغار القوم وكبارهم؟ ولماذا نالت كل هذا الدعم والاهتمام الرباني؟

يحاول هذا البحث بوريقاته القليلة الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها، فقد يسلّط قبساً من النور على ما توارثناه عن أجدادنا من مفاهيمها.

من الآيات الكريمة التي أشارت إلى قصة سيدنا صالح(ع) وقوم ثمود وأمر الناقة وموضوعها، نجد باقة لطيفة منها جاءت في مجموعة من السور المباركة، لذا سنحاول جمعها والاستهداء بهديها عسى أن نتمكن من توضيح بعض ما نستطيع عليه من معانيها بعون الله وقدرته.

فعندما نقرأ قوله تعالى: **(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)**[1]، نفهم أن النبي صالح(ع) كان من قوم ثمود وعاش بينهم، وبذلك فهو يتكلم ذات لغتهم وانه دعاهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده وترك ما دونه.

فنتساءل: هل كان قوم ثمود يعبدون الأوثان أم آلهة متعددة أو إلهاً آخر؟ وهل سمعوا بفكرة التوحيد لأول مرة من النبي صالح(ع)؟ هل كانوا قوما ملحدين لا يؤمنون بوجود خالق لهذا الكون؟

ومن خلال كلمات الآية الكريمة، نجد أنه من الضروري البحث عن معنى كلمة **(بَيِّنَةٌ)**، لنتعرف على حجة النبي صالح(ع)

أمام قومه؛ وخير مكان نبحث فيه، هو القرآن الكريم، لأن معنى هذه الكلمة يعتبر من أهم مفاتيح أسرار هذه القصة السماوية. فنجد في سورة البيّنة ما يشير إلى بعض معانيها، قال تعالى **(لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ . رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ . وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ)**[1-4]، فيتضح أن من معانيها هو **(رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ)**.

إذن فصالح(ع) هو رسول مقدس، كما أكد ذلك قوله تعالى في مقام آخر **(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)**[2]. إذن، فهو يعلن عن نزول شريعة سماوية بكتاب جديد، لأن من مقومات الرسول هما الكتاب والشريعة.

أما إذا التفتنا إلى معنى كلمة **(جَاءَتْكُمْ)**، وأخذناها كما هي بصيغة الزمن الماضي، فقد تعني أنه قد سبق وظهر على قوم ثمود شريعة سماوية قبل ظهور النبي صالح(ع). وهذا ليس بأمر جديد على الله أن يظهر رسول بين أمة لها رسول سابق، فقد عاد وكرر ذلك بظهور السيد المسيح(ع) بين أمة اليهود. وفي هذه الحالة قد يكون قوم ثمود من أصحاب الكتاب السابقين، والنبي صالح(ع) هو رسول آخر يظهر بينهم. وأغلب الظن أنها فكرة صحيحة، بدليل كلمة **(رَبِّكُمْ)**، فلو كانوا لا يؤمنون بالله، لما استعملت هذه الكلمة،

لأنهم في هذه الحالة يكونون ممن لا يعبدون أو لا يعرفون رباً لهم، وبهذا لا تصح طريقة المخاطبة.

لهذا سنحاول اكتشاف ما إذا كان قوم ثمود أصحاب كتاب سابق قبل ظهور النبي صالح(ع)، أم كانوا قوما ملحدين، وذلك من خلال تسلسل آيات هذه القصة القديمة.

(هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً)، نلاحظ أن النبي صالح وبعد إعلانه عن نفسه بأنه رسول من عند الله وأن معه كتاب، عاد فقال **(هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ)**، وبهذا نتساءل: هل هي إشارة إلى ناقته (دابته) أم إلى شريعته؟ وأغلب الظن إنها إشارة إلى شريعته. فطالما ابتدأ الكلام في هذه الآيات المباركة بتعريف نفسه وشريعته وكتابه، لذا فمن الأرجح أنه يتكلم عن الشريعة والبيّنة وليس عن دابة الناقة. أو قد يكون هذا مثالا يستعمله سبحانه وتعالى لتشابه الغايتين من الناقة والشريعة، فالناقة وسيلة قديمة لنقل الناس من مكان إلى آخر، والشريعة وسيلة لنقل الناس من أرض دين إلى أرض دين أخرى. والناقة تحقق أهدافا مادية، والشريعة تحقق أهدافا روحانية. ومع ذلك سيتضح فيما بعد أي المعنيين هو المقصود.

ثم نقف عند كلمة **(آيَةً)**، وهنا نجد لها معنيين أيضا، فقد تعني: الآيات المكوَّنة من الكلمات والجمل المنزلة في الكتب السماوية. وقد تعني: معجزة خارقة لقوانين الطبيعة. فأي المعنيين أراد بها رب العباد؟

(هَـذِهِ نَاقَـةُ اللَّهِ لَكُـمْ آيَـةً فَـذَرُوهَا تَأْكُـلْ فِـي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّـوهَا بِسُـوءٍ فَيَأْخُـذَكُمْ عَـذَابٌ أَلِـيمٌ][3]، هنا قد يبدو الكلام وهو يشير في أول وهلة إلى دابة الناقة باعتبار أن عملية الأكل خاصة بالمخلوقات. لكننا عندما نعلم أن لكلمة الطعام معنيين، الأول مادي والثاني روحاني، نحتار فيما أراده رب العباد، هل يتكلم عن دابة الناقة أم عن البيّنة والشريعة؟

فإذا تذكرنا قوله تعالى **(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)**[4]، نلمح قبساً من المعنى الروحاني، فهنا استعملت كلمة الزاد على أنها طعام الأيمان والتقوى وليس الطعام المادي من أكل وشراب. وإذا تذكرنا قول سيدنا يوسف(ع) للسجينين في قوله تعالى **(قَـالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)**[5]، وعلمنا أن الأكل والطعام المادي لا يؤول ولا يفسر، أدركنا أنه يتكلم عن الطعام الروحاني، أي الآيات الإلهية، بدليل أنه يقول **(ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي)**، هذا بالإضافة إلى أن هذه الآية الكريمة، تتكلم عن الأيمان والكفر والآخرة وليس عن غذاء البطون. أما إذا تذكرنا قوله الكريم على لسان سيدنا المسيح(ع) **(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ)**[6]، فنجد ما يؤيد المعنى الروحاني، حيث قال **(تَكُونُ لَنَا عِيدًا)** ولم يقل: تكون

لنا غذاء أو طعاما أو شبعاً. كما أنه قال **(لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا)** ولم يقل: لنا أو لمجموعتنا. وقد يعني هذا من بداية وقت أيمان الناس بدين المسيحية وتأسيسهم أمة النصارى، حتى زمن ظهور الرسول محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، حينما سيعلن ختم رسالة السيد المسيح(ع) بظهور دين الإسلام الآخر.

إذن قد يكون الكلام عن الطعام الروحاني وليس عن طعام اللحوم والخضروات. ومع ذلك لنستمر ونرى.

لكن ماذا عن معنى العبارة الكريمة **(أَرْضِ اللَّهِ)**، ألا تدل على أنها هذه الأرض الترابية؟ فنعود لنستدل بكتاب الله الكريم، فهو خير ما يستدل به. قال وقوله الحق في مجموعة من آياته الكريمة، نأتي عليها بالتسلسل:

1- **(قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ)**[7]، هذه شهادة أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم(ع)، يشهد أنه قد رأى كيف فطر الله السماوات والأرض. وهذا أمر غير معقول حسب التسلسل الزماني، إذ أنه ولد وعاش بعد ذلك الحدث العظيم من خلق الكون بقرون وأزمنة عديدة، وبذلك لا يمكن أن يكون من الشاهدين على خلق الأرض والسماء ولا يمكن أن تعقل شهادته. لذلك لابد أن تكون لشهادته معاني أخرى. فإذا أخذنا معنى كلمة الأرض على أنها أرض قلوب المؤمنين وأرض عقول العباد وأرض بصائرهم، هنا نجد بعض التطابق مع

مفهوم الآية الكريمة ومع شهادته، فلقد شاهد سيدنا إبراهيم(ع) بالفعل وبالحق، كيف فطر سبحانه وتعالى أراضي قلوب وعقول وبصائر الناس والعباد وبذر فيها بذور الأيمان ثم أنبت فيها أثمار الأعمال الصالحة وفواكه الإيقان، وكيف رعاها بعين عنايته وبأيدي المؤمنين وبتوجيهات رسله وأنبيائه. والأكثر من ذلك، أن سيدنا إبراهيم(ع) كان قد ساهم بنفسه في هذا العمل الجليل المقدس مثلما ساهم غيره من بقية الأنبياء والمرسلين، وفطر سماء الشريعة السابقة لشريعته وكشط مفاهيمها العتيقة من سماوات عقول أتباعها، ومدَّ وبسط سماء دين جديد بدلها، ونثر فيها مختلف أشكال نجوم الأحكام وكواكب النواهي. وبهذه الطريقة وهذا المنظار، تصح شهادته الكريمة أمام الله وأمام الناس.

2- ومما يؤيد هذا المعنى أيضا، قوله تعالى **(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)**[8]، فمن المؤكد أن الله سبحانه وتعالى لم يعط مثل هذه الفرصة لأحد من عباده حتى يرى خلق السماوات بنجومها وكواكبها أو خلق هذه الأرض الترابية، ولا حتى لسيدنا إبراهيم(ع)، ولم يسبق أن أشهد أحداً من الناس كيفية خلقه وتكوين جسده وبعث الروح فيه. ولا حاجة هنا لذكر وتأكيد هذه المعلومة، فالكل يعرفها ومتأكد منها، إذ لم يسبق لأحد من البشر أن شاهد خلق السماوات ولا خلق الأرض ولا خلق نفسه.

لكن المقصد الكريم أن الله سبحانه وتعالى لم يُشهد الكافرين ولا المضلين بل ولم يمكِّنهم من مشاهدة كيفية خلق أراضي الأيمان في قلوب الناس وعقولهم رغم أنهم يعيشون معهم، لأنهم لم يكونوا منهم ولم ينخرطوا بين صفوفهم. فمثل هذا الخلق الروحاني الرباني، لا يسأل الكافرين أو المضلين عن رأيهم به ولا تقبل مشاركتهم فيه، بل يستعان بأيدي وسواعد وأعضاد المؤمنين والصالحين، وتطلب مشاركة صفوف جيوش الموقنين والأتقياء في بناء سماوات أديان الله وأراضي الأيمان في قلوب العباد من خلال النشر والتبليغ وطرق التعامل الحسنة، فهم القائمون على تنفيذ هذا العمل الجليل المقدس وليس غيرهم.

3- وعندما نقرأ أيضا قوله تعالى **(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ)**[9]، نتعجب لهذا التساؤل الإلهي! لأنه من المستحيل على الكافرين أن يكونوا قد شاهدوا فتق السماوات والأرض أو رتقهما كما تقول به هذه الآية الكريمة، فهذا أمر محال سبق وشهد سبحانه وتعالى بذلك في الآية السابقة. فكيف يمكن التوفيق بين المعنيين؟ لكن إذا قلنا أن من بين المعاني أنه سبحانه وتعالى يشبّه شرائعه بالسماوات لسعتها وكبرها ولضمّها وجمعها تحت سرادقها وخيمتها أعدادا كبيرة من أقوام خلقه من المؤمنين، وأن سماوات هذه الشرائع الإلهية كانت لها على الدوام أرض أيمان

وأرض إيقان في قلوب وعقول عباده المؤمنين، وكان سبحانه وتعالى في كل مرة عندما ينسخ شريعة سابقة ويأمر بنزول شريعة لاحقة، يفتق ويفرّق ويفصل بين سماء شريعتها وأرض أيمانها ويمسحهما ويزيلهما معاً. وبهذا يكون من المؤكد أن الكافرون من الذين لا يؤمنون ولا يعلمون ولا يشاهدون هذا الحدث الروحاني العظيم عاجزون عن مشاهدة فصل أرض الأيمان عن سماء شريعتها في كل زمان ومكان.

4- وكذلك لنأخذ قوله الكريم **(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمْ الْغَالِبُونَ)**[10]، فهذه الآية الكريمة تقول: أن الناس أو الكافرين منهم، قد شاهدوا من قبل كيف ينقص سبحانه وتعالى الأرض ويقلل من مساحتها! والحال أنه لم يشهد أحد ذلك، فالأرض ثابتة الكتلة لا تتغير. لكن المعنى الروحاني الآخر، هو: أن الكافرون بالتأكيد قد شاهدوا وبأم أعينهم كيف تنقص مساحة أرض الأيمان في قلوبهم وقلوب أمم أصحاب الكتاب، وكيف تنقص وتتقلص مساحات أراضي أممهم، حالما يأمر سبحانه وتعالى بنسخ كتابهم وفتق سماء شريعتهم وكشطها.

5- **(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)**[11]، وفي هذه الآية الكريمة نستغرب من وصف الكافرين بعدم العلم **(لا يَعْلَمُونَ)** بعدما قدموا

الجواب الصحيح **(الله)!** لكننا عندما نعلم أن جوهر السؤال كان عن سماوات الشرائع وعن أرض الأيمان، وليس عن هذه السماء الظاهرة وهذه الأرض الترابية. نفهم لماذا أخطئوا ولماذا هم لا يعلمون. فلقد ظنوا أن مغزى السؤال عن هذه السماوات وعن هذه الأرض الترابية وليس عن غيرها.

من هذا يتضح أن هناك معاني روحانية لكلمة الأرض في كتاب الله أيضا، مثلما لها معان مادية، فمنها: أرض القلوب وأرض البصائر وأرض الأيمان وأرض التقوى وأرض الشريعة.. وغير ذلك من المعاني الروحانية العجيبة. وكما نتفق جميعا أن لا حدود ولا نهاية لكلام الله، كما أكد على ذلك قوله الكريم **(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)**[12]، كذلك لابد أن نعلم أن لا حدود ولا نهاية لمعانيها في قرآنه الكريم.

وبهذا يكون من معاني بقية الآية الكريمة: أي فاتركوا ناقة شريعة الله تقتات من أراضي قلوب من يشاء الأيمان بها من البشر، ودعوها تنثر بذور الأيمان والإيقان في أراضي قلوب العباد لتساعدهم على الانتقال من جحيم نار أرض الكفر إلى جنة أرض الأيمان المباركة، حتى يخرج من أرضها الخصبة أشجار الأعمال الصالحة وثمار العلوم المفيدة، ولا تعارضوا حكم الله ولا تحاربوا أتباعها، لأن من يفعل ذلك، يستجلب غضب الله عليه.

* * *

ثم نقرأ قوله تعالى: **(وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)**[13]، يؤكد فحوى هذه الآية المباركة، أن قوم ثمود ظهروا بعد قوم عاد، وكان لهم شريعة سابقة ورسول سابق قبل ظهور النبي صالح(ع) بينهم، فالتذكير بأمر من الأمور، يعني العودة بالفكر إلى الماضي وتذكّر أحداثه، لذلك جاء استعمال كلمة **(وَاذْكُرُوا)** لتشير إلى سابق عهدهم باستخلاف الأرض. وبما أننا علمنا أن من معاني استخلاف الأرض، هو استخلاف أرض الأيمان والدين، كما أيّد ذلك قال تعالى **(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)**[14].

إذن، فالآية الكريمة مورد البحث، تشير إلى أنه سبق وكانت أمة ثمود متسلطة في الأرض وكان لها حضارة بعد أمة عاد أصحاب هود(ع)، بسبب أيمانها بدين سابق لظهور النبي صالح عليهم، وأنهم وصلوا إلى مستوى حضاري عال استطاعوا فيه بناء قصور عالية في السهول ونحتوا بيوتا لهم في صخور الجبال. وهذا يعني أيضاً أنهم كانوا ما يزالون يعيشون في زمن النبي صالح في

مستوى اجتماعي دان وحضارة آيلة إلى الزوال، لأنه يذكّرهم بما سبق وحصلوا عليه من عز ورخاء وحضارة بعدما آمنوا برسولهم السابق، ويحذرهم من استمرار فسادهم في الأرض، أي من معصية الله والكفر برسالته.

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)[15]. وكما حدث ويحدث في زمن ظهور كل نبي أو رسول، قام المستكبرون ورؤساء القوم على النبي صالح(ع) ليعاندوه ويستنكروا عليه هذا المقام الإلهي الرفيع ويحثوا أتباعهم على معارضته والكفر بدعوته، وراحوا يسألون من آمن بدعوته من العبيد والفقراء والمساكين من قومهم: كيف علمتم وتأكدتم من صحة دعوة صالح(ع) وأحقيتها، وأنتم جهلة أميون لا تقرئون ولا تكتبون، وليس لكم نصيب من علوم الأولين؟ فكان جواب المؤمنون: أنهم استدلوا على ذلك بقوة الله وهديه واستعانوا بنورانية قلوبهم وصفاء سريرتهم، وبوجود هيكل صالح المقدس بينهم وسيرته وأخلاقه الحسنة.

ومن الملفت للنظر ما جاء من تباين بين مفهوم سؤال المعرضين وبين جواب المؤمنين، فسؤال المعرضين يرتكّز على العلم والمعرفة **(أَتَعْلَمُونَ)**، بينما جاء جواب المؤمنين ليشير إلى الهدي والهدى والإيمان **(مُؤْمِنُونَ)**، وهذه نقطة جوهرية مهمة، فلقد كان الأيمان برسل الله وأديانهم على الدوام، لا يرتكز على العلوم

والمعارف الدنيوية المكتسبة، بل على المنح الربانية والصفات الإنسانية الراقية، كالإنصاف وصفاء القلب ونورانية السريرة وطهارة الضمير وصدق الأيمان ومناصرة للحق وما يتمتع به الإنسان من إقدام وشجاعة أدبية ذاتية، كما قال تعالى **(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)**[16]. وكذلك قوله الكريم **(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ . إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)**[17].

وهذه الآية الكريمة، تفتح آفاقا واسعة لمعرفة الفرق بين صفة العلم وصفة الأيمان. فالعلم أمر متعلق بالعقل والتفكير، بينما يتعلق الأيمان بالقلب والروح والفؤاد. وهذا ما يفسر الصعوبة البالغة التي يعانيها الإنسان في نفسه وضميره عندما يشاء تغيير دينه وعقيدته مهما كان مستواه العلمي عاليا، لأنه يتعامل ساعتها مع جوهر حقيقته وصميم روحه وجذور ضميره وأيمانه التي لا تتفق معها معاييره العلمية المكتسبة. لذلك فهو يحتاج إلى قوة روحانية عالية جدا لتحقيق هذا الهدف وهذا التحول، ولا يجد هذه القوة العظيمة إلا في قوة الأيمان المنبعثة من دينه السابق. لذلك عليه أن يتخذ أيمانه متاعاً له وسفينة لعبور برزخ الاضطراب وخندق الاهتزاز وبحر القلق والتذبذب، حتى ينتقل من ماء بحر الشريعة السابقة المالح الأجاج إلى ماء بحر الشريعة التالية الفرات الزلال، وقد يكون هذا هو معنى ما تشير إليه الآية الكريمة التالية في بعض مقاصدها **(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)**[18].

بينما يكون الأمر أكثر سهولة ويسرا في حالة التعامل مع العقل والأفكار والعلوم والمعارف الدنيوية، فمن الممكن أن يقتنع أصحاب الأفكار أو النظريات العلمية مع بعض الجهد في النقاش أو من خلال قراءة كتاب، فيغيروا آرائهم وينتقلوا بأفكارهم من نظرية إلى أخرى أو من مبادئ حزب إلى مبادئ حزب آخر.

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)[19]، يعود المستكبرون والرؤساء الرجعيون، ليردوا على أتباع صالح(ع) ويقولون لهم بتعجب: أنهم ورغم كل ما يتمتعون به من علوم ومعارف ومكانة اجتماعية عالية بين قومهم، لم يستطيعوا اكتشاف أية علامة أو إشارة واضحة في كتبهم أو آثارهم على ظهور رسول أو نبي جديد بينهم؛ واستناداً إلى ذلك، قرروا تكذيب دعوة صالح وعدم الإيمان بها.

يذكّرنا هذا الموقف المتعصب بالآية الكريمة الأخرى **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)**[20]، حيث أن سيّد المرسلين محمد، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، قد أحيا أرواح الناس بالأيمان مثلما فعلت جميع رسل الله من قبل . وبهذا نتذكر معجزة سيدنا المسيح(ع) في إحياء الموتى، ونفهم في نفس الوقت أن هذا الإحياء والخلق الروحاني لم يقتصر على سيدنا المسيح(ع) خاصة بل قام به جميع رسل الله من قبل . فإذا علمنا أن العلم والمعرفة هما من أكبر السدود وأعظم

العوائق أمام تجدد أيمان الناس في أزمان رسلهم. نفهم لماذا يعرض كبار رجالات القوم عن دعوات الرسل والأنبياء بينما يقبل إلى الإيمان عامة الناس. فالعلماء والمهتمون بشؤون العلم والمعرفة يبحثون عن الإثباتات العقلية والأدلة والنصوص النقلية وما يقنع عقولهم بصحة وأحقية رسالات الرسل، كل حسب مستوياتهم الذهنية، ناسين أن المتكلم هو رب العقل وخالقه، وأنه لا مجال للنسبة أو المقارنة بين الطرفين، فهذا خالق وهذا مخلوق، وهذا صانع وهذا مصنوع، وهذا موجد وهذا موجود.. لذلك نراهم المبادرين على الدوام بالإعراض والاعتراض والصد والنكران عند ظهور كل رسالة عليهم، فهم يستشيرون عقولهم قبل أرواحهم. وهذا ما يفسر شأن ومقام أوائل المؤمنين والصحابة الكرام والسابقين المناصرين لأديان الله، إذ يكون غالبيتهم من طبقات العبيد والفقراء والضعفاء، ومن الأراذل والأميين وبسطاء الناس كما يطلق عليهم المستكبرون من صفات.

فعلى سبيل المثال، كان أول المؤمنين بدين سيدنا محمد(ص) من فئة العبيد والضعفاء، كما يشهد التاريخ بذلك، وكما قال تعالى **(قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ)**[21]، وكان غالبية حواريو السيد المسيح(ع) من الأميين والجهلة وصيادي الأسماك، وكذلك هو حال من آمنوا بدعوة سيدنا موسى(ع) من بني إسرائيل، فلقد كانوا عبيدا أقنان ومستضعفين في الأرض تحت سلطة فرعون

الغاشمة، كما قال تعالى **(فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)**[22].

(فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)[23]، وبهذا الاعتراض عن الأيمان بدعوة صالح(ع)، راح المعاندون يعترضون عليه ويكذبونه ويشوهون سمعة شريعته ويقولون بعدم اتفاقها مع أحوال مجتمعاتهم ويقعدون في كل طريق ومرصد ليصدوا الناس عن الإيمان بها وينشرون الأكاذيب والافتراءات عنها ويحاولون إعادة كل من آمن بها من قومهم إلى دينه السابق، ويتحدّونه أن ينزل العقاب بهم كما يعدهم، لأنهم كانوا ينظرون إلى كثرة أعدادهم وسعة أرضهم وقوة حضارتهم ومدى انتشار دينهم بين الناس.

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)[24]، إذا علمنا أن من معاني **(الرَّجْفَةُ)** هي يوم القيامة ويوم الحساب، نتساءل: لماذا عاقب الله قوم ثمود على كفرهم، ولم يعاقب بقية الأقوام الكافرة من بعدهم؟ ولماذا قامت قيامتهم على الخصوص، والقيامة العامة الموعود بها جميع البشر لم تقم حتى الآن؟ إذن لابد أن يكون هناك معنى آخر لما ورد في هذه الآية الكريمة، خاصة إذا تذكرنا، كم من الأمم الكافرة ما زالت تعيش معنا في هذه الأيام وهي غير مؤمنة بدين سيد المرسلين وحبيب الله والمصطفى المختار، بل ولا

تدين بدين سماوي من عند الله. إذن ما الفرق بين كفر هذه الأمم وبين كفر تلك الأمم؟ وهل أن الكفر بدين سيدنا صالح(ع) كان أكبر إثماً وأشد ضلالة من مخالفة سيد المرسلين محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام؟

فإذا نظرنا إلى كلمة **(جَاثِمِينَ)**، ندرك أن من معانيها الجلوس والبقاء وعدم الحركة، فلماذا لم يستعمل جل جلاله، كلمة أخرى أكثر دقة للإشارة إلى موت وفناء واختفاء قوم ثمود، خاصة إذا نظرنا إلى كلمة **(دَارِهِمْ)** ولم يقل قبورهم أو لحودهم، ألا يمكن أن يعني ذلك بقائهم في مساكنهم وبيوتهم ودورهم دون تغيير؟ فالقرآن الكريم يعتبر حجة في البلاغة واللغة، كما قال تعالى **(قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**[25].

نعود إلى كلمة **(الرَّجْفَةُ)** أو القيامة أو الساعة، ونتساءل: كيف قامت قيامة قوم ثمود وحوسبوا، والقيامة الموعودة لم تقم بعد؟

لا نستعين في هذه المعضلة الخطيرة والمسألة الدقيقة بغير كتاب الله، فنقرأ قوله الكريم **(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)**[26]، هنا نجد أن الله تعالى يعد سيدنا المسيح(ع) برفعة أمته وعلو شأنها فوق أمم الكافرين إلى موعد محدد، وهو **(يَوْمِ الْقِيَامَةِ)**. وبما أن هذه الآية الكريمة تشير إلى حدث قد تم

ومضى زمانه فعلا، وظهرت أمة النصارى وسمت وارتفعت فوق غيرها من الأمم لقرون عديدة، عندما كان أباطرة المسيحيين وملوك النصارى ومن خلفهم البابوات وكل من دان بدين المسيحية يساندوهم ويؤيدوهم ليشنّوا الحملات الصليبية ويجيّشوا جيوش الحرب على غيرهم من الأمم ليدخلوها في دين أمتهم.

فبحصول كل تلك الأحداث التاريخية السابقة، يكون وعد الله لأمة السيد المسيح(ع)، قد تمَّ وتحقق. ولكن بجزئه الأول. وعندما نقرأ أن أمة المسلمين بعدما ظهرت، راحت تتوسع أرضها وبطاحها وامتدت بعيدا حتى شملت كثير من أقاليم أمة النصارى كما حدث في أرض الشام ومصر وفي الأندلس وشرق أوربا. هنا نتوقف عند هذه النقطة، ونتساءل عن نتيجة ومصير وعد الله لأمة النصارى في البقاء في علو وسؤدد حتى مجيء يوم القيامة؟ إذ أن هذا اليوم المشهور لم يأت بعلاماته المعروفة للجميع، والنصارى لم يستمروا في علوهم وسموهم، بل ظهر رسول جديد على الناس، هو محمد المصطفى المختار عليه أفضل الصلاة والسلام، فأسس أمة جديدة نشرت شريعة الإسلام بين الناس امتدت ثغورها إلى أقاصي الأرض واستولت على كثير من أراضي النصارى وممالكهم! فكيف يفسر ذلك، وأين وعد الله لهم، خاصة وأن هذا الوعد الإلهي قد نزل في القرآن الكريم، ولم ينزل في كتاب الإنجيل؟

من تحقق كل تلك الأحداث الدينية والتاريخية الجسام، ندرك أنه من الممكن أن يكون لمعنى يوم القيامة والساعة والرجفة في الآية الكريمة، معنيين اثنين، الأول خاص محدد، والثاني عام شامل. وبذلك تكون قيامة أمة النصارى التي وعدهم بها رب العباد، هي القيامة الخاصة المحددة بحدود الزمن، بدليل مجيء أمة مؤمنة أخرى بعدهم أنجزت بظهورها وحققت بمجيئها وعد الله عليهم، وأنهت بقيامها ووجودها وعد الله لهم. وبهذا فقيامة شريعة الإسلام وقيامة سيد المرسلين وقيامة أمة الإسلام وقيامة نزول كتاب القرآن الكريم، كانت هي حقيقة نهاية موعد الوعد الإلهي المحدد الخاص بأمة النصارى. وكانت هي قيامتهم الخاصة وقيامتهم الصغرى. وبهذا يتحقق الوعد الإلهي في كتابه الكريم بانتهاء رفعتهم وسموهم إلى يوم قيامة شريعة الإسلام.

من هذا قد يكون أن قوم ثمود قد قامت قيامتهم الصغرى وحلَّ موعد ساعتهم المحدودة، فور صدّهم وكفرهم بدعوة رسولهم صالح(ع)، كما حدث فيما بعد مع أمة النصارى. ومنذ تلك الساعة بدأ نجم أسمهم يأفل وشمس شريعتهم تغرب وقوة حضارتهم تختفي وسعة بحر علومهم ينحسر. ورويدا رويدا اختفى ذكرهم ورسمهم ورمزهم من تاريخ البشرية وذابوا بين أجيال بقية شعوب الأرض، ولم تبتلعهم الأرض بين طبقاتها ولم يحترقوا بنيران الشهب والنيازك، بل بقوا يعيشون في دورهم ومنازلهم على الأرض حتى ذابت أمتهم

بين بقية الأمم بعد أن انحسرت عنهم رحمة الله وبركاته وتأييده، كما قال تعالى في شأن فريقي الأيمان والكفر **(كُلا نُمِدُّ هَـؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)**[27].

(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)[28]، ومما يثبت أن قوم ثمود لم يموتوا موتاً جسدياً ولم يختفوا عن وجه الأرض بعدما أصابتهم الرجفة وبعدما أصبحوا جاثمين في الأرض، ما تقول به هذه الآية الكريمة التي تكمل ما سبقها؛ فهي توضح أن النبي صالح(ع) ابتعد ونأى عن قومه وشرع في عتابهم. ولو كان قد حصل ما تنبأت به الآية السابقة من عقاب جسدي بشكل مادي، لما تمكن من معاتبتهم وإخبارهم بتمام عمله وما أمره الله به، لأنهم يكونون قد ماتوا وانتهى أمرهم، وبذلك لا يستطيع مخاطبتهم وعتابهم، بل ولجاء تسلسل مكان هذه الآية الكريمة قبل سابقتها لتتفق مع توالي الأحداث، فالعتاب لابد أن يسبق الموت حتى تتضح الحجة ويثبت الدليل. وما هذا الحديث والعتاب الإلهي، إلا دليل على موتهم موتاً روحياً إيمانيا وليس موتاً جسديا. أما الدليل الحيّ الآخر على ذلك، فهو ما نشاهده اليوم من أمم عديدة تدين وتعتقد بمعتقدات قديمة بالية أو سخيفة أو كافرة، فلو كان الأمر كما يصوره ظاهر الآية من موت وهلاك كل أمة بعد كفرها، لما بقي هؤلاء اللاحقين على

وجه الأرض حتى اليوم، ولكان من الأولى أن يموت ويفنى كل من كذّب وكفر ولم يؤمن بدين سيد المرسلين والمصطفى المختار.

وجاء في سورة هود بخصوص ناقة صالح(ع)، قوله تعالى **(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)**[29]. تعود هذه الآية الكريمة لتؤكد ما جئنا عليه، فصالح(ع) يذكّر قومه بالأيام الخوالي، وكيف رفعهم الله بعد أيمانهم بدينهم السابق من مستوى دان رخيص إلى أمة ذات حضارة وقوة ورجال، وكيف سيطروا على بقية الأمم المختلفة واستعمروا أراضيهم وانتصروا عليهم وعلى كل من وقف في سبيل نشر ديانتهم، وكيف جمعوا الناس على عبادة الله الواحد؛ فالنبي صالح ينصح قومه ويطلب منهم استغفار الله. باعتبارهم مؤمنين موحدين قائمين على عبادة الله بالفعل. وينصحهم بالتوبة والعودة إلى الدين الحق. ومما يؤكد هذا المعنى، أي أن قوم ثمود كانوا من الموحدين، قوله تعالى في إشارته إلى أن جميع البشر دون استثناء، يعبدونه ولا يعبدون رباً سواه **(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)**[30]، وكذلك تأكيده تعالى أنه ما ترك أمة من الأمم إلا وبعث فيها نبيّاً نذيراً **(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ)**[31]، وأن ما من رسول إلا وحقق

الله هدفه وآمن الناس بدعوته **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ)**[32].

أما لو كان قوم ثمود كافرين بالله أو ملحدين غير مؤمنين، ولم يسبق لهم الإيمان بدين سماوي، فلا يمكن أن يطالبهم النبي صالح(ع) باستغفار الله والتوبة إليه وهم لا يعرفونه ولا يؤمنون به. فنصيحته لهم بالتوبة دليل على أنهم كانوا قوماً موحدين، ثم ابتعدوا عن صراط الله الحق المستقيم بالتدريج.

أما الإشارة في أن الله قريب مجيب لدعوة الداعي إذا دعاه، فتشير إلى أن رحمة الله موجودة بالفعل وعلى الدوام ولم تنقطع لحظة واحدة عن البشر، كما قال تعالى **(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)**[33]، فالنبي صالح(ع) يحاول أن يفهم قومه أن رحمة الله قد نزلت عليهم بالفعل، وهي الآن على شكل شريعة سماوية، وهي قريبة جدا منهم وبينهم، وان الله استجاب لدعائهم وتوسلهم واستغفارهم وأنزل عليهم رحمته اليوم، وهي ظهوره بينهم ونزول شريعته إليهم، ليكشف عنهم ما أصابهم من كرب وما نزل بهم من غمة وما انتشر بينهم من فساد وكفر، لأنهم كانوا ما يزالون ساعتها آخر جيل من مؤمني الأمة السابقة صاحبة الكتاب، وهو يحاول أن يفهمهم أنهم وبمجرد اتخاذهم قرارهم النهائي بالصدّ عن شريعته، فرادى أو جماعات، وبمجرد أن يعلن لهم إتمام حجته عليهم . كما أعلن سيد المرسلين بذات الإعلان فيما بعد عند ظهوره

بين قومه من العرب المشركين في قوله تعالى **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِينًا)**[34]، . عندها ستدخل أمة ثمود في زمرة الكافرين عند الله، ومنذ تلك اللحظة وتلك الساعة ستحجب عنهم رحمة الله ولا يستجاب لدعائهم، كما قال تعالى **(قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ)**[35].

هذا إضافة إلى أن الآية الكريمة مورد البحث (61 هود) توضح بشكل من الأشكال على وجود علاقة قوية بين ظهور أديان الله والأيمان بها من جهة، وبين ظهور الحضارات الإنسانية على الأرض من جهة أخرى. والعكس صحيح أيضا. فعندما ترفض وتعترض أمة من الأمم على دعوة رسول من عند الله، يكون هذا مؤشر على بدء زمن تدهور اسمها وعزتها وحضارتها. وسنأتي على هذا الموضوع الخطير لاحقاً وبإيجاز.

(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)[36]. تشير الآية الكريمة إلى أن النبي صالح(ع) كان معروفا بين قومه بالأخلاق الحسنة والصفات الطيبة والمزايا الحميدة، شأنه شأن أخلاق وصفات جميع الرسل والأنبياء الكرام، لكن قومه وحالما أعلن دعوته الغريبة الجديدة غير المتوقعة بينهم، راحوا يستنكرون عليه هذا التغيير المفاجئ في أقواله وتصرفاته ومطالبتهم بعبادة الله

سبحانه وتعالى، لأنهم كانوا بالفعل على دين سماوي وكانوا يتبعون شريعة ربانية وكان لهم رسول وكتاب منزل، بدليل قوله تعالى **(أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)**. لذلك جاء اعتراضهم عليه، لأنهم لم ينتبهوا إلى مقصده الحقيقي عندما يطلب منهم ترك ما توارثوه عن آبائهم من تمجيد وتبجيل لدينهم وأحكامه والانتقال إلى دينه الجديد. فكان ردهم على دعوته الاستنكار والاعتراض والتكذيب، مع أنه كان يدعوهم إلى شريعة جديدة أهدى وأقوم من شريعتهم تزيد من أيمانهم وتكمله، كما قال تعالى **(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)**[37]، ويطالبهم بالهجرة مرة ثانية إلى الله، كما قال تعالى **(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)**[38].

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ)[39]. يعود النبي صالح(ع) ليوضح لقومه أنه قد اختير بأمر من الله لإعلان دعوته، ويطالبهم بفحصها وتدقيق آثارها والتبيّن من صحة آياتها، ويذكّرهم أنه لا خيار ولا قدرة للرسل والأنبياء المختارين أمام أمر الله، كما قال تعالى لسيد المرسلين **(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ)**[40]، لأن هذا هو طريق الفلاح والنجاح، وما غير ذلك إلا الخسران المبين.

(وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)[41]، لاحظنا أن موضوع النقاش بين النبي صالح(ع) وقومه يرتكز على إعلانه دعوة سماوية جديدة، وحثه الناس على الإيمان بالله الواحد الأحد من جديد؛ من هذا يبدو أنه يصف شريعته بالناقة، لما سبق وسقناه من أوجه التشابه فيما بين استخداماتها واستعمالاتها. لكن شتّان ما بين ظهور رسول جديد وإعلانه أمرا خطيرا كهذا، وبين طلبه إخلاء سبيل ناقة وتركها ترعى وتأكل من حيث تشاء، فلا علاقة روحية أو دينية واضحة بين الأمرين.

أما ما يلفت الانتباه في الآية الكريمة، فهو وصفها بـ **(نَاقَةُ اللَّهِ)**، والمقصود بالناقة هنا هي (شريعة الله) التي ستنقلهم من جنة دينهم القديم إلى جنة دينه الجديد، أو التي ستخلصهم وتنقلهم من أرض دين جفَّ ماء أيمانه وانقطعت ثمار أشجار أعماله الصالحة إلى أرض دين طيبة مليئة بفواكه الآيات الجديدة وثمار الحكمة والمعرفة الطازجة. وطالما ضربت آيات القرآن الكريم الأمثال لتقريب مثل هذه المفاهيم لأذهان العقلاء والحكماء من الناس، كما قال تعالى **(وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ)**[42]. فصالح(ع) يعود لينبه قومه أن رسالته سماوية من عند الله وفيها من الحجج والبراهين والدلائل ما يثبت ذلك، ويطالبهم بعدم الاعتراض عليها أو محاربتها وعقرها، وتركها تسري في

أراضي قلوب الناس لترتع في حقول عقول كل من يود الاستجابة لها، لأنه من المؤكد أن من سيعترض عليها ويحاربها، سيقع تحت طائلة عذاب الله وقهره. وهذا يثبت لنا أن رحمة الله سبحانه وتعالى تتكرر على عباده وتتجدد كلما تبدلت أحوال الناس وتطورت مجتمعاتهم، ولا تنزل عليهم إلا على شكل شرائع سماوية.

(فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ)[43]. من المهم جدا أن نبحث عن معنى (اليوم) في كتاب الله، فإذا قرأنا قوله تعالى **(يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)**[44]، فإذا قلنا أنه يشبه عمر شرائعه باليوم الواحد، فمثلما لليوم الزماني بداية ونهاية، ونهار وليل، ونور وظلمة. كذلك هو الحال بالنسبة لعمر الشريعة، إذ أن لها بداية يدبر لحظتها الله أمره فينزله للناس، ولها نهاية يعرج إليه أمره وينسخه مرة ثانية ليدبر للعباد أمراً غيره في ذات اللحظة، ولها زمن نور وقوة وانتشار، وزمن ظلام وضعف وانحسار.

إذن، فالآية الكريمة تريد أن تقول، إن قوم ثمود رفضوا الاستجابة لرجاء النبي صالح بالأيمان، ولم يقتنعوا بدلائله، وقاموا عليه وعلى أتباعه بالصد والنكران والمعارضة، لذلك جاء تحذيره وتنبؤه لهم بابتداء موعد زوال آثارهم وانحسار قوة حضارتهم منذ تلك اللحظة، وأكد لهم أن هذا وعد إلهي لا رجوع فيه، فقد انتهت

مدة تنبيههم ومسامحتهم، وبهذا سيستمرون على اسم دينهم لمدة ثلاث أيام شرائع تالية، ثم يختفي اسمهم واسم شريعتهم ويمحى من الأرض إلى الأبد.

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)[45]، ومنذ تلك الساعة، ووقتما انتهت مهلتهم للتحقق من صحة أمر الله في دين النبي صالح، بدأت حضارة قوم ثمود ومجدهم وقوتهم بالانحلال والزوال التدريجي واعتبروا عند الله قوم سوء أخسرين، حتى اختفى اسمهم وذكرهم من بين البشر. لأن الله غني عن عبادة خلقه، وأمره أقوى من أن يوقفه اعتراض الجاهلين. بينما راحت شريعة صالح(ع) الجديدة تنمو وتنتشر في قلوب الناس، ففاز برحمة الله وبركاته كل من آمن واستظل بوافر ظلها، ونجوا من عار الكفر وخزي التعصب.

(وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)[46]. وبهذا اختفى قوم ثمود وبادت حضارتهم بالتدريج والى الأبد، بسبب ارتفاع صوت الحق وصيحته، ونفخ النبي صالح(ع) في صور الأيمان وفي بوق الدين الجديد الذي كان إعلاناً عاما لبدء الموت الروحاني لكل من كفر بها، وحياة روحانية لكل من تقدم للإيمان بدعوتها.

* * *

ونعود لنقول أن حضارات البشر ترتبط ارتباطا وثيقا بظهور الديانات السماوية وانتهائها، فكل أمة تنتبه لخطورة وأهمية الإيمان بالشرائع السماوية التالية وتتقدم لتصديق رسل الله وتذعن لأمرهم، يبقى اسمها ويستمر ذكرها ويعلو شأنها وتحل عليها البركات والنعم ويرزقها الله من حيث لا تحتسب، حتى ولو تغير اسم دينها واسم رسولها وتبنت شريعة سماوية جديدة، فستبقى في حالة علو وسمو مستقطبة ما حولها من الأمم ليذوبوا في أمتها ويندمجوا في حضارتها لأنها تنفذ أمر الله وتخضع إليه. أما إذا ظهر منها وفيها جيل يغفل عن هذه الحقيقة ويستنكر ويجهل تأثير قوتها، عندها تبدأ عوامل الاندثار والانحلال تنخر في هيكل بناء مجتمعاتها، فتنتشر فيها عقائد الأوهام والأباطيل وتتدهور أخلاقها ويختفي أثر حضارتها تدريجيا والى الأبد.

ومن المؤسف أن نرى غالبية الأمم القديمة من أصحاب الكتاب قد غفلت عن هذه الحقيقة الفريدة، عندما رفضوا التجديد وابتعدوا عن التطوير وتشبثوا بقديم أديانهم وتمسكوا برجال دينهم وغالوا في محبة رسلهم وصدّوا وبعدوا عن كل رسول ظهر بعد رسولهم، لدرجة أنهم جزموا بانقطاع رحمة الله عن العباد، وكأنهم يظنون أن بأيمانهم بمن ظهر عليهم من جديد الرسل، سيخرجون من جنة الإيمان ويدخلون في نار جهنم غضب الله، وهذا ما حذر سبحانه وتعالى منه مراراً في كتابه العزيز.

لكن هذا الانحدار والاختفاء للحضارات الإنسانية، يستغرق وقتا أطول بكثير مما يستغرقه وقت علوّها وسموّها، لذلك يصعب على العلماء والمهتمين بالحضارات الإنسانية والباحثين عن حقائق ظهورها وأسباب زوالها، ملاحظة هذه النقاط المهمة واكتشاف حقيقة ما حدث لتلك الأمم الغابرة بشكل واضح، خاصة وهم يستعملون أدلة مادية في بحوثهم للعثور على آثار روحانية معنوية، وبعدما تتغير لغاتها وتتبدل أقوامها ولا يتبق من آثارها إلا بقايا مهلهلة وإشارات ضعيفة لا تعطي صورة واضحة لما جرى لها أو تكشف عن أسباب زوالها بشكل صريح. فشتان ما بين السبيلين. علاوة على وجود تأثيرات الزمان وعوامل التعرية الطبيعية ومرور آلاف السنين، فكم من أمة في مختلف أصقاع الأرض من أصحاب الكتاب لم يكلمنا القرآن الكريم عنها وعن أحوال حضاراتها وشؤونها، كما قال تعالى **(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)**[47]، وكم من دين وكم من رسول أو نبيّ لم يأت القرآن الكريم على ذكرهم أو ذكر أتباعهم، كما قال تعالى **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ**

الْمُبْطِلُونَ)[48]، وما سبب عدم ذكرهم بوضوح إلا لأن القرآن الكريم كتاب سماوي روحاني يشجّع الناس على الأيمان والهدى وعبادة الخالق وصالح الأعمال، وليس كتاب تاريخ شعوب أو جغرافية أقاليم، فهدفه الأول والأخير هو هداية الناس وتحذيرهم من مغبة الكفر وجريمة الإعراض التي وقعت فيها جميع أمم القبل، كما قال تعالى **(وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)**[49].

إلا أن القرآن الكريم لم يترك ذكر تلك الأمم تماما، بل بقي يشير إليها والى رسلها بشكل عام وبإشارات دقيقة ورموز لطيفة لتشابه أسباب اختفائها، خاصة من سكن منهم أرضاً قريبة من أرض العرب، كما في إشارته إلى أمة المجوس في إيران وتعيينه مكان ظهور نبيّهم أو رسولهم زرادشت قرب نهر آراس شمال غربها **(وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا)**[50]، وكذلك قوله الكريم **(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ)**[51]. وما الغاية الأخرى من هذا الأسلوب الإعجازي وإشاراته اللطيفة الدقيقة، إلا لإخفاء جوهرة الامتحان الحقيقية والتركيز على نقطة الغفلة التي مر بها أتباع جميع الديانات السماوية القديمة والتحذير منها. وبهذا القانون السماوي يمكن الاستنتاج أن غالبية تلك الأمم القديمة، إما كفروا بأول رسول ظهر عليهم، أو أنهم كفروا بالرسول الذي تلاه، ولم يسبق لأمة من تلك الأمم أن استمرت على تصديق سلسلة

رسل الله واحدا تلو الآخر دون انقطاع. وهذا هو سرّ خطأ الإنسان الأزلي، وهذا ما يفسر قوله الكريم **(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)**[52].

* * *

(كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ)[53]. لاحظنا أن قوم ثمود كانوا يدينون بدين سماوي قبل ظهور النبي صالح عليهم، وأنهم كانوا من الموحدين لله سبحانه وتعالى، وما مشكلتهم في زمن ظهور النبي صالح(ع)، إلا أنهم رفضوا تجديد دينهم كما أمرهم الله؛ من هنا نستغرب لقوله الكريم **(كَفَرُوا رَبَّهُمْ)**! فكيف يكونوا كفروا ربهم، وهم موحدون ويتبعون شريعة سماوية قديمة؟

فإذا تذكّرنا قوله الكريم في سورة يوسف الآية 41 **(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)**، ندرك أن الله سبحانه وتعالى يستعمل كلمة (رب) حسب استعمالها القديم بين الأمم السابقة، فلقد كان قدماء البشر يطلقونها على أنبيائهم وملوكهم وأمرائهم ورؤسائهم وكبار قومهم وسادتهم.. الخ. إذ ليس من المعقول أن يسقي هذا السجين ربه خمراً.

من هذا نفهم أنه سبحانه وتعالى يطلق هذه الكلمة (رب) على النبي صالح(ع)، فهو سفيره ورسوله وسيّد قوم ثمود وملك

ملوكهم وسبب أيمانهم، وبظهوره فصل بين المؤمنين والكافرين وحكم بينهم، فدخل كل من آمن بدعوته إلى جنان الله وخلده، وسيق الكافرون زمرا إلى نيران جهنم وبئس المصير.

وباختفاء آثار دين وحضارة قوم ثمود جرّاء كفرهم وتكذيبهم لرسالة نبيّهم صالح(ع)، اختفى ذكرهم من الأرض وكأنهم لم يكونوا من أصحاب الكتاب ولم تكن لهم قبل ذلك حضارة عظيمة. وبذلك لم يؤثر اختفائهم في استمرار رسالات الله وتجدد شرائعه، ولم تحزن عليهم أحد، لا سماء دينهم ولا سماء شريعتهم ولا أراضي الأيمان الطويلة الممتدة في قلوب الأمم وأجيالها، كما قال تعالى **(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ)**[54].

وجاء في سورة الإسراء بخصوص موضوع الناقة **(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفًا)**[55]. نعود مرة أخرى لمعنى كلمة **(بِالآيَاتِ)**، وعلينا أن نتذكّر أن لها معنيين، الأول هو الآيات الإلهية النازلة من سماء فضل الله المسطّرة في كتبه المقدسة، والثاني هي المعجزات المادية الخارقة لقوانين الطبيعة. فلو كانت هذه الآية الكريمة تشير إلى المفهوم الأول، أي أنها تعني آيات الكتب السماوية، فهذا أمر يخالف مجريات أحداث تواريخ الأديان، إذ بقيت آيات الله تنزل على رسل الله باستمرار منذ

زمن النبي صالح(ع) حتى زمن سيدنا محمد(ص)، كما قال تعالى **(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ)**[56].

لذلك فالآية الكريمة مورد البحث، تشير إلى المعنى الثاني، فهو أقرب إلى المنطق والعقل السليم، أي أن الآية الكريمة تتكلم عن المعجزات المادية وخوارق العادات، وتشير إلى أن الله سبحانه وتعالى ورسله الكرام، كانوا في ما مضى يجرون هذه المعجزات المخالفة لقوانين الطبيعة ويفعلونها عندما كان لها تأثير فعال ونتائج مرجوة تؤثر في قلوب الناس وعقولهم فيؤمن بشرائع الله الكثير منهم؛ إلا أن الله ورسله الكرام قد امتنعوا عن إجرائها فيما بعد مع تقدم الزمان وتغير أحوال الناس وتنوّر عقولهم، فلقد أصبح البشر لا يقتنعون بها ويطالبون بمستوى محدد من الأدلة العقلية والحجج العلمية. لذلك يبدو أنه ومنذ ظهور النبي صالح، توقف حصول المعجزات المادية واقتصرت الدعوات الإلهية على الأدلة العقلية والبراهين العلمية، أي أن البشرية دخلت مرحلة جديدة من مراحل الإقناع والمحاجة والمناقشة. وهذا يشير من ناحية أخرى إلى ابتداء توجيه الخطاب الإلهي إلى شريحة خاصة من المجتمعات، ألا وهي شريحة المختصين بأمور الدين ورجاله، باعتبارهم المطّلعون على هذه الأمور الروحانية والقادرون على تمييز آيات الله الحقة ومعرفة دلائلها العلمية والتاريخية.

وبالاختصار يبدو أن الآية الكريمة تتكلم عن مرحلتين من مراحل تطور عقول البشر. المرحلة الأولى عندما كان الخطاب الإلهي عاما لجميع الناس دون استثناء يرافقه إظهار المعجزات الخارقة لقوانين الطبيعة قبل ظهور النبي صالح. أما المرحلة الثانية بعد ظهور النبي صالح، فتحول الخطاب الإلهي فيها نحو عقلاء الناس وعلماء الأمم من المهتمين بشؤون الدين والروحانيات دون سواهم، أي رجال الدين، أي مخاطبة النخبة وإعطائهم فرصة لنشر أديان الله وتبليغها للناس. وهذا نوع من أنواع التكريم للإنسان، وهو مجال مفتوح لمن شاء منكم أن يستقيم، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم في قوله تعالى عندما يشيد ويثمّن دور رجال الدين **(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)**[57]، وكذلك قوله الكريم **(لَوْلا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمْ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمْ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)**[58]، وكذلك قوله الكريم **(وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ)**[59].

ويبدو أن هذا التحليل أقرب إلى الحقيقة بعض الشيء، فلو كان لهذه المعجزات المادية الطبيعية تأثير فعّال جازم على تغيير قلوب الناس حين حصولها بعدما ارتفع مستوى التفكير والإدراك، وأن باستطاعتها نقلهم من صحراء الكفر إلى جنان الأيمان والخشوع، لبطل مفعول الامتحان الإلهي ولما تبين المؤمن من

الكافر ولما اتضحت أسرار القلوب والسرائر في المرحلة التالية. فالله سبحانه وتعالى عالم بعلمه الغيبي مقدار تعصب الكافرين وغلظة قلوبهم واستحالة أيمانهم، كما قال تعالى فيما بعد بآلاف السنين عن لسانهم **(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إلا بَشَرًا رَسُولاً)**[60]. إذ لم يقبل الله تعالى أن يستجيب لمطالب الكافرين والمشركين ولم يجر أي معجزة مادية حسب قولهم وتركهم لأنفسهم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

لكنه ومثلما تغيرت طريقة امتحان الناس قبل آلاف السنين من حالة إجراء المعجزات المادية إلى طريقة تنزيل الحجج العقلية والنقلية، كذلك تغيرت في المقابل طريقة اعتراض البشر، فظهرت بينهم آفات مستعصية لا دواء لها، مثل التعصب والغلو وأمراض الصدّ والعناد، التي تبين فيما بعد أنها من أقوى السدود وأعلاها أمام تقدمهم للأيمان برسل الله، كما أشارت إلى ذلك الآيتين الكريمتين **(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)**[61]، وكذلك قوله الكريم **(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إلا كُفُورًا)**[62].

وبظهور سيّد المرسلين ومن قبله السيد المسيح عليهما الصلاة والسلام، تبين أن هذه الطريقة الإلهية تلاقي ذات المعارضة البشرية إن لم يكن أكثر من قبل، وظهر أن آيات القرآن الكريم بكل بلاغتها وفصاحتها وقوة معانيها وشدة تأثيراتها الروحانية والعلمية، لم تؤثر وقت نزولها كثيرا في قلوب عموم البشر، فلقد رفضها كبار رجالات العرب ورؤسائهم المشركين وفطاحل شعرائهم قبل غيرهم، بينما سارع المستضعفون وغير الأعراب للأيمان بدين سيّد المرسلين قبل غيرهم، أمثال بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي.. الخ.

إذن فهذه الآية الكريمة، تسلط قبساً من نور الحقيقة على تلك الفترة السحيقة المتغلغلة في أعماق التاريخ، لتكشف عما سبق وحصل من تغيّر نوعي في عقلية الناس ومفاهيمهم وطرق تفكيرهم، وعن مرحلة من مراحل تطور عقول البشرية قبل آلاف السنين، ولابد أن يكون قد صاحب ذلك تغيرات واضحة أدّت إلى تقدم أحوال مجتمعاتهم.

ومما يدلل على صحة هذه القول، ما جاءنا عن طريق القرآن الكريم من أخبار المعجزات الخارقة لقوانين الطبيعة التي أجراها سيدنا المسيح(ع)، حيث لم يمنع إجرائها وتنفيذها ما حصل له فيما بعد من عذاب واضطهاد، فلقد علّق على صليب العناد ورفع على أخشاب التعصب وثقبت أطرافه بمسامير الكفر، ولم يؤمن بدعوته

إلا ثلة من الرجال والنساء فقط. فلو كان للمعجزات المادية تأثير فعّال مؤثر في قلوب الناس وعقولهم في هذه المرحلة، لآمن بدعوته خلق كثير خلال حياته على الأرض، ولبقيت تلك الجموع من اليهود وغيرهم ممن آمنوا بدعوته موقنين ثابتين على أيمانهم به ولم يرتدّوا عن دعوته زرافات حال إلقاء القبض عليه، بعدما كانوا يتبعونه ويتبركون بأذيال ردائه حيثما ذهب ويتمنون منه خلاصهم من أمراضهم وعاهاتهم، ولنصروه ووقفوا إلى جانبه في وجه الكافرين والمشركين ومنعوا الأذى عنه، ولما تركوه وحيدا معلقا على صليب الكفر.

فنستنتج أن الناس لا يؤمنون بدعوات الرسل حال حصول مثل هذه المعجزات المخالفة لقوانين الطبيعة على يد رسل الله وأنبيائه أمام أعينهم، بل يؤمن بها دون رؤيتها من ولد منهم على اسم دين أجداده وورث دينه عن أبيه، وقرأ عنها في كتابه المقدس، وسمعها عن لسان رجال دينه وفهمها بشكلها الظاهري.

إذن، فالآية الكريمة تقول: لقد توقفنا عن إجراء المعجزات المادية الخارقة لقوانين الطبيعة، منذ أن راح الناس لا يصدقونها، فلقد باتت حججاً غير مقنعة ودلائل غير كافية، لذلك انتقلنا إلى مرحلة جديدة في التخاطب مع العباد، واختصصنا شريحة رجال الدين وعلمائه بأدلتنا الإلهية وحججنا الربانية لتتوافق مع تحسن أحوال الناس ومستوياتهم الذهنية، وجعلنا مسألة الأيمان والكفر

تعتمد على قوتي العقل والمنطق السليم والحجج النقلية، بل جعلنا ظهور الرسول ونزول الآيات هما الحجة الكافية بين الناس، فمن شاء منكم أن يؤمن ومن شاء منكم أن يكفر، كما قال تعالى **(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)**[63]. ولقد أظهرنا على قوم ثمود ناقة شريعة صالح(ع) وكان فيها من الآيات المحكمات والبشارات الربانية والأحكام السماوية والإنذارات الشديدة، ما يكفي لتنوير قلب وعقل وبصيرة كل من يتوجه لها بقلب صاف منير. لكن قوم ثمود راحوا يظلمون أنفسهم ونفوس غيرهم بالبعاد عنها والصد والكفر بها، لأن الغاية الحقيقية من إرسالنا وتنزيلنا لكل هذه الأمثال والقصص، ما هو إلا لتخويف الناس من الكفر وتحذيرهم من مخالفة أمر رب العباد، حتى يتقربوا إلى الله ويؤمنوا برسله، إذ لم يعد لخوارق العادات تأثير ملحوظ في إقناع الناس.

أما لماذا يشبّه سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم شريعة النبي صالح(ع) بالناقة، ولماذا يذكرها وقد أبطل استعمال المعجزات المادية، فأكثر الظن أنه يريد أن يترك أثراً ودليلاً واضحاً على وجود تلك العلاقة الوثيقة والرابطة القوية بين المرحلتين في قديم الزمان ويؤكد على وجودهما معاً، وبالتالي فهو يريد أن يبقي أثراً أو علامة على قدم تاريخ البشرية وعلى تلك الدورات الرسالية التي ضمّت كل واحدة منها مجموعة من الرسل والشرائع. وفي نفس الوقت، يستمر في تمجيد ذكرى من استجاب له ولرسالاته من

المؤمنين القدماء ويلقي قبسات نوره على أدوارهم العظيمة وكيف استمرت ولم تنقطع سلسلة المؤمنين على مر التاريخ البشري، فيكون ذكر تلك الأحداث مصداق لقوله تعالى **(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ)**[64]، وكذلك **(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)**[65].

أما ما ورد بهذا الخصوص في سورة الشعراء: **(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ)**[66]، فيبدو أن ما جئنا عليه احتوى شيء من الحقيقة، عندما قلنا أن الله سبحانه وتعالى قد أمهل أمة ثمود ثلاثة أيام، أي مدة ثلاثة أيام شرائع، أي مدة ثلاثة رسل، أي بحدود ثلاث ألف سنة حتى محيت آثارهم تماما. فهذه الآية الكريمة تقول أنهم حققوا بعنادهم وكفرهم هذه النبوءة الإلهية وكفروا واعرضوا عن ثلاث رسالات تالية أو أكثر بعد ظهور رسالة النبي صالح(ع).

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ)[67]، فهو يدعوهم للإيمان.

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)[68]، ويعلن عن رسالته الإلهية ومقامه الكريم.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)[69]، ويطالبهم بترك ما توارثوه عن آبائهم وأجدادهم من أفكار مضلّة مخالفة لمرضاة الله، وينصحهم بالاستجابة والإيمان بدينه الجديد الذي سيعيدهم إلى عبادة الله والاكتفاء بآيات كتبه.

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)[70]. ويقول أن كل هذه النعم والبركات التي أعدكم بها، لن أحصل منها على شيء، وستكون خالصة بتمامها لكم ولأجيالكم من بعدكم.

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)[71]. وألا تتذكرون ما جنيتموه من بركات وخيرات بسبب أيمانكم السابق؟ فما هدف دعوتي إلا لدوامها عليكم، ولن يديمها الله عليكم إلا بتجديد أيمانكم، فلا تطمئنوا لدوامها بعد الآن، فلقد حان وقت قطاف ثمارها.

(فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)[72]. وراح يعدهم بتحسن أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية بمجرد الاستجابة له. وبهذا فهو يربط للمرة الثانية بين تحسن أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية وبين أيمانهم، ويشير إلى قوة العلاقة بين ظهور الحضارات الإنسانية وبين الأيمان الحق، وأن الأولى تبدأ بالزوال بمجرد البعاد عن صراط الله المستقيم. وأن هناك علاقة قوية أيضا بين الروحانيات والماديات، فمتى كان الأيمان حق وحيّ، دامت النعم والبركات، ومتى ما نسخ الأيمان السابق بأيمان آخر جديد، زالت كل تلك النعم وانقلب تأثيرها إلى نقمة وعذاب.

(وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)[73]. ومثلما سبق الإشارة إلى تأثير الروحانيات على الماديات، تركّز هذه الآية الكريمة على موارد رزقهم وخيراتهم المادية وأن من أسباب قوة اقتصاد قوم ثمود

في تلك الأزمنة السحيقة كان يعتمد على الزراعة وتصدير التمور إلى بقية الأقوام الأخرى.

ومهما يكن من معاني الزروع والنخيل المادية، إلا أنه لا يمكن غض الطرف عن معانيها الروحانية، فنلاحظ في هذه الآية الكريمة الإشارة الخفية لتأثيراتها المعنوية، فهي تمثل بصورة جميلة ما سبق وظهر بينهم نتيجة أيمانهم بدينهم القديم من بواسق نخيل المؤمنين وأشجار العلماء وفواكه حكمة رجال العلم والعرفاء وثمار العلوم والمعارف وفواكه الإيمان التي ساهمت بإيجاد حضارتهم القديمة وكيف ظهرت كل تلك الآثار الطيبة بينهم بكل سهولة ويسر ودون عناء كثير.

(وَتَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ)[74]. ومن الوارد أيضاً، أن الآية الكريمة هنا تشير إلى حدث واقعي تاريخي وتدلل أن قوم ثمود كانوا يسكنون مناطق جبلية وقاموا بنحت صخور الجبال على أشكال بيوت وقصور وسكنوا واستقروا فيها. فهو ينسب قدرتهم على إنجاز مثل تلك الأعمال العظيمة إلى تنوّر عقولهم بعد أيمانهم بدينهم السابق، فلقد كان الأيمان هو المحفّز الحقيقي والقوة الدافعة الخلاّقة لما سال من أنهار الاختراعات والاكتشافات من بين أيديهم، وليس فقط من خلال تفتق عقولهم الذاتية.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)[75]. فخافوا الله الذي تعبدونه وأخشوه وأطيعوني في دعوتي الجديدة، فسرّ بقاء واستمرار كل ما تمتعتم به

من جنان الخيرات وقوة الحضارة، كان بسبب صدق أيمانكم القديم، ولا يمكنكم العودة إلى سابق عزتكم، إلا بالعودة إلى جنان الإيمان وعيون الإيقان، فهما أمران مرتبطان، واعلموا أنه لا سبيل لكم غير هذا السبيل.

(وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ)[76]، فالخير كل الخير لكم أن تتقدموا للأيمان وتبتعدوا عما يدعوكم له القشريين من رجال دينكم القديم وسحرة عقولكم المزيفين وكل من بالغ في تمجيد أحكام دينكم المنسوخ وجاهد في مغالاته له، فليس هذا إلا سبيل الهلاك.

(الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ)[77]، من الذين يفسدون أراضي عقول الناس وقلوبهم ومعتقداتهم ويزرعونها بشوك الريبة والظنون وحسك الكفر والضلالة حينما يدعون أتباعهم للتمسك بأذيال شريعتهم التي أمر الله بتركها وإبطال أحكامها، فكل من يخالف أمر الله ويدعو لغير ما ينزله من جديد الأحكام، ما هو إلا من المفسدين لعقول الناس وقلوبهم في الأرض. فلا تظنوا أنهم يصلحون أرض الدنيا وأرض نفوسكم بالأيمان، فلقد انقلب تأثيرهم الصالح منذ هذه اللحظة إلى تأثير طالح وهم غافلون لا يعلمون، كما قال تعالى **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)**[78].

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ الْمُسَحَّرِينَ)[79]. لكن المستكبرين من قوم ثمود لم يخرجوا عما قاله المعرضون والكافرون السابقون واللاحقون

من أمم أصحاب الكتاب وأصروا على التمثل بهم والسكن في مساكن كفرهم، وراحوا يصفون النبي صالح(ع) بأنه واقع تحت تأثير سحر ساحر أو أنه رجل دين جديد يريد أن يسحر عقولهم بجديد تفاسيره.

(مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ)[80]، ولما لم يشاهدوا في شخصيته حسب الظاهر، ما يميزه عن غيره من بقية البشر، وأنه رجل مثلهم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وينام ويمرض، كما قال تعالى **(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا)**[81]، طلبوا منه أن يأتيهم بمعجزة مادية خارقة لقانون الطبيعة تثبت صدق دعوته. أما كيف نفهم أنهم طلبوا منه معجزة مادية وليس آية أو سورة في كتاب منزل، فذلك لأن الله سبحانه وتعالى قال أنه لم يسبق أن أرسل رسول من قبل ظهور سيّد المرسلين، إلا وكان معه كتاب **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)**[82]، وهذا يعني أن قوم ثمود يطالبون نبيّهم بمعجزة مادية وليس بآيات إلهية مكتوبة. وهذا يدل على أن ديدن الناس وعادتهم منذ الأزل هو شدّة التعلق والتمسك بالتقاليد والعادات والتحايل قدر الإمكان للتهرب من نعمة أديان الله.

(قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)[83]، فكان جوابه على طلبهم، أن قدّم لهم آيات شريعته. أما لو كان المقصود من الناقة هنا هو هذا الحيوان المعروف بين الناس، فليس من المعقول أو الإنصاف أن يشترط النبي صالح على قومه هذا الشرط الصعب المستحيل، وهو الرجل المرفوض والمستهجن بينهم، ويطالبهم بتقاسم ماء الشرب مع ناقته، فيشربوا هم وجميع نوقهم وإبلهم وماشيتهم ويسقوا مزارعهم في مدة يوم واحد، ثم يتركهم عطاشى لمدة يوم آخر كامل، تترك فيه ناقته لوحدها لتشرب وهي مستلقية مرتوية والماء من دونها لا يرده أحد. ثم ليس من المعقول أن يكون لهذا الجمع من الناس وماشيتهم بئر أو ساقية واحدة فريدة يشربون منها لا غير. كما لا يمكن تصور نزول هذا الحكم بهذه الصيغة من رب العزة والعدل وهو أعدل العادلين.

لكن المقصود من الناقة هنا وكما ذكرنا، هي ناقة الشريعة القوية المقدسة التي ستنقل قوم ثمود ومن يحذو حذوهم إلى جنة الإيمان وأرض القرب من الله ومن دينه. لذلك فمقصود النبي صالح(ع)، أنه قد سبق وخصص الله سبحانه وتعالى لكل شريعة ودين من أديانه، يوم إلهي كامل معلوم، بدأ منذ ساعة ظهوره وإشراق شمسه، وانتهى في ساعة ظهور ما تلاه من إشراقات شموس أديانه. فالنبي صالح يحاول إخبار قومه أن الحقبة التالية والزمن القادم ويوم الله التالي مخصص لناقة شريعته ودينه لترعى

في أراضي قلوب الناس والعباد وعقولهم ولتشرب من مياه أعمال المؤمنين الصالحة وتسقيهم من لبن أحكامها الخالصة.

وفي هذه الحالة ومن خلال هذا المفهوم، يكون النبي صالح(ع) قد أنصف قومه وعدل بينهم ورحمهم بتوضيح هذه الحقيقة الإلهية ولم يظلمهم، وحاول جاهدا أن يشرح لهم أن يوم شريعتهم قد انقضى، وها قد حل عليهم يوم شريعة جديدة، وما عليهم إلا فسح المجال لها لترتع في أراضي قلوب العباد. وبهذا يصح الحكم ويتفق العدل والإنصاف الإلهي، في حكمه: أن لكم ولشريعتكم يوم شرب كامل، وأن لي ولشريعتي يوم شرب آخر كامل.

(وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[84]، ومرة أخرى، ليس من المعقول أن يوافق خصوم وأعداء النبي صالح(ع) على شرطه بترك دابته تهيم في أرضهم وحقولهم تأكل من حيث تشاء وتتلف ما تشاء من زرعهم وموارد رزقهم بعدما اشترط عليهم قبل ذلك تقسيم الماء بينهم وبين ناقته بالتساوي، خاصة وهو يواجههم ويدعوهم إلى ترك دينهم السابق وموروثات معتقداتهم والانتقال للإيمان بدينه الجديد. لكن المعنى، ولا تعاندوا ناقة دين الله وشريعته، ولا تحاربوها وتتعصبوا لمعتقداتكم القديمة في هذا الظهور الجديد، لأن من يفعل ذلك يستقطب عذاب الله عليه.

(فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)[85]. لكن قوم ثمود لم يتعظوا بهذه النصائح، ولم يصدقوا أقوال نبيّهم ولم يفهموا أسرار إشاراته، فحاربوه ودينه وأتباعه، وبذلك كانوا محط غضب الله. وعندما راحت تنهال عليهم أمطار البلايا وتهب عليهم رياح الرزايا الاجتماعية وصواعق المحن الاقتصادية والمصائب الأخلاقية من كل حدب وصوب، وانحط شأنهم وذلت رقابهم وتشتت شملهم، ندموا على ماضيهم التليد وعلى ما ضاع منهم وما كانوا يتمتعون به من جنان النعم والبركات.

(فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)[86]. ومع مرور الوقت، واستمرار صدهم وعنادهم ولظنهم الخاطئ أن ما أوجدوه من حضارة عظيمة واضحة للعيان كان من خلال قدراتهم الذاتية فقط، وليس لأيمان أجدادهم بدينهم سببا مباشراً أو مؤثراً في ذلك، لم يتمكنوا من العثور على وسيلة تخلصهم مما حل بهم من سوء حال. وهذا هو السبب من تكرار ذكر الأمم الكافرة القديمة في القرآن الكريم، فهو عبرة ونصيحة وموعظة سماوية لجميع الناس من بعدهم، حتى لا يكرروا أعمال قوم ثمود ومن كان على شاكلتهم ولا يرتكبوا ذات خطا الإنسان الأزلي.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)[87]. فالله سبحانه وتعالى عزيز غني مستغن عن عبادة خلقه، لا يزيد أيمانهم في ملكه شيئا ولا

ينقص كفرهم من ملكه شيء. لكنه رحيم بهم جميعا، يرحمهم في كل مرة برسالة وشريعة جديدة رغم أخطائهم وأفعالهم حتى يرفع من شأنهم وينوّر عقولهم ويهديهم سبل الخير والصلاح وتعمير الأرض فهذه سنة الله الدائمة مع عباده وخلقه.

وجاء في سورة النمل: **(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ)**[88]. ينتقل سبحانه وتعالى في هذه المجموعة من الآيات الكريمة إلى توضيح ما يحصل بين الناس وعلى الخصوص بين أمم أصحاب الكتاب عند ظهور رسول جديد بينهم، فبعد أن أشار لما لصفات العناد والتعصب والغرور والغلو في محبة الدين القديم من تأثير واضح في اختفاء آثار حضارات الأمم. ينتقل سبحانه وتعالى ليوضح ما يحصل من انقسام بين أمم أصحاب الكتاب حال ظهور دعوة سماوية بينهم، إذ تنقسم الأمة على العموم إلى فريقين، مهما كانت النسبة والتناسب بينها عدديهما، فريق يخضع ويؤمن بدعوة الله، فيعود أو فينتقل إلى الحياة الروحانية مرة ثانية من جديد، وهذا الفريق يكون على الغالب قليل العدد. وفريق يصدَّ ويبعد عن الأيمان فيموت موتاً روحانياً، وعلى العموم يكون هذا الفريق من غالبية الناس وأكثرهم عدداً **(وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)**[89]. إذ لابد وأن يؤمن بكل دين جديد قلة قليلة من الناس في أول ظهوره، كما قال تعالى وأكد على ذلك **(وَقَلِيلٌ**

مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)[90]. وكذلك قوله الكريم **(ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنْ الآخِرِينَ)**[91]، وبهذا يحضرنا سؤال: إذا كان سبحانه وتعالى قد غضب على الكافرين بدعوة النبي صالح(ع) ومحا أثرهم، فما بال الذين آمنوا بها، وأين هم؟ وما كان من مصيرهم؟

هنا نتذكر مرة أخرى ما سبق وجئنا عليه، فسبحانه تعالى يترك الفريقين على الأرض ليعيشا معاً، هذا يلهو بكفره، وهذا يتمتع بأيمانه، كما قال تعالى **(كُلا نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)**[92]، فالفريقين يبقيان يعيشان على الأرض، لكن الكافرين يموتون بكفرهم روحانيا بالتدريج ولا يبقى لهم شان عند رب العالمين، وفي النهاية يمحى أثرهم من خلال تغلغلهم بين بقية الشعوب. بينما يبقى المؤمنون خميرة الأيمان للأجيال القادمة وتزداد أعدادهم حتى يمسوا أمة عظيمة، وحال موتهم الجسماني يدخلون جنات الخلد عند مليك مقتدر عظيم، كما قال تعالى **(قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)**[93]، فهذا المؤمن الشهيد يتمنى أن يعلم من بقي من قومه على الأرض أنه قد دخل جنة الله حال استشهاده ومقتله فورا وليس بعد ذلك.

فالآية الكريمة مورد البحث تقول: لقد أظهرنا بين قوم ثمود، رجلا منهم وبينهم، أمرهم بالعودة إلى عبادة الله الواحد الأحد مرة أخرى، فلم يؤمن به إلا فئة قليلة وكفر أكثرهم.

(قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[94]، فنتساءل هنا: كيف يستعجل الناس السيئة ويطلبونها ويسعون خلفها ويتركون الحسنة ويبعدون عنها وبينهم العلماء والعقلاء؟ أليس بينهم رجل رشيد عاقل ينتبه إلى ذلك؟ من هذا لابد أن يكون للسيئة معنى آخر غير ما ينتشر بيننا من معانيها الكثيرة، عجز عقلاء قوم ثمود عن تمييزه أو التعرف عليه. وهنا علينا أن نتذكر مرة أخرى ما لتأثير حجاب العلم وما لآفات التعصب والغلو في محبة الدين من تأثيرات قوية على أتباع الكتاب، وكيف تحجب مثل هذه السحب الكثيفة والستائر السميكة أنوار شمس الحقيقة عن طالبيها.

فإذا علمنا أن شريعة الله توصف بالحسنة عندما تكون حيّة فاعلة طازجة فعّالة، فهي تحيي الأرواح وتنعش العقول. وتوصف بالسيئة عندما ينتهي مفعولها وتنسخ أحكامها ويكون الأخذ بها مصدراً للأمراض الفكرية والروحية والاجتماعية والأخلاقية. نفهم أن الحالة الأولى نتيجتها جنان الله وكسب مرضاته ورحمته والتنعم ببركاته، بينما تكون نتيجة الحالة الثانية غضب الله وسخطه. من هذا نفهم لماذا توصف مرة بالسيئة ومرة أخرى بالحسنة.

فخاطب صالح(ع) قومه معاتباً: ما لكم تستعجلون في صدكم عن سبيل الله وتستنكرون ظهور رسول بينكم، وتصرون على التمسك بشريعتكم المنسوخة قبل أن تتحققوا وتتأكدوا من صدق

دعوتي، فلن تخسروا شيئاً إذا ما استغفرتم الله وعدتم إلى دين الحق والصراط المستقيم. بل على العكس، ستتنعمون برحمة الله وبركاته لاستجابتكم له، وسيعود لكم مجدكم وعزكم. فتحققوا فيما بين أيديكم من آيات كتابكم، وستجدون فيها ما يشير إلى صدق دعوتي ويبشّر بحقيقة رسالتي.

(قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ)[95]. ولأن كل فكرة جديدة تحدث هزّة واضطراب وتعكر صفو وسكون ماء بحر عادات الناس وتقاليدها ومفاهيمها القديمة. كان جواب قوم ثمود، لقد كنا قبل ظهورك أمة متفقة على دين واحد ولنا شريعة واحدة وأحكام ثابتة، ولكن بظهورك، برزت بيننا مجموعة جديدة من الناس تتبعك وتدعو لأحكام جديدة مخالفة لما وجدنا عليها آبائنا وأجدادنا، وما نراك إلا السبب الأساس في هذا التفرّق والانقسام. فيجيبهم النبي صالح: أن ما يحصل في أمتكم هو سنة إلهية دائمة لا تغيير ولا تبديل لها، وهذا ما كان يحصل بين أمم أصحاب الكتاب على الدوام، وما هذه الحالة إلا امتحان لحقيقة أيمانكم ليفرز المؤمن من المعاند بينكم.

(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ)[96]. بعد أن يوضح سبحانه وتعالى ما يحدث لأمم أصحاب الكتاب حال ظهور رسول بينهم، وكيف ينقسمون إلى فريقين، فريق قليل العدد يسمع ويطيع ويخشع، وفريق كبير العدد

يتعصب ويصد ويغلو في دينه. يعود في هذه الآية الكريمة ليوضح حالة أمة ثمود آنذاك، حيث نفهم أن قوم ثمود كانوا منقسمين إلى تسعة مذاهب أو تسعة شيع في زمن ظهور النبي صالح(ع)، ومن المؤكد أن أتباع كل واحد منها كانوا يظنون أنهم على طريق الحق والصراط المستقيم، كما هو الحال اليوم مع مختلف المذاهب والنحل لمختلف الأديان. لكن الحقيقة، وحسب منطوق الآية الكريمة، كان أتباع جميع تلك النحل يجهلون أنهم مفسدون للدين وكافرون بحقيقة ما بين أيديهم من دين الحياة الدنيا وما يبشر به من جديد الأديان، وأنهم جميعا يقودون الناس إلى طريق الكفر وسوء السبيل ويخربون عقولهم ويمنعونهم من دخول جنة دين الله الجديدة حالما أمر الله بنسخ جنة شريعتهم. ولقد سبق وقلنا أن رجال الدين ومذاهبهم يكونون أعلام هدى ونجوم رحمة وشموس أيمان وكواكب تقوى وأقمار اطمئنان، عندما يكون دينهم حيّ فاعل. أما عندما يأمر سبحانه وتعالى بنسخ شريعتهم وينزل جنة شريعة جديدة، عندها تنقلب أحوالهم على العكس تماما، فيمسون أعلام ضلالة ونجوم ضياع للناس ولأتباعهم.

(قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)[97]، تذكرنا هذه الآية الكريمة، بما أجمع عليه رؤساء القبائل العربية المشركة، حينما تفتقت عقولهم عن فكرة شيطانية وحزموا أمرهم على اختيار رجل واحد من كل قبيلة، ليقتلوا

سيدنا محمد(ص) في ليلة دهماء، وكيف فشل مخططهم بحلول موعد هجرته إلى المدينة المنورة. كما تذكرنا وتؤكد لنا مرة أخرى أن قوم ثمود كانوا يؤمنون بالله وأن لهم دين وشريعة سماوية ولم يكونوا من الملحدين الكافرين، بدليل أنهم يقسمون ويحلفون بالله، وهذا ما سبق وأشرنا إليه.

وعلى سبيل العاجزين ووسيلة الضعفاء، لما لم يجد كبار علماء مذاهب ملة ثمود طريقة مقنعة أو حجة دامغة أو دلائل ساطعة في كتبهم تمكّنهم من دحض وتكذيب النبي صالح وشريعته، وبعدما عجزوا من وقف انتشارها في أراضي قلوب العباد، وشاهدوا خطرها الداهم على مصالحهم، وابتداء تفرّق أتباعهم من حولهم وانضمامهم إلى دين النبي صالح، ولما عرفوا أنه لن يمضي وقت طويل حتى تجف منابع خيراتهم وموارد غنائهم وثرائهم، وأنهم لم يتركوا سبيلا لوقف دعوة هذا النبي إلا وسلكوها، فلقد عارضوه وكذبوا دعوته واعتدوا عليه وعلى أتباعه وجاهدوا في سبيل دحض حججه وإطفاء أنوار تأثيراتها في عقول أتباعهم. هنا خطرت في أذهانهم فكرة شيطانية أخرى للتخلص منه ومن دعوته إلى الأبد، لذلك فكّروا بقتله والتخلص منه وبذلك استعجلوا بالسيئة قبل الحسنة.

فلقد اتفق رؤساء مذاهب قوم ثمود التسعة القائمين على شؤونها، على اغتياله وآل بيته بيد مجموعة من أشداء رجالهم. وإذا

ما سئلوا عن الفاعل أو اتهموا بهذه الجريمة فيما بعد، فسيقسمون بالله ويحلفون بمقدساتهم أنهم لم يشاهدوا من فعلها، فيكونوا صادقين في قسمهم، لأنهم خططوا وتآمروا وحرضوا فقط، أما عملية القتل فقد تمت بأيدي غيرهم.

فيا سبحان الله ويا قدرته وعلمه وقوته وعظمته، فهذه السورة الكريمة (سورة النمل)، نزلت في مكة (مكّية)، وهي تكشف عن معجزة إلهية ما زالت مدوّنة تسطع بأشعتها الباهرة من كتابه الكريم، وتذكّرنا بها أيضاً ما سردته كتب التاريخ من أحداث وأسباب لهجرة الرسول الكريم، وتكشف عن قدرة الله سبحانه وتعالى في معرفة أسرار نفوس البشر وطرق تفكيرهم وما يتهامسون به في ظلمات الليالي وزوايا مساكنهم البعيدة. وهذه الآيات الكريمات تكشف أن ربّ العباد وعالم الغيب قد أخبر رسوله الكريم ونبيّه العظيم والمصطفى المختار مسبقا بما يخطط له كبار رجالات قريش وما يتآمرون به على نفسه الكريمة وأنه حذّره منها، وكيف نجّاه من خطر ذلك المخطط الشيطاني بطريقته الإلهية العجيبة. ومن المؤكد أن عرب الجاهلية لم يدركوا أنهم يكررون فعلة قوم ثمود الشنعاء، وأن هناك وقبل آلاف السنين من خطط وأقدم على ذات فعلتهم الشريرة. فها هو رب العباد يعيد ذكراها في قرآنه الكريم، لما لها من تأثير خطير على شرائعه المقدسة وعلى رسله الكرام وعلى عباده المؤمنين.

(وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)[98]. قد يستغرب البعض لكلمة المكر، ويتعجب كيف يستعملها رب العزة وينسبها إلى نفسه المقدسة! فلو تذكرنا قوله الكريم **(وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)**[99]، وبحثنا عن أصل الكلمة، لوجدنا أن لها معنى آخر، وهو الصبغة والطلاء، وبهذا يكون لها استعمالان اثنان، الأول هو المكر والخديعة، والثاني هو الصبغة والطلاء، وبهذا نفهم أن الله سبحانه وتعالى يستعملها بمفهومها الشائع عندما يتكلم عن الكافرين، بينما يستعملها بالمفهوم الثاني لذاته المقدسة.

لكن الله سبحانه وتعالى كان لقوم ثمود ولمكرهم بالمرصاد، فلم يستطيعوا إطفاء نوره، لا بقوة اليد ولا بقوة الكلام أو الدلائل؛ ولأنهم كانوا كافرين، لم يفهموا قدرة الله على حفظ دعواته السماوية ولم يدركوا طريقته في هداية البشر وكيف يصبغ عباده بصبغة الدين ولون الأيمان، كما سبق وحصل لاحقاً عندما أنقذ سيدنا موسى(ع) من يد فرعون وقومه، وأنقذ دين سيدنا المسيح(ع) من يد اليهود، وحفظ سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام من يد المشركين ونجّاه من مؤامراتهم وممن ساندهم من أصحاب الكتاب، وكما قال تعالى **(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)**[100].

(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ)[101]، ولأنهم أصروا على المعاندة والكفر، فلاحظوا أيها

الناس وأصحاب العقول كيف انتهت أمتهم وحضارتهم ومحي رمزهم وتشتت شمل شعبهم وتغلغل بين شعوب الأرض، فلم يبق لهم ذكر ولا ركز. فهذا عقاب الله لكل أمة تكفر برسولها.

وهذا ما ينبهها إلى ما حصل لأمة العرب المشركين من أهل الجاهلية ويفسر ما كان يحدث للأمم الكافرة في قديم الزمان. فعلى النقيض من قوم ثمود، استجاب العرب للأيمان بدين الإسلام، ولو بعد عناد ومكابرة وقتال ونزال. فمن أصرّ على الكفر منهم ولم يؤمن أو بقي منافقا يظهر أيمانه ويخفي كفره في قلبه، فهذه الفئة الكافرة المنافقة لم يطمس الله بهم الأرض ولم ينزل عليهم نارا مشتعلة من السماء ولم تتلقفهم الطير ولم يحدث لهم أي شيء من هذا القبيل أو ما شابه؛ بل بقي وعاش وأكمل المؤمنون والكافرون والمنافقون حياتهم على الأرض، يأكلون ويشربون ويتزوجون ويبيعون ويشترون..الخ. ولكن.. وبالتدريج ورويدا رويدا ازداد عدد المسلمين وانتشرت عقيدتهم بين الأمم وجازاهم الله بخلق أمة عظيمة وحضارة راقية بعد أيمانهم بعشرات السنين، وهذا ما سبق وأشرنا إليه في تأثير الأيمان على حياة البشر ومجتمعاتهم. بينما اختفى العرب المشركون بالتدريج بالموت الجسدي أو بتحول أولادهم وأحفادهم إلى الأيمان فيما بعد.

(فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[102]، فلاحظوا ما بقي من آثار قوم ثمود وما تركوا

للأجيال التالية من آثار عقيدتهم وأحكام دينهم حتى اليوم. فلقد خلت مساكنهم القائمة وقصورهم الشامخة من ساكنيها بالتدريج، لأسباب عديدة منها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والجغرافية والمناخية..الخ، تسبب في تدبيرها رب العباد بحكمته البالغة من خلال قوة تأثير ظهور حضارة أمة مؤمنة جديدة غيرها أصبحت مع مرور الوقت محط أنظار الأمم من حولها بعدما استقطبت اهتمام الناس بمنجزاتها. فتركوا ما نحتوه من بيوت في جبالهم لتكون أطلال خربة ومأوى للكواسر والجوارح والزواحف يتردد فيها صدى الغربان والبوم وتنتشر فيها بيوت العناكب. أما مساكن عقيدتهم وقصور أيمانهم وقلاع هداهم المعنوية الروحانية، فلقد استفرغت من عواميد الإيمان وجدران التقوى وجفّت عيون وآبار عقيدتهم ولم يعد يتبعها أو يؤمن بها أحد. وما كل هذه القصة، إلا ليتعظ بها من كان له عقل ويتأمل سنة الله وحكمته.

(وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)[103]، وكما سبق ونجى الله نبيّه نوح(ع) ومن ركب معه سفينة أمره ومركب دينه من المؤمنين، فلقد نجى من آمن من قوم ثمود بدين صالح(ع) ومن أناب الله عن نفسه وقلبه وأسلّم له أمر عقيدته وركب مع صالح ناقة شريعته ونهض للمهاجرة من أرض جنة دينه الجرزة إلى جنة أرض دينه الغنية الخصبة، وبهذا بقي ذكرهم الطيب في الأرض، ونمت بذورهم الطاهرة لتخرج منها أشجار أمة مؤمنة. واستمر

ذكرهم كمؤمنين بين الناس وفي السماء عند رب العالمين. وهذا هو مصير صحابة المؤمنين بأوامر الله في كل زمان، يصبحون خميرة أيمان طاهرة للأمة التالية، فيذوبون داخلها بعد أدائهم أدوارهم ومهامهم المقدسة وإكمالهم ما أمرهم الله به في زمانهم، لأنهم كانوا أصحاب شريعة سماوية حيّة فاعلة، بدليل قوله تعالى **(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)**[104].

وفي سورة فصّلت: **(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)**[105]. من الواضح أن الآية لا تعني أن قوم ثمود كانوا عمي فاقدي حاسة البصر، وكان الله يردّها ويعيدها إليهم فيرفضونها ويفضلون العمى عليها. فليس من المعقول أن يكون شعباً بتمامه عمي العيون وعلى هذه الدرجة من الغباء والجهل. لكن المقصود أنهم أصبحوا في نهاية حياة شريعتهم عمي البصيرة مبتلين بظلام القلوب والأفئدة مفضلين الكفر والضلالة والتمسك بما بين أيديهم من عقيدة قديمة توارثوها عن آبائهم وأجدادهم على الإيمان بالشرع الصحيح ومخافة الله وطاعته، فما كان جزاء عنادهم وتعصبهم وجهلهم وكفرهم، إلا غضب من الله وعذاب شديد وخزي وهوان وذلة بين بقية الأقوام.

أما في سورة القمر: **(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ)**[106]، فمن معاني (النذر) هم رسل الله، كما قال تعالى في خاطبه لسيدنا محمد(ص) **(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)**[107]. فقوم ثمود لم يصدقوا مثل من سبقهم ومن تلاهم، ما جاءهم في كتابهم السماوي من إنذارات وتحذيرات من الشرك بالله والكفر برسوله صالح(ع)، فلقد ظنوا أن لا رسول بعد رسولهم ولا كتاب.

(فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ)[108]. واستنكروا أن يظهر بينهم رجل واحد يدعوهم لعبادة الله الأحد ويوحدهم على صراط إلهي فريد، لأنهم كانوا قانعين بتعدد مذاهبهم وكثرة رموز رجال دينهم ومنشغلين بتتبع ما بين أيديهم من تفاسير عقيمة وأنهم على دين الحق الأزلي وأنه لن ينسخ أبدا، حتى وإن ظهر بينهم كل هذا الاختلاف والتعدد في المذاهب والشيع. وكانوا يظنون خطأً، أنهم إذا تركوا ما يعتقدون ويؤمنون به وتحولوا عن دينهم السماوي وابتعدوا عن رجال دينهم الذين فتحوا عيونهم على وجودهم وتربوا على احترامهم وتقديرهم وتبجيلهم، وآمنوا بدعوة صالح(ع)، فسيكونون من الكافرين بالله وسيضلون عن سواء السبيل ويكون مستقرهم جهنم وبئس المصير.

(أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ)[109]. وتعجبوا وراحوا يتساءلون: هل من المعقول أن يختار سبحانه وتعالى رجلاً منهم ليس بذي شأن، ويترك كل هؤلاء العلماء

والفضلاء الممسكين بزمام أمور دينهم؟ فهذا ما لم يسمعوا به من قبل ولم يذكر في بشارات وآيات كتابهم. لذا ظنوا أن النبي صالح(ع) ما هو إلا كذّاب كبير أو ساحر محتال، كما حدث فيما بعد مع سيدنا محمد(ص)، عندما لم يصدّق اليهود والنصارى والمشركين ما نزل عليه من سماء فضل رب العالمين، بعدما كانوا يظنون أن موعودهم ورسولهم القادم لابد وأن يظهر من بينهم وليس من أمة أو قبيلة أخرى مجهولة، قال تعالى **(وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)**[110].

(سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنْ الْكَذَّابُ الأَشِرُ)[111]. من الوارد أن يكون لكلمة **(غَدًا)** معاني عديدة، منها: إن النبي صالح(ع) يشير إلى أن حقيقة أمره وصدق دعوته ستتضح في مستقبل الأيام، أو عند ظهور رسول لاحق آخر يصدق دعوته، لأن من مهام كل رسول كريم تصديق من سبقه والتبشير بمن سيليه، كما قال تعالى على لسان سيدنا عيسى(ع) **(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)**[112].

ومن معاني كلمة **(غَدًا)** أيضا، هو يوم الدين التالي الذي سيظهر بعد دين صالح(ع)، لأننا علمنا أن عمر ومدة كل دين أو شريعة، يحتسب عند الله بيوم كامل، فمثلما يكون لليوم الزماني

تغير وحالات، كذلك هو يوم الدين، فيه وقت شروق الرسالة وبداية استضاءة العباد بها، ووقت ضحى شمسها وبداية حرارة الأيمان والعقول والأرواح، ثم تحول وانتقال إلى مستوى السمت فوق الرأس، وهذا دليل الوصول إلى أرقى شؤونها الروحانية وقمة رأس حضارتها الاجتماعية. ثم يأتي دور الهبوط وعصر تدنيها وانخفاض حرارة أيمانها في قلوب أتباعها، وتنتشر الظنون الواهية والأفكار البالية بين معتنقيها، وتستمر في الهبوط حتى تنتهي إلى الغروب والزوال. عندها تظلم سماء أحكامها ولا تعد تعطي ضوء هديها إلا لمن يختاره الله برحمته الواسعة، فإذا خليت خربت. في تلك الفترة، لا يعد يعرف أتباعها بمن يستظلون ويقتدون، وبما أنهم لا يجدون في زمن ليل شريعتهم إلا نجوم رجال دينهم، لذلك ينجذبون إليهم ويتعلقون بأذيالهم ويهتدون بهديهم. وبعد انقضاء فترة الظلام مهما طالت وامتدت، يظهر في السماء نجم بشارة هدي جديد يبشر بقرب بزوغ شمس الهدى مرة أخرى، ويظهر على الأرض نجم رجل مبارك يبشر الناس بقرب سطوع شمس الرسالة والرسول الجديد، فيعلنان معاً انتهاء يوم دين سابق وبزوغ فجر يوم دين لاحق. وهكذا استمرت أديان الله تتنزل على العباد طالما أن الله سبحانه وتعالى خالد أبدي سرمدي وخلقه موجود باق، حيث لا يمكن أن يكون هناك خالق بدون خلق ولا مبدع بدون إبداع ولا معبود بدون عابد ولا مشكور بدون شاكر. فلابد من وجود الخلق حتى يعرف

الخالق، كما قال تعالى **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ)**[113].

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ)[114]. من معاني كلمة (فِتْنَةً) هو الامتحان، وكذلك كل ما يفتن الناس ويمتحنهم ويزلزل أفكارهم ومعتقداتهم، فلا يعودوا يعرفون الحق من الباطل. وهذا ما كان يحدث بالضبط عند بزوغ شموس الشرائع السماوية السابقة أو عند ظهور أنوار رسل الله، لأن الناس كانوا ينقسمون آنذاك إلى فريقين، فريق يضم الغالبية ينادي بضرورة التمسك بدين آباءهم وأجدادهم، لتأكدهم ووثوقهم من صدقية تعاليمهم وكتابهم القديم، وفريق يضم أقلية تصدق الديانة الجديدة وتثبت عليها وتفدي النفس والنفيس في سبيلها.

ومن معانيها أيضا: الرسول والرسالة والشريعة والدين، كما قال تعالى **(وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا)**[115]، فالخطاب هنا موجه لسيدنا محمد(ص)، وسبحانه وتعالى يصفه وجميع الرسل الكرام بالفتنة، لأنهم يفتنون الناس بدينهم السابق ويمتحنون صدق أيمانهم بفتنة أديانهم التالية. وكذلك قوله الكريم **(وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ)**[116]، فسيدنا موسى(ع) كان فتنة لقوم فرعون الذين فتنهم الله بدعوته وامتحن حقيقة أيمانهم، فأرسل الكافرون إلى جهنم عذابه

بعدما أغرقهم بمياه آيات كتابه، واصطحب المؤمنون إلى جنة دينه الجديد بعدما عبر بهم بحر الكفر ونقلهم إلى أرض الأيمان. وما ظهور ناقة شريعة صالح(ع) إلا امتحان لقوم ثمود وفتنة لهم، ولمن عاش في زمانهم من أتباع الشرائع السابقة لهم، ليتبين المؤمن الحقيقي من مدعي الإيمان الكاذب بينهم.

أما كيف يكون فرعون وقومه من أهل الكتاب وأصحاب شريعة سماوية؟ فالله سبحانه وتعالى لم يترك هذا الأمر المهم دون أن يعطف عليه ويذكره بإشاراته اللطيفة الإعجازية. قال تعالى **(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ)**[117]، فكلمة **(دِينَكُمْ)** فيها إشارة واضحة لاعتقاد قوم فرعون بدين سماوي. ولقد كان من قدرة القدير أن يستعمل كلمة أخرى غيرها ليشير إلى معتقدات فرعون وموروثات قومه، بدليل قوله تعالى **(قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**[118]. ففرعون كان يتبع ديناً سماويا من عند الله، بدليل أنه يحذر قومه من تبديل دينهم وعقيدتهم، فهو يخاف أن تكون دعوة سيدنا موسى(ع) باطلة، وبدلا من استمرار قومه على التمسك بدينهم السماوي وأحكام شريعتهم الإلهية، ينقلبون . حسب ظنه . إلى إتباع دعوة رجل مدّعي كاذب لم يشتهر بينهم لا بالعلم ولا بالمعرفة ولا بالدين؛ بل معروف بقتل نفس. وبهذا ينتشر بينهم الفساد والكفر.

ومن الأدلة على صحة هذه الفكرة، ما تم اكتشافه مؤخرا من تفاصيل حياة الفراعنة ومعتقداتهم، وكيف كانوا يحنطون موتاهم ويدفنون حليّهم وأدواتهم معهم، ظنّاً منهم أنهم سيعودون لهذه الحياة أو أنهم سينتقلون إلى حياة أخرى فيستفيدون من لوازمهم. ففكرة البعث والعود والخلود كانت منتشرة بينهم ولو بتلك الطريقة البسيطة، ومثل هذه المعتقدات الروحانية ليس لها مصدر أو منبع إلا أديان الله وشرائعه ورجاله المقدسين.

وهناك آية كريمة أخرى تبين أن فرعون وقومه كانوا من أصحاب الكتاب، وهي **(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)**[119]. فنفهم من معانيها أن امرأة فرعون كانت تعرف الله وتعلم أن هناك جنة له، وبهذا فهي تعلم أن هناك جهنم، وبهذا فهي تدرك أن هناك أيمان وكفر، وهذا يثبت أن فرعون وقومه كانوا يتبعون ديناً سماويا قديما من عند الله قبل ظهور النبي موسى(ع) بينهم، وإلا من أين جاء أيمان امرأة فرعون بكل هذه الأمور المعنوية والدينية، وكيف ارتضت بفرعون زوجاً لها، إن كان لا يؤمن بالله؟ لكنها بعد أيمانها بدين موسى(ع)، أدركت الفرق بين معتقدها الجديد وبين معتقد فرعون زوجها. وبما أن ملوك وأباطرة الأمم الشرقية في قديم الزمان، كانوا يمثلون ويملكون السلطتين الدينية والدنيوية، يتضح من هذا أن فرعون كان

رجل دين ودنيا معاً، وأنه مشى على خطى من سبقه من رجال أديان أمم أصحاب الشرائع القديمة الذين كان ديدنهم على الدوام معارضة رسلهم وصدهم. لذلك عارض فرعون، رسول الله موسى(ع)، إما بسبب الجهل رغم اشتهاره بالعلم، أو بسبب التعصب والغلو في محبة دينه. وهذا يعيدنا إلى صحة النظرية القائلة بسرعة أيمان بسطاء القلوب والسريرة من الفقراء والمستضعفين قبل علمائهم ورجال دينهم المصطبغة قلوبهم بصبغة العناد والتعصب من الذين يعجزون عن عبور عوائق العلم وجدران المعرفة.

فامرأة فرعون عرفت الفرق بين الدين الحق الجديد والدين الباطل القديم المنسوخ، وتقدمت للأيمان برسالة الله حال نزولها على سيدنا موسى(ع)، وتركت دين آبائها وأجدادها حال إشراق شمس الحق من أفق الرسالة الموسوية واعتنقتها، وقالت على الفور: ربي إني قد تركت جنة دينك القديم بعد نسخها، وها أنا أتقدم للأيمان بجنة دينك الجديد، فابنِ لي عندك في أرض جنة دينك الجديد بيت أيمان جديد، وأقبل مني زكاة أيماني وهجرتي إليك، وساعدني في فهم شريعة موسى، ونجني مما يتبعه فرعون زوجي وما يأمر به من كفر بدعوة رسولك، وأخرجني من ملة الكفر الذين ظلموا أنفسهم ويظلمون أتباعهم بالكفر والعناد والصد عن سبيلك المستقيم.

نعود للآية الكريمة مورد البحث، فالنبي صالح(ع) لابد وأنه أدى مهمته السماوية على أكمل وجه وبذل جهده وكل ما في وسعه لدعوة قومه إلى الله والإيمان برسالته، ولم يترك سبيلا إلا وطرقه، مثله مثل جميع الرسل والأنبياء من قبله ومن بعده، بدليل قوله تعالى حينما أشار إلى النبي نوح(ع) وما عاناه في سبيل تبليغ دعوته إلى قومه **(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَاراً . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا)**[120]. لذلك نزل الأمر الإلهي على النبي صالح(ع) بترك الكافرين من قوم ثمود وشأنهم والنظر إلى عاقبتهم. فمن آمن، فالله عليم بذات الصدور، ومن كفر فجزاءه عند ربه أسوأ العقاب. كما قال تعالى في أمره لسيدنا محمد(ص) **(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)**[121]، وكذلك قوله الكريم **(وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)**[122].

(وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ)[123].

وبعدما علمنا أن الكلام في الآيات المباركة السابقة وحسب تسلسلها كان عن الأيمان والإيقان والخشوع والخضوع، إذن لابد أنه لا يخرج

عن هذا السياق والنطاق الديني. وقد سبق وذكرنا أن من معاني كلمة **(الْمَاءَ)** التي ترد في آيات الذكر الحكيم بالإضافة إلى معناها العام الشائع، هو ماء الآيات الإلهية وزلال السور الزكية وفرات الرحمة الربانية التي تهطل مع نزول كل شريعة سماوية من سماء فضل الله لتسقي أشجار أرواح العباد حتى تثمر بفواكه الأعمال الصالحة. فمثلما يروي هذا الماء المادي كل ما هو حيّ من مخلوقات أرضية، حسب قوله تعالى **(وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ)**[124]، كذلك الماء الرباني فهو يسقي أرواح وعقول وقلوب كل من يقبل إلى الله ويؤمن بأديانه المقدسة ليظهر من تراب أرض قلوبهم وعقولهم أزهار الحكمة وأثمار العلوم والمعارف، كما قال تعالى **(إِذْ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ)**[125]، فماء الأمطار لا يطهّر الناس ولا يذهب عنهم رجز الشيطان ولا يربط القلوب ولا يثبت الأقدام. بل هي مياه الأيمان ومياه الأديان وزلال رحمة رب العالمين وفرات النعم والبركات الإلهية، فهي التي تطهر الناس وتذهب عنهم رجز الشيطان وتربط قلوب المؤمنين وتثبت أقدامهم على صراط الله المستقيم. وبهذا فالآية الكريمة لا تتكلم عن هذا الماء الجاري فقط، بل تتكلم أيضاً عن زلال ماء الآيات وفرات الأيمان. فيكون من معاني الآية:.

أخبرهم يا صالح(ع) أن ماء الغيث الإلهي يُقسَّم بين أمم أصحاب الكتاب بنسب ومقادير متفاوتة محددة، كل أمة لها مقدار معين من ماء شريعتها، يبدأ في لحظة محددة وينتهي في يوم من الأيام. وحالما يحين موعد جفافه واحتضاره، ينزل ماء شريعة سماوية جديدة على البشر، كما قال تعالى **(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)**[126]. فمهما حاولتم يا قوم ثمود، التشبث بماء دينكم وحافظتم عليه وزدتم في تعبدكم وغاليتم في أداء فروضه وواجباته، فلابد أن يأتي اليوم الذي تنسخ فيه شريعتكم وينتهي مفعولها ويجف ماء أيمانها فلا تستطيعون له وصولا.

(فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ)[127]. هذه الآية الكريمة تشير إلى صلب الموضوع وبيت القصيد والى أهم أسباب اعتراض الناس على رسلهم الكرام، وتفصح عن حقيقة مصدر مهم من مصادر الاعتراض والعناد والصد والنكران ومحاربة الله ورسله الكرام.

فمن المعلوم أن كل أمة تلتجئ في ملماتها وخطبها إلى رجال دينها وكبار أحبارها لتسألهم عن أمور دينها ودنياها إذا ما استعصى عليها أمرا من أمورها الروحية أو الاجتماعية. ومن أهم المعضلات التي واجهت عباد الله على مر الزمان ووقعوا في مطباتها، مشكلة التمييز بين رجل الدين المؤمن الموقن داعي الحق

الحقيقي، وبين مدّعي الدين المزيف القشري وساحر العقول. وبما أن الأتباع والمريدون كانوا وبمجرد سماعهم نبأ ظهور دين جديد أو شمس رسول جديد، يهرعون إلى أولياء أمور دينهم طالبين المشورة والهداية باعتبارهم أصحاب الاختصاص في هذا المجال، فكيف يمكنهم التمييز بين رجل الدين الحقيقي أو القشري وجميعهم يلبسون ذات الزي والملبس ويتكلمون بذات المنطق. وكيف يمكن للإنسان البسيط أن يميز مكانه ودوره وطريقه ويعرف الحق من الباطل وينجو من نار غضب الله ويدخل جنة رحمته ونعيمه والحال على ما هو عليه؟ لأن الدين عندما يكون حيّاً فاعلا، يكون الناس كمن يطلبون الهداية والاستنارة من أنوار نجوم الهدى وكواكب التقوى، كما قال تعالى **(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَةِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)**[128].

أما إذا كان الدين قد مات بنزول دين جديد، فيظن رجاله المفسدون، أنهم باقون على عهدهم مع الله، وأنهم مازالوا هم المصلحون، كما قال تعالى **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)**[129]، ويكون حال أتباعهم كمن يطلب الهداية ممن لا هداية له، كما قال تعالى **(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا)**[130]، وكما قال تعالى **(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ)**[131].

يوضح سبحانه وتعالى هذه النقطة الخطيرة ويبيّن لعباده كيف يمكنهم التمييز بين فريقي المصلحين والمفسدين، وأنه لم يترك عباده لأنفسهم يحتارون في مثل هذه الأمور الخطيرة إذا ما حان أجلها وأزف موعدها، فلقد ترك علامات واضحة وآثاراً مكشوفة لمعرفة وتمييز مثل هذه الأزمان حال استعمالهم لعقولهم وابتعادهم عن التقليد الأعمى، كما قال تعالى **(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)**[132]، ففي هذه الآية الكريمة، قانون إلهي عام يوضح ويكشف لجميع الخلق مهما تباينت درجات ذكائهم ومستويات عقولهم، أن بإمكانهم تمييز هذه العلامات الفارقة. إنها تعلن بوضوح أن بداية زمن النهاية هو مشاهدة انقلاب أحوال العباد وتفشي السيئات وانتشار الشرور فيما بينهم، وعجز رجال الدين المصلحون على أداء أدوارهم الروحانية، وانتقال مقود أمور العباد إلى أيدي المفسدين، كما أيد ذلك قوله تعالى **(مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)**[133]، فمن ثمارهم تعرفونهم، فلا تطرح شجرة الشوك تيناً أو تثمر شجرة الحسك عنباً.

لذلك فالآية الكريمة تقول أن قوم ثمود بعدما سمعوا بظهور شريعة صالح(ع) الجديدة بينهم، توجهوا إلى كبير رجال دينهم الذي يصفه سبحانه وتعالى (بأشقاهم) **(إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)** ليسألونه عن حقيقة الأمر، وبما أنه كان في جوهره رجلاً غافلاً عن بشارات

كتابه وجاهلا بجواهر أسراره، فقد تبينت قشرية علومه وسطحية مفاهيمه حالما أفتى بكذب دعوة النبي صالح(ع) وحكم ببطلان معتقدها وقيامه على تحذير الناس من مغبة الإيمان بها، فهي حسب ظنه دعوة باطلة وطريق ضلالة وكفر، ونصحهم بعدم ترك دين آبائهم وأجدادهم الذي أجمعت الأمة على أحقيته وقدسيته وضرورة التشبث به.

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)[134]. ويبدو أنه كان هناك صدى واسعاً لنصائح (أشقاها) بين قومه، فلقد تبعه غالبية مريديه وصدّقوا أقواله، لأن هذه الآية الكريمة تفصح أن عذاب الله قد نزل بقوم ثمود بعدما تبعوا (أشقاها) وكذبوا نبيّهم صالح(ع)، وبهذا تكون أمتهم قد أجمعت على الخطأ والباطل، واتفقوا على الكفر والضلالة، وبالتالي كان ويكون هذا التصرف مغناطيس غضب الله ونقمته.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)[135]. فلقد كانت لحظة نطق صالح(ع) بعبارة: أني رسول من عند الله. هي لحظة البدء بنزول العذاب الإلهي وهي لحظة الإعلان عن انتهاء عمر شريعة قوم ثمود السابقة ونسخها، وهي الشرارة الروحانية التي تحولت فيما بعد إلى نار مستعرة أكلت وجودهم. ومنذ تلك اللحظة، لم يتبق من عقيدتهم ولا من دينهم، ما ينفع الناس في حياتهم أو يصلح لبناء بيوت أيمانهم وقلاع تقواهم، فلقد دخلوا أول فترة الموت والاحتضار، وما هي إلا مدة محدودة

مهما امتدت وطالت، حتى انتهى أمرهم وزال ذكرهم ومحيت عقيدتهم وحضارتهم وآلت إلى فناء.

ونجد في سورة الحاقة: **(كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ)**[136]. هكذا هو حال جميع الأمم القديمة من أصحاب الكتاب، فكل أمة آمنت برسالة سماوية، صدّقت ما سبق وظهر منها قبل رسالتهم، وكفر غالبيتهم بما لحق بها، وما كل ذلك إلا بسبب عدم استعدادهم لمثل هذه الأنباء الإلهية العظيمة التي تقرعهم وتذهلهم وتفزعهم أشد الفزع، كما قال تعالى **(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)**[137]، وكذلك قوله الحق **(أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)**[138].

(فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ)[139]. وما سبب هلاك قوم ثمود إلا ظلمهم أنفسهم وطغيانهم وجهلهم بعقيدتهم وتعصبهم لمذاهبهم ولرجل دينهم (أشقاها) (الطاغية) وغفلتهم عن حقائق دينهم وبشاراته. ومن المؤكد أن مصير قوم عاد كان ذات مصير قوم ثمود ولنفس الأسباب، بعدما جمعتهما الآية الكريمة معاً.

وفي سورة الشمس: **(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا)**[140]. ما كان سبب كفر قوم ثمود وصدهم عن رسولهم صالح(ع)، إلا ما طلا عقولهم وطغى عليها من مفاهيم عقيمة ومعتقدات بالية، وما اصطبغت به من صبغ الظنون السخيفة وألوان الأوهام الواهية.

(إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)[141]. خاصة بعد بروز أشهر وأشقى كبار رجال دينهم وتشجيعه لهم بالصد والنأي عن دعوة النبي صالح(ع) وتكذيب رسالته. فمن يفعل ذلك ويعاند أمر الله وسلطته، فهو من أشقى الناس عند رب العباد.

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا)[142]. لكن النبي صالح(ع) كان يوضح لقومه حقيقة شريعته وينصحهم بالإيمان بها وعدم تكذيبها، فهي ناقة دين الله وسفينة شريعته الجديدة على الأرض، وكان يشجعهم على ركوبها والاهتداء بهديها، وبقي ينصحهم ويطلب منهم تركها وشأنها ترعى في قلوب الناس لتسقيهم لبن آياتها وزلال ماء أحكامها، لمن شاء الشرب والارتواء منها والتمسك بها.

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا)[143]. لكن قوم ثمود قاموا على النبي صالح(ع) ولم يصدقوه وألبوا الجموع وحشدوهم ضد دعوته، وبذلك صارت أستار عقولهم سميكة وحجب قلوبهم غليظة، وتفاسيرهم دخاناً كثيفاً، وأقوالهم غيوماً ملبدة، وأيمانهم وعلومهم عقبات كأداء أمام عيونهم وأبصارهم حجبت شعاع شمس الحقيقة عنها ومنعتهم من رؤية جواهر أسرار آياته الثمينة، وكان هذا الإعراض والصد والعناد السبب الرئيس في استقطاب غضب الله وعذابه عليهم.

(وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا)[144]. فذلك الشقي **(أَشْقَاهَا)**، أخطأ مثل من سبقه وتبعه من رجال الدين القشريين الذين يفضلون زينة الدنيا ومكتسباتهم الدنيوية والمادية على التحول إلى الأيمان الحق خوفاً على مصالحهم الشخصية، وارتكب ذات الخطأ الأزلي عندما راح يحرض الناس والعباد ضد دعوة النبي صالح(ع)، لأنه ظنَّ كل الظن أنه متأكد كل التأكد من صدق دين قومه، وأنه على دين الحق ومؤمن بالله ورسوله، وأن شريعته أزلية وحق من عند رب العالمين، وأن ليس هناك بعد دينه ديناً جديداً أو شريعة تالية، وأن كل من يقول أو يدعي مثل هذا الدعوى الخطيرة، لا يستحق في الدنيا إلا الخزي والعار، وفي الآخرة عذاب في أسفل نيران الجحيم.

الحواشي

1 – سورة الأعراف الآية رقم 73 .
2 – سورة الشمس الآية رقم 13.
3 – سورة الأعراف الآية 73 .
4 – سورة البقرة الآية 197.
5 – سورة يوسف الآية 5.
6 – سورة المائدة الآية 114.
7 – سورة الأنبياء الآية 56.
8 – سورة الكهف الآية 51.
9 – سورة الأنبياء الآية 30.
10 – سورة الأنبياء الآية 44.
11 – سورة لقمان الآية 25.
12 – سورة لقمان الآية 27.
13 – سورة الأعراف الآية 74.
14 – سورة النور الآية 55.
15 – سورة الأعراف الآية 75.
16 – سورة فصلت الآية 35.
17 – سورة الشعراء الآيتان 88–89.
18 – سورة الرعد الآية 11.
19 – سورة الأعراف الآية 79.
20 – سورة الأنفال الآية 24.
21 – سورة الشعراء الآية 111.
22 – سورة هود الآية 27.
23 – سورة الأعراف الآية 77.
24 – سورة الأعراف الآية 78.
25 – سورة الزمر الآية 28.
26 – سورة آل عمران الآية 55.
27 – سورة الإسراء الآية 20.
28 – سورة الأعراف الآية 79.
29 – سورة هود الآية 61.
30 – سورة العنكبوت الآية 42.
31 – سورة فاطر الآية 24.
32 – سورة النساء الآية 64.

33 – سورة الإنسان الآية 1.
34 – سورة المائدة الآية 3.
35 – سورة غافر الآية 50.
36 – سورة هود الآية 62.
37 – سورة الزخرف الآية 24.
38 – سورة العنكبوت الآية 26.
39 – سورة هود الآية 63.
40 – سورة الحجر الآية 94.
41 – سورة هود الآية 64.
42 – سورة العنكبوت الآية 43.
43 – سورة هود الآية 65.
44 – سورة السجدة الآية 5.
45 – سورة هود الآية 66.
46 – سورة هود الآية 67.
47 – سورة الروم الآية 9.
48 – سورة غافر الآية 78.
49 – سورة الأعراف الآية 102.
50 – سورة الفرقان الآية 38.
51 – سورة ق الآية 12.
52 – سورة يوسف الآية 106.
53 – سورة هود الآية 68.
54 – سورة الدخان الآية 29.
55 – سورة الإسراء الآية 59.
56 – سورة الحجر الآية 4.
57 – سورة فاطر الآية 28.
58 – سورة المائدة الآية 63.
59 – سورة المائدة الآية 82.
60 – سورة الإسراء 90–93.
61 – سورة الكهف الآية 54.
62 – سورة الإسراء الآية 89.
63 – سورة البلد الآية 10.
64 – سورة فاطر الآية 24.
65 – سورة الإنسان الآية 1.
66 – سورة الشعراء الآية 141.
67 – سورة الشعراء الآية 142.
68 – سورة الشعراء الآية 143.
69 – سورة الشعراء الآية 144.
70 – سورة الشعراء الآية 145.
71 – سورة الشعراء الآية 146.
72 – سورة الشعراء الآية 147.
73 – سورة الشعراء الآية 148.
74 – سورة الشعراء الآية 149 .
75 – سورة الشعراء الآية 150.
76 – سورة الشعراء الآية 151.
77 – سورة الشعراء الآية 152.
78 – سورة البقرة الآية 11.
79 – سورة الشعراء الآية 153.
80 – سورة الشعراء الآية 154.
81 – سورة الفرقان الآية 7.
82 – سورة الرعد الآية 38.

83 – سورة الشعراء الآية 155.
84 – سورة الشعراء الآية 156.
85 – سورة الشعراء الآية 157.
86 – سورة الشعراء الآية 158.
87 – سورة الشعراء الآية 159.
88 – سورة النمل الآية 45.
89 – سورة الأعراف الآية 102.
90 – سورة سبأ الآية 13.
91 – سورة الواقعة الآية 14.
92 – سورة الإسراء الآية 20.
93 – سورة يس الآية 26.
94 – سورة النمل الآية 46.
95 – سورة النمل الآية 47.
96 – سورة النمل الآية 48.
97 – سورة النمل الآية 49.
98 – سورة النمل الآية 50.
99 – سورة آل عمران الآية 54.
100 – سورة التوبة الآية 32.
101 – سورة النمل الآية 51.
102 – سورة النمل الآية 52.
103 – سورة النمل الآية 53.
104 – سورة الرعد الآية 18.
105 – سورة فصلت الآية 17.
106 – سورة القمر الآية 23.
107 – سورة الحجر الآية 89.
108 – سورة القمر الآية 24.
109 – سورة القمر الآية 25.
110 – سورة الزخرف الآية 31.
111 – سورة القمر الآية 26.
112 – سورة الصف الآية 6.
113 – سورة الذاريات الآية 56.
114 – سورة القمر الآية 27.
115 – سورة الفرقان الآية 20.
116 – سورة الدخان الآية 17.
117 – سورة غافر الآية 26.
118 – سورة الزمر الآية 28.
119 – سورة التحريم الآية 11.
120 – سورة نوح الآيات 5–9.
121 – سورة النحل الآية 125.
122 – سورة الكهف الآية 29.
123 – سورة القمر الآية 28.
124 – سورة الأنبياء الآية 30.
125 – سورة الأنفال الآية 11.
126 – سورة الأعراف الآية 34.
127 – سورة القمر الآية 29.
128 – سورة الأنبياء الآية 73.
129 – سورة البقرة الآية 11.
130 – سورة الفرقان الآية 3.
131 – سورة القصص الآية 41.
132 – سورة هود الآية 117.

133 – سورة الإسراء الآية 15.
134 – سورة القمر الآية 30.
135 – سورة القمر الآية 31.
136 – سورة الحاقة الآية 4.
137 – سورة ص الآيتان 67-68.
138 – سورة المؤمنون الآية 70.
139 – سورة الحاقة الآية 5.
140 – سورة الشمس الآية 11.
141 – سورة الشمس الآية 12.
142 – سورة الشمس الآية 13.
143 – سورة الشمس الآية 14.
144 – سورة الشمس الآية 15.

الفصل الخامس

قصة سيدنا موسى(ع)

يتردد على ألسنة الكثير منا صغاراً أم كباراً، قصة سيدنا موسى عليه السلام، وكيف واجه مع أخيه هارون لوحدهما جبروت فرعون وقومه وحشود جنده ومكائد سحرته، وكيف عرضا عليهم دعوتهما الإلهية بحججها وبراهينها الجديدة، لكن القوم وأسيادهم واجهوهما بالصد والإعراض ومن ثم بالقوة والقتال، كما هي عادة جميع الناس في كل زمان ظهر فيه رسول جديد عليهم وبينهم، وكيف حصل بين الطرفين تلك المواجهة وذلك اللقاء مما دفع بموسى(ع) إلى رمي عصاه من يده لينقلب إلى ثعبان كبير يتلوى بين ثعابين السحرة وحيّاتهم، ويلتهم ما يقف ويظهر أمامه من ثعابين سحرة فرعون واحداً تلو الآخر، كما قال تعالى (**فَأَلْقَى**

عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)[1]. وكيف خرج موسى بقومه (بنو إسرائيل) من أرض مصر لينقذهم بعدما كانوا عبيدا أقنانا ليجتاز بهم البحر بينما جيوش فرعون تسعى جاهدة خلفهم تحاول اللحاق بهم للنيل منهم ومحقهم، كما قال تعالى **(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا)**[2]. وكيف شق وفتح موسى(ع) مياه البحر وفلقها إلى نصفين بضربة عجيبة من عصاه ليمتد أمامه طريقاً برياً وسط مياه البحر يعلو جانبيه جداران جباران من المياه وكأنه يسلك واديا عميقا وسط جبلين شاهقين، كما قال تعالى **(فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)**[3]، مما مهّد له ولقومه اجتياز البحر إلى الضفة الثانية. وعندما همَّ فرعون ورجاله اللحاق بالهاربين سالكين نفس الطريق البري (البحري)، إذا بمياه البحر تنطبق عليهم من الناحيتين وتغرقهم جميعاً وتفنيهم عن بكرة أبيهم، كما قال تعالى **(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ)**[4].

إن هذه القصة تبدو في شكلها الظاهري قصة جميلة مثيرة للإعجاب تبعث في ذات القارئ ونفس السامع قوة روحانية داخلية خلاّقة تدفعه للإيمان بالله وقوته وعظيم معجزاته.

لكنا لو نظرنا إليها من ناحية أخرى، نجد للقصة منظور آخر قد يكونا أكثر قبولاً عند من بقيت علامات الاستفهام توقد وتضيء في جنبات أذهانهم وثنايا عقولهم قد توضح بعضاً من معانيها السامية المقدسة بمفاهيم أخرى قد تزيد من ثبات الناس على الإيمان بالله ورسوله وتزيدهم إيقانا فوق إيقانهم.

وفي الحقيقة، لولا أن جاء ذِكر هذه القصة العجيبة على ألسنة رسل الله وأنبيائه الصادقين، وثبتت تفاصيلها في مدونات كتب الله المقدسة، لما تقبلها أو صدّقها كل هذا الكم الهائل من الناس ومن بينهم العقلاء والعلماء، لما فيها من أحداث عجيبة تخالف ميزان العقل والقوانين الطبيعية. لكن المشكلة تكمن في السؤال التالي، مَنْ ذا الذي يجرؤ على هذا القول؟ ومَنْ ذا الذي يستطيع تقديم معنى ديني علمي جديد لقصة زاد عمرها عن ثلاثة آلاف سنة وتداولتها ألسن الناس جيلاً بعد جيل من مختلف الديانات والمعتقدات؟! فمن أصعب المهام على المثقفين أو المفكرين بل وحتى على الفلاسفة تجديد مفاهيم الناس وتحسين أخلاقهم وإحياء ضمائرهم وتصحيح قصص تراثهم وتبديل عادات مجتمعاتهم، لذلك لا غرو أن توكل مثل هذه المهام الصعبة الخارقة إلى رسل الله وأنبيائه الكرام؟

من المهم أن نعلم أن الكتب السماوية المقدسة السابقة ورغم أنها كانت تقدم في كل مرة منهجا إلهيا بديعا ودستورا سماويا جديدا كلما نزل منها كتاب جديد، إلا أنها بقيت تأخذ في الاعتبار ما يتواجد بين الناس من معتقدات قديمة وتراث موروث لتجدده وتضيف إليه، ولم تكن تبتعد كثيرا أو تنفصل عن تراث تلك الأمم وموروثات أساطير شعوبها وقصصهم، بل بقيت متصلة بواقع حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم لتوضيح فكرة عميقة أو نكتة مطلوبة دقيقة. وإذا تذكرنا أن الثعبان كان يعتبر من الحيوانات المقدسة عند قدماء المصريين كما هو الحال مع بقية الحيوانات عند غيرهم من بقية شعوب الأرض، لما يبعثه هذا المخلوق من مظاهر الخوف والرهبة في قدرته على الولوج بخفة وهدوء إلى مضاجع البشر ومساكنهم، فيسلب حياتهم بصمت وسكون دون الشعور به بعدما يأتي زاحفاً من المجهول ويعود إليه، وانه كان منتشر بشكل واسع في ثنايا الأرض وفي بيوت الناس القديمة وكهوفهم المظلمة بشكل يصعب تفادي أذاه وخطره، وإذا تذكرنا أن كتب الله وأديانه ما هي إلا مناهج تعليمية تربوية إلهية متسلسلة للبشر تربط بين أزمان الماضي والحاضر والمستقبل. إذا علمنا كل هذا، علمنا أن ورود هذا المخلوق كمثال في قصة موسى(ع) قد يكون له ارتباطا بهذه الخلفية بشكل من الأشكال.

لننظر إلى أحداث هذه القصة القديمة من زاوية أخرى، فلو افترضنا على سبيل المثال، أن من معاني هذا (الثعبان) الكبير القوي الذي جاء بها سيدنا موسى(ع)، هو ثعبان مبادئ الشريعة الإلهية العظيمة للدين اليهودي، أو هو تشبيه للقوة الخارقة التي يمنحها سبحانه وتعالى لرسله الكرام لتساعدهم على نشر أديانهم بين الناس، أي هو تعبير مجازي لطريقة واسلوب ثعبان الشريعة السماوية لقدرتها العظيمة على التغلغل والتسلل بخفة إلى نفوس الناس وعقولهم وضمائرهم لهدايتهم إلى الصراط المستقيم في كل زمان. أو هو تشبيه لعموم شرائع الله حينما تنزل من سماء الغيب على صدور رسل الله الكرام دون أن يعلم الناس بزمن نزولها قبل إعلانها سوى الرسل أنفسهم. ومن المهم هنا أن نتذكر أن الله سبحانه وتعالى قد بجّل وعظّم شريعة التوراة في قرانه الكريم كثيرا كما في قوله تعالى **(وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ . مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ)**[5] وفي مقام آخر **(قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ)**[6].

وعلى ذات المنوال، فلو قلنا كذلك أن من معاني (ثعابين السحرة) الضعيفة الصغيرة، هي المعتقدات أو التفاسير أو الأوهام البالية العتيقة لشريعتهم السابقة المعششة في ثنايا عقولهم وعقول أتباعهم منذ مئات أو آلاف السنين والتي لم تعد تنفع في تمشية

أمور مجتمعهم بعدما ضعفت يد قدرتها ووهنت قبضة هدايتها وقلَّ شأنها وحضر أجلها، بل وأمست من الأسباب الجوهرية لما يعيشوا فيه من تخلف روحاني وإيماني بعد بعادهم عن سواء السبيل والصراط المستقيم.

وان من معاني (السحرة) هم علماء الدين القديم الذين كانوا يجيدون سحر عقول الناس وتجميدها وتحنيطها بخيوط اجتهاداتهم وحبال علومهم وفتاواهم وسلاسل تفاسيرهم الفاسدة؛ وان من معاني (البحر) الذي فلقه وشقّه سيدنا موسى بعصاه، هو بحر الأوهام والظنون والخيال، وهو يمّ الاعتقادات الخاطئة والإلحاد، وهو بحر الكفر والفساد والإشراك بالله، فكل هذه بحور متلاطمة يسبح بها الناس ويتيهون في أرجائها وهم راكبين سفن تفاسير جبال رجال دينهم؛ أما من معاني (البر) الذي كان يعيش فيه فرعون وقومه وسحرته والذي تركه وهاجر عنه سيدنا موسى(ع) ومن آمن به من قومه، فهو بر الكفر والإلحاد وأرض العناد والضغينة والتعصب، وهو صحراء الجفاء والكراهية، وصعيد العبودية وشاطئ الأهواء الشيطانية؛ وان معاني (البر الثاني) الذي انتقل إليه موسى(ع) وقومه، فهو بر الإيمان والتوحيد والاعتقاد بالله الواحد، وهو أرض المحبة الجديدة الخالصة والأخوة الدينية الحقيقية وشاطئ شريعة الله الحق الجديد وساحل الإيمان والحرية الفكرية؛ وأن من معاني

(العصا) التي رماها سيدنا موسى(ع)، إنما هي إشارة إلى عصا شريعته القوية الجديدة التي كان يهش بها أغنام مؤمنيه وخراف أتباعه ويوجههم نحو صراط الله المستقيم المحتوي على كل ما يحتاجه العباد من أحكام ونواه في ذلك الزمان بعدما نسخت وضعفت ثعابين أحكام شريعتهم وفسدت وماتت حيّات تفاسيرهم القديمة، كما قال تعالى **(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)**[7]؛ وإذا علمنا أن الإشارة إلى يد سيدنا موسى(ع) البيضاء، كما قال تعالى **(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)**[8] إنما هي دلالة على يد الخير وقبضة الإيمان وكفّ العطاء وراحة الطهارة وساعد القوة وعضد العظمة التي ستقدم للناس الشريعة البيضاء الطاهرة المقدسة السمحاء، وهي دليل التقديس التي تتمتع بها أيدي جميع رسل الله، وليست إشارة محددة إلى اللون والصبغة.

لو أخذنا أحداث هذه القصة العجيبة بهذه الطريقة، لوجدنا فيها معان أقرب إلى المعقول والعقلانية مما دأبنا على تداوله وتكراره منذ قديم الزمان، تفسيرا يمكنه تجسيد المعاني الروحانية الكبيرة لهذه المعجزة الربانية العظيمة، وبهذا يتضح وبشكل من الأشكال ما قصده رب العباد عندما قال انه لا يستحي من ضرب الأمثال **(إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ)[9]، ونتأكد أنه سبحانه وتعالى يتكلم على قدر عقول البشر ومقادير إدراكهم في الأزمان الخالية، كما قال تعالى **(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً)**[10]، وكما قيل (حدثوا الناس على قدر عقولهم) فكلما توسعت مدارك الناس وكبرت مساحة تفكير عقولهم، ضاق رداء علوم تفاسير رجال دينهم القديم على مساحات عقولهم وقلوبهم، لذلك ينزل سبحانه وتعالى قماش شريعة جديدة وحلّة مقدسة طاهرة زاهية الألوان والصبغات حتى يتزين بها الناس ويأخذ منها كلا منهم ما يتناسب مع حجم عقله وهيكل فؤاده، كما قال تعالى **(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)**[11].

وعلى أساس ما تقدم يمكن توضيح هذه القصة العجيبة وإيجازها بالشكل التالي: من المعلوم أن سيدنا موسى(ع) كان متهماً بجريمة قتل قبل فراره من أرض مصر وتوجهه للسكن في أرض مدين، كما اعترف بذلك أمام رب العباد، في قوله تعالى **(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)**[12]، وعندما شاءت الحكمة الإلهية اختياره رسولا كريما، كان لابد من تبرئته من هذه

الجريمة أمام نفسه وأمام عيون من سيؤمن بدعوته مستقبلا، بعدما أمره رب العباد بالتوجه إلى فرعون وقومه لتبليغ رسالته، لذلك قال تعالى (**اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**)[13]، ففي هذه الكلمات المباركة بيان واضح يفصح عن تنقية نفس موسى(ع) وتطهيرها من مشاعر الذنب التي اعترته من فعلته السابقة، بعدما تساءل عن كيفية اختياره لهذه المهمة الشريفة المقدسة ويداه ملطختان بدم نفس إنسان، كما قال تعالى (**قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ**)[14]. فلو كان القصد من كلمة (سوءٍ) في الآية الكريمة هو عملية التنظيف المادية أو إزالة الأوساخ والأتربة بالماء والصابون، لقالت الآية الكريمة بطريقة فصيحة (من غير أوساخ، أو من غير أتربة) إذ ليس من الصعب على لسان عظمة القدرة الإلهية استخدام الكلمة المناسبة في المكان المناسب؛ وفي الحقيقة لقد اختيرت الكلمة المناسبة بالفعل، فالقرآن الكريم حجة ومعجزة إلهية في اللغة العربية، لذلك جاءت العبارة (من غير سوء)، أي من غير ذنب، وهذا دليل على التبرئة والعفو والغفران الإلهي.

ولمّا أمر سبحانه وتعالى سيدنا موسى(ع) بإعلان الدعوة اليهودية إلى فرعون وقومه واصطحاب أخيه هارون معه لمساعدته، كما قال تعالى (**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**)[15]، وكذلك (**فَأْتِيَاهُ**

فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى)[16]، ذهب موسى(ع) وأخيه إليهم وهما يبدوان في غاية الضعف والعجز الظاهري أمام قوة فرعون وجبروته وأعداد جيوشه الجرارة **(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي)**[17]، لكنهما كانا في ساعة المواجهة واللقاء في غاية الثبات ورباطة الجأش ووقفا أمام تلك الجموع الغاشمة الظالمة بكل جرأة وقوة وصلابة، وواجها حشود علماء الدين وأتباعهم والسحرة ومريديهم وجنود فرعون الأشداء وعبيدهم، وليس بيدهما سلاح سوى آيات الله وإيمانهما بدعوتهما الجديدة.

ولما تمت المقابلة.. وأمر فرعون ببدء المناظرة والنقاش والمقارنة وتقديم الحجج والأدلة والبراهين بين أحكام (دينه) وبين دعوة موسى(ع)، كما أشار سبحانه وتعالى إلى ديانة فرعون السابقة **(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ)**[18]، وعندما فتح فرعون باب الحوار والنقاش والمحاجة لتفريق الحق عن الباطل . وهذا يوضح بشكل من الأشكال، أن فرعون رغم كل ما اشتهر به من ظلم وتعسف وغطرسة وغرور وتكبر، كان يؤمن بمبادئ حرية الفكر وحرية الكلمة والعقيدة وفسح المجال للرأي والرأي الآخر . ظنَّ علماء (الديانة السابقة) والسحرة من الذين عاشوا وتربوا لمئات

السنين في ظل قواعد وآداب وأحكام ديانتهم العتيقة التي لم يشاهدوا غيرها في حياتهم ولم يسمعوا من آبائهم وأجدادهم سوى تمجيدها وتقديسها ورفع شأنها، والتي دافعوا عنها بدمائهم وأرواحهم ضد كل من كفر بها وحاربها باعتبارها دين الله الحق في زمانهم، أنها لابد وأن تكون هي الأصلح والأقوى، وان أفكارهم ومبادئهم ومعتقداتهم وتفاسيرهم هي الأسمى والأعلى، واعتقدوا موقنين أن حيّات اجتهاداتهم الدينية وثعابين علومهم الدنيوية سوف تلتهم وتبتلع بكل يسر وخفة أمر موسى وثعبان دعوته بسرعة كبيرة، لظنهم أنها دعوة باطلة عقيمة ضعيفة، كما سبق والتهمت ثعابينهم وحيّاتهم العديد من حيّات البدع وثعابين المعتقدات الباطلة؛ ولمّا لم يفهموا أن عهد وزمان معتقدات ثعابين شريعتهم قد انتهى وولى ونسخ، وان الله أظهر ثعبان دين جديد، وان المدد والدعم والتأييد الإلهي قد تحول عن ثعابين دينهم المنسوخ الميت إلى ثعبان الدين اليهودي الجديد الحيّ، وان الله قد تخلى عن أمتهم ومن دان تحت لواء شريعتهم، وتبنى برحمته مولود ثعبان أمة جديدة، بعدما كانوا مؤمنين بالله وعاملين بأحكام شريعته السابقة لمئات السنين، ولأنه سبق ونصرهم ونصر دينهم القديم في كثير من المواقع والحروب والمواجهات ضد كفار زمانهم، فذلك التأييد الإلهي السابق الطويل الأمد كان يدفعهم للظن باستمرار على صحة اعتقادهم وأحقية دينهم ومصداقية شريعتهم، وأنه من المستحيل أن يبعث الله دينا جديدا بعد دينهم ولا

رسولا بعد رسولهم، واعتقدوا أن موسى وأخيه ليس لهما علم مسبق بما يملكوه من علوم وحقائق دينية، وأنهم إذا أظهروا حيّات حججهم وادعاءاتهم وقدموا ثعابين أفكارهم وتفاسيرهم في ساحة المحاجة والنقاش قبل أن يرمي موسى(ع) عصا شريعته أو يقدم حججها ويظهر أحكامها، فإنهم سيتغلبون ويفوزون عليه بسهولة ويسكتوه ويفحموه وينهوا دعوته ولن تبقى له حجة عليهم، وبذلك يفرحون قلب فرعون ونفوس قومه **(فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)**[19].

لكن الذي حدث كان عكس كل ما توقعوه، كما قال تعالى **(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)**[20]، فعندما اجتمع الفريقان في يوم الاحتفال الكبير الذي أراد فيه فرعون إظهار أحقية دينه وصحة معتقداته على رؤوس الأشهاد، كما قال تعالى **(قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى)**[21]، وقف موسى وأخيه في جانب الحق والإيمان، بينما جلس فرعون وسحرته على مقاعد الضلالة والجدال **(فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)**[22]، وحال صدور إشارة البدء بالنقاش، راح كبار السحرة من رجال دين فرعون كعادتهم يعيدون ما فتئوا يرددونه منذ مئات السنين من أفكارهم وموروثاتهم عن أحقية دينهم وخلوده. وعندما جاء دور سيدنا موسى(ع)، رمى بعصا ثعبان أفكاره الإلهية

الجديدة، وأطلق تنين حججه وبراهينه المؤيدة من عند الله **(فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)**[23]، عندها راح ثعبان أفكار ومعاني آيات العقيدة الإلهية الجديد القوي المليء بالحجج والبراهين والأدلة الصحيحة، يلتهم ويدحض ويحرق ثعابين أفكارهم وحيّات عقائدهم البالية الضعيفة بسرعة كبيرة ويفنّدها ويحطمها ويظهر تفاهتها وقلة بضاعتها وعدم توافقها مع ما استجد من تطورات مجتمعهم، مما أدهشهم وجعلهم حائرين لا يعرفون الرد أو الإجابة على ما يعرضه عليهم من أحكام ونواه وتفاسير وبيانات جديدة تحررهم من أغلال أحكام دينهم ووثاق تعصبهم وأصفاد تقاليدهم القديمة المستحكمة في أيديهم وأعناقهم منذ قديم الزمان، وأسقط في يدهم وفشلوا فشلاً ذريعاً مما لم يترك أمام البعض منهم سبيلا إلا الرضوخ للإيمان وتصديق موسى(ع) ورسالته وترك ديانة فرعون القديمة، كما قال تعالى **(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)**[24] بعدما ظنوا أن لا رسول بعد رسولهم ولا دين بعد دينهم ولا شريعة بعد شريعتهم، وأنهم كانوا وما زالوا يناصرون دين الله الحق ويدافعون عنه، وينفذون عملاً مباركاً عظيماً يرضي رب العالمين في الدنيا والآخرة وله أجر كبير عند رئيسهم وكبير دينهم فرعون، كما قال تعالى **(وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)**[25].

ثم أن هذه الآية الكريمة تشير من ناحية أخرى إلى حالة من الضعف والتردي الروحاني تصيب حتى كبار رجال الدين فيها، وتعتبر من الأسباب المهمة الداعية إلى تبديل الديانات ونسخها وحلول ميقات زمن تبديلها بأخرى غيرها، فرجال دين فرعون وسحرته قد بذّلوا الغاية الحقيقية من نزول شريعتهم الروحانية، من هداية الناس للصراط الإلهي المستقيم إلى أهداف مادية ومصالح شخصية من خلال اشتراطهم على فرعون الفائدة المادية إذا ما فازوا في مناقشتهم مع موسى(ع). كما أن موافقة فرعون على مقترحهم هذا، يشير أيضا إلى أن فرعون كان من ذات طينتهم ومن نفس صنفهم، فهو يعلم أن أساس عرشه بات يرتكز على مركزه الديني بين قومه، فإذا ما زال حجر الأساس هذا، فإن ملكه لا بد وآيل إلى زوال، لذلك فهو يعدهم بمكافئات مادية دنيوية.

فلما شاهد فرعون عجز رجال دينه عن مواجهة حجج الدين الجديد، غضب غضباً شديداً على كل من سارع وآمن منهم بدعوة موسى(ع)، وتوعدهم بالويل والثبور والعقاب وقال **(لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)**[26]، وطلب من وزيره هامان أن يعقد مجلساً دينياً كبيراً وصرحاً علمياً واسعاً برئاسته، يحضره كل من بقي متمسكاً بشريعته القديمة من علماء وسحرة أمته، ليتشاوروا في أمر موسى(ع) ودعوته وفي كيفية غفلتهم عنه

وارتكابهم مثل هذا الخطأ الجسيم، وليبحثوا في كتب عقيدتهم ومجلدات تفاسيرهم البالية عن أي علامة أو إشارة تشير أو تبشّر بظهور دين جديد بعد دينهم، كما قال تعالى **(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ)**[27]، في هذه الآية الكريمة، يقول فرعون: يا أيها الناس، طالما تعترفون أنني مليككم وكبير علماء دينكم الوحيد، وأن قداسة ملكي وحكمي مستمدة من قداسة الآلهة، وأنني الناطق الأعلى بأمر الله في الأرض، فإني أطلب من وزيري هامان أن يجمع ويهيأ لي من كتبنا وأبحاثنا وتفاسيرنا ما يمكنني من البحث والاستقصاء عن سرّ ظهور مثل هذا الأمر الخطير، وكيف غفلنا نحن وأجدادنا عنه طوال هذه المدة، عسى أن أجد فيها ما يشير إلى دعوة موسى أو ما يفندها، رغم أنني أظنه من الكاذبين، وأثق أنه لم يسبق لي أن قرأت شيئاً عن هذا الأمر ولا إلى ما يشير إليه **(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ)**[28].

لكن بعضا من سحرة العقول والقلوب . وكما هو ديدن بعض علماء الديانات القشريين الذين يتصادف ظهور ديانات جديدة خلال حياتهم . تمسكوا بتقاليدهم وأفكارهم العتيقة ولم يجدوا غير سبيل القوة والقتال كحل أخير لمقابلة الفكر الجديد ووأده. فأهاجوا أتباعهم

وجمعوا شملهم ورصوا صفوف جنود الكفر وفيالق الإلحاد. فلما أدرك موسى ما يخططون له وما يعدون العدة إليه، قرر جمع شمل المؤمنين من أتباعه والخروج بهم من وسط بحر هؤلاء الكفرة ومن أرض أفكار الضلالة والكفر القديمة وقيادتهم إلى أرض الإيمان والهداية، فضرب بعصا دينه الإلهية بحر ظنونهم ويم كفرهم ومياه إلحادهم وماء قلزم عقائدهم البالية العتيقة وبحيرة تفاسيرهم الخرافية وسحرهم الكاذب، فشقّه وفلقه وقسمه إلى نصفين . وهذا دليل على بداية زمان انهيار صرح شريعتهم وبداية نهاية أجلها ونهاية حضارتهم المشهودة . وبذلك استطاع المرور بقومه المؤمنين والنجاة بهم وإعادة فكرة توحيد الله بين الناس بعدما فاض بحر الكفر وسادت مفاهيم الشرك والإلحاد بين فرعون وقومه، وبعدما اتبعت كل مجموعة منهم طريقة رجل دين أو مذهب ساحر. فعبر موسى بأتباعه إلى بر الأمان والإيمان والإيقان وترسخت تعاليم الدين الجديد في أراضي قلوب الناس التي هي أوسع من هذه الأرض الترابية.

وعندما تمسك فرعون وجنده بحبال العناد وسلاسل التعصب، وربطوا أنفسهم طواعية بأصنام أحكامها، وبعدما خرج المؤمنون الجدد من بحر الكفر، كان لا بد لبحر الكفر العتيق بمائه الأجاج أن يطبق على كل من بقي متمسكا به ليفنيهم ويبيدهم عن بكرة

أبيهم ويمحو اسمهم ويطفئ نار دينهم ويخمد لهيبه ويدثر ذكره وذكرهم. ومنذ تلك الساعات بدأ ثعبان الوهن والضعف يسمم جسد أمتهم ويشتت شملها ويفت في عضدها، ومع مرور الوقت أمست أمة فرعون من الأمم الخالية القديمة، ولم يتبق منها إلا العبرة والأطلال لمن يعتبر من بعدها، كما حصل لمن سبقهم من الأقوام الكافرة، وكما قال تعالى **(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)**[29].

من المعلوم تاريخيا أن هناك عدد كبير من ملوك الفراعنة الذين اعتلوا عرش مملكة مصر الفرعونية القديمة، ومن المؤكد أن منهم من عاش أو مات قبل أو بعد ظهور سيدنا موسى(ع)، أما هذا الفرعون الذي عاصر زمن ظهور الديانة اليهودية، فيبدو أنه اكتشف في نهاية الأمر أن دين موسى هو دين حق من عند الله، فآمن بدعوته وشهد أن الإله الذي يسجد له ويتعبده، هو ذات الله رب موسى(ع)، وأدرك أنه كان غافل عن حقيقة سنة الله في تسلسل أديانه وتعاقب شرائعه، لذلك نجد إشارة إلى أيمانه في الآية الكريمة عندما أعلن تسليم عقله وقلبه لرب العالمين وإيمانه بدين موسى(ع)، كما قال تعالى **(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ**

فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)[30]، لكن يبدو أيضا أن الله سبحانه وتعالى لم يقبل من فرعون هذه التوبة المتأخرة بعدما حارب دينه وجادل آياته وقتل مؤمني ديانته **(أَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)**[31]، لذلك كانت العقوبة الربانية هي ترك جسده كالميت يتحرك بلا روح ايمانية، كما قال تعالى في شأن من كان على شاكلته في زمن سيدنا محمد(ص) **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)**[32]، وكذلك قوله الكريم **(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**[33]، حتى يبقى ذكره وأفعاله مثلاً وعبرة لمن يأتي بعده ممن سيكررون مخالفة أمر الله ويعارضونه حين ظهوره، لأن هذا هو ديدن الناس من قبل ومن بعد، كما قال تعالى **(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ)**[34]، لذلك قال تعالى في شأن فرعون **(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)**[35].

ولهذا التفسير أو الطرح الجديد، دليل علمي آخر يؤيده، وهو أن الفراعنة اشتهروا بتسجيل دقائق أمور دينهم ودنياهم وأحوال أممهم ودولهم وتواريخ ملوكهم وفراعنتهم وشعوبهم بدقة كبيرة، كما تشهد على ذلك سجلاتهم وتواريخهم وآثارهم المكتشفة اليوم داخل أهراماتهم وقبورهم، ولقد استطاع الباحثون الجيولوجيون وعلماء الآثار قراءة تسلسل تاريخ حياة ملوك الفراعنة وعظمائهم بشكل كامل تقريباً، وصرحوا وأشادوا بدقة آثارهم وكتاباتهم التي حفروها على الصخور وتعجبوا منها. فإن كانت هذه القصة العظيمة (قصة موسى) قد وقعت مثلما تناقلتها الكتب السماوية بحذافيرها الشكلية الظاهرية، كما قال تعالى **(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)**[36]، فكيف لم يسجل الفراعنة كل هذه الأحداث العجيبة ولم يؤرخوا مثل هذا الحدث العظيم الجلل في سجلاتهم التاريخية وكيف غفلوا عنها؟ خاصة وأنهم لم يكونوا يعلمون أن كل تلك الرزايا والبلايا كانت بسبب رفضهم واعتراضهم وكفرهم بدين سيدنا موسى(ع)، ولو كانوا يعرفون ويفقهون، لما أصروا على الكفر بدعوته ولآمنوا به اجتنابا لكل تلك البلايا النازلة عليهم من رب السماء بسبب اعتراضهم. وهذا ما يدفع ويشجع في البحث عن معاني روحانية أخرى لهذه القصة الإلهية العجيبة.

من هذا يفهم أن لقصة سيدنا موسى(ع) معاني إيمانية روحانية عميقة، يمكن الاستفادة منها في تقوية جذور الايمان وبعث الروح في قلب كل مؤمن موقن بقدرة الله وقوته وعزته وحكمته في تكرار سنته الدائمة المتغيرة المتجددة في كل زمان.

الحواشي

(1) سورة الشعراء، الآية 32.
(2) سورة يونس، الآية 90.
(3) سورة الشعراء، الآية 63.
(4) سورة البقرة، الآية 50.
(5) سورة آل عمران، الآيتان 3،4.
(6) سورة الأنعام الآية 91.
(7) سورة طه، الآية 18.
(8) سورة الشعراء، الآية 33.
(9) سورة البقرة، الآية 26.
(10) سورة الإسراء، الآية 85.
(11) سورة الحج، الآية 11.
(12) سورة القصص، الآية 33.
(13) سورة القصص، الآية 32.
(14) سورة القصص، الآية 30.
(15) سورة طه، الآية 43.
(16) سورة طه، الآية 47.
(17) سورة طه، الآية 42.
(18) سورة غافر، الآية 26.
(19) سورة يونس، الآية 80.
(20) سورة يوسف، الآية 21.
(21) سورة طه، الآية 59.
(22) سورة الشعراء، الآية 38.
(23) سورة طه، الآية 20.
(24) سورة الشعراء، الآية 46.
(25) سورة الأعراف، الآية 113.
(26) سورة الأعراف، الآية 124.
(27) سورة القصص، الآية 38.
(28) سورة غافر، الآية 36.

(29) سورة النحل، الآية 36. (30) سورة يونس، الآية 90.
(31) سورة يونس، الآية 91. (32) سورة الأنفال، الآية 32.
(33) سورة الأنعام، الآية 33. (34) سورة البقرة، الآية 87.
(35) سورة يونس، الآية 92. (36) سورة الأعراف، الآية 133.

الفصل السادس

قصة النبي سليمان(ع)

تمتلئ قصة النبي سليمان(ع) بأحداث عجيبة تعد في بعض وقائعها وأحداثها أغرب من الخيال، مما قد لا تتفق في كثير من أحداثها وشخصوها وتفاصيلها مع العلم والمنطق السليم، فمن مخاطبته للطيور بلغاتها وأصواتها إلى مكالمته للحيوانات العجماء بصياحها وهمهمتها إلى تعامله مع الحشرات إلى تسخير الجن والعفاريت وغيرهم من المخلوقات الغيبية لخدمته وراحته إلى غير ذلك من الأمور العجيبة التي لم يحض بممارستها أو بخدمتها حتى أفضل الخلق وأشرفهم، سيدنا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام. بل على العكس، فجميعنا يعلم كم هو حجم معاناة

المصطفى وما لاقاه من أذى واعتراض وصل إلى مستوى التآمر على حياته ومحاولة قتله في فراشه.

وكما ذكرنا أن مثل هذه القصص اللطيفة ما كانت لتبقى في أذهان الناس وذاكرتهم كل هذه الدهور الطويلة وتعيش كل هذا العمر المديد لولا تدوينها وتسطيرها في الكتب الإلهية المقدسة، وبهذا يتضح أنها كانت ولا تزال طريقة إلهية ناجعة لتربية البشر ودفعهم لإجراء الأعمال الصالحة الطيبة لخدمة أنفسهم ومجتمعاتهم، وهذا ما فتح باباً واسعاً للرواة والكتّاب والقصاص والحكواتية إلى إضفاء صور مضخمة لأحداثها ووقائعها وتطريز حواشيها بمختلف أشكال الذيول الأدبية اللطيفة والإضافات اللغوية الجميلة والألوان القصصية الزاهية ليستفيدوا من وقائعها وأحداثها في تقوية أواصر الأيمان والإيقان في نفوس الناس، فراحت هذه القصص تنمو وتتسع لتتوافق مع مستجدات الزمان والمكان وتغير مستوى الأحوال الاجتماعية حتى لبست حللاً مختلفة الأشكال بعيدة بشكل أو بآخر عن حقيقة أهدافها وأسباب نزولها، إلا أنها بقيت تحمل ذات جواهر المعاني القديمة بين طياتها، وهذا ما يذكرنا بقوله تعالى **(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً)**[1]، فهذه الآية الكريمة تصوّر ضمن ما تصوّر ما يحدث على مرّ السنين لمياه كلمات الأمثال السماوية

العذبة وزلال القصص الجميلة المقدسة وفرات النصائح والآيات والأحكام الإلهية القيّمة حال ووقت نزولها من نبع سماء الرفعة وعين الحكمة الربانية بعدما يتناولها الناس ويتقبلونها كل حسب نباتات معتقداته القديمة وزروع تراثه المتداولة وفسائل عادات مجتمعه المتوارثة وأحجام أوعية قدراته العقلية؛ ومع مرور الزمن، يختلط هذا الماء الزلال المقدس النازل من سماء الغيب بما سبق ونبت في عقول الناس ونفوسهم من نباتات التراث المتوارث وحشائش المعتقدات القديمة السابقة، مما يؤدي في النهاية ومع مرور الوقت إلى تغيّر طبيعة هذا الماء الزلال وتبدّل خواصه وذهاب نقاوته وابتعاده عن حقيقة مقاصده بعدما تذروه وتعصف به رياح الأهداف البشرية وتبعثره زوابع المقاصد الدنيوية وتتلاعب به مصالح الناس الشخصية، وبهذا تحقّ عليه سنّة الله في التجديد والتبديل حالما يصل إلى نهاية مساره ونقطة مصبه واكتمال تحقق أهدافه، فيعود هذا الماء الإلهي المقدس ليتبخر من جديد حتى يتخلص مما اختلط به وشابه من هشيم نباتات الأفكار البشرية وزبد التراث والأوهام الإنسانية ويتطهر ويتنقى وهو يعلو من جديد إلى سماء التقديس، ثم ليعود وينزل على رؤوس الناس وأراضي قلوبهم طاهراً نقياً مرة أخرى لم تمسسه يد إنس ولا جان حتى يكون فيه شفاء للناس من أمراضهم الاجتماعية وليعود ويختلط بنباتات أفكارهم وعاداتهم وتراثهم مرة أخرى.

ومع كل ذلك، نعود للتساؤل من جديد: هل لمثل هذه القصة القديمة وأحداثها الغريبة مفاهيم أخرى، أم هي أحداث واقعية حقيقية حصلت للنبي سليمان(ع) في قدم التاريخ كما وصلتنا بتفاصيلها؟

من المعلوم أن سليمان(ع)، لم يكن نبياً من عند الله فقط، بل كان ملكاً عظيماً أيضا، حكم أمة كبيرة لفترة طويلة وكانت له مملكة قوية واسعة الأطراف، وبغض النظر عن مكان ملكه واسم شعبه وموقع مملكته، إن كان في فلسطين أم في مكان آخر، فهذا موضوع خارج نطاق هذا البحث؛ إلا أننا نعلم أن مقر عرش الملكة بلقيس شريكته في قصته المميزة كان في أرض سبأ من بلاد اليمن.

فلو أخذنا القصة بمفهومها التاريخي، لأدركنا جانبا مهما من جوانبها، فطالما أنها تتكلم عن أهم مؤشرات حياة النبي سليمان على الأرض، فهذا يعني أن سليمان كان ما يزال يدعو الناس إلى دينه وشريعته ليثبتها في قلوبهم، ومن الفحوى أيضاً يتضح أن القصة تتكلم في نصفها الثاني عن عمر دعوته، أي أنها تتعدى وتتجاوز فترة حياته العادية قبل إعلانه دعوته، وتبتعد عن زمن دعوته السرية التي مر بها جميع الرسل والأنبياء وتركز على زمن دعوته العلنية، بل وتتعدى هذا الجزء لتتكلم عن الجزء الأخير من حياته حينما كان الدين اليهودي يلاقي صدى وقبولا بين الناس بعدما راحوا يدخلون في دين الله أفواجا، أي أن القصة تصوّر فترة استقرار الديانة اليهودية في الأرض وفي قلوب الناس. إذن فالقصة

تتكلم عن الجزء الأخير من حياة النبي والملك سليمان بعدما آمن بدينه غالبية من كان يخضع لحكمه في أرجاء مملكته واستتب الأمر له.

من المعلوم أن ظهور أي رسول أو نبي قديم، كان قد سبقه أو لحق به ظهور رسول أو نبي آخر، وبهذا يمكن القول أن جميع الأمم القديمة كانت تؤمن بالإله الواحد بشكل من الأشكال أو تعتبر من أهل الكتاب أو تابعة لدين سماوي وعلى الخصوص الأمم التي كانت موجودة في زمن النبي سليمان، بعدما كانت فكرة عبادة تعدد الآلهة منتشرة في قديم الزمان، كما أكد على ذلك قوله تعالى في مخاطبته لسيد المرسلين **(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ)**[2]. وبهذا نستنتج أن أمة مملكة سبأ التي عاصرت زمن سليمان كان لها دين سماوي وأنها وصلت حسب التدرج التاريخي إلى أعلى مراتب عزتها وقوتها وإلى أقصى قمة شأنها الحضاري، وهذا ما يؤكده قوله تعالى **(قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)**[3]. وفي هذه المرحلة بالتحديد، أي في نهاية حياة أمم أصحاب الكتاب، لا يتبق للعيان أو الباحثين من بعدهم أي أثر واضح لقوة الدين الروحانية المعنوية التي ساهمت في إيجاد وبناء حضاراتها المادية، بل كل الذي يتبق هو الآثار المادية من عمل يد الإنسان، باعتبارها آثاراً ملموسة تبقى قائمة شاخصة على الأرض لفترة طويلة من بعد زوال

تلك الأمم كما هو الحال مع بقايا الحضارات القديمة القائمة اليوم في العراق ومصر والصين والهند ..الخ، وهذا الأثر المادي في حقيقته هو الذي يلفت انتباه الباحثين والعلماء والجيولوجيين ويبعدهم بشكل من الأشكال عن حقيقة مساهمة العامل الإيماني والفاعل الروحاني والدافع الديني في رفع شأن الأمم القديمة، لأن هذه العوامل المعنوية لا ترى بالعين المجردة وتختفي وتضمحل بالتدريج من نفوس العباد ومن ثم يعلو ويطغي عليها بروز آثارها المادية.

فلو انتبهنا إلى قصص الرسل والأنبياء في القرآن الكريم، لوجدنا أن أحداثها تركّز على الدوام في الإشارة والكلام عن فترات ظهور الرسل وأزمان وجودهم على الأرض، وبهذا نستخلص أن الكلام الإلهي في حقيقته وأصله يشير عن المراحل الفاصلة أو يتكلم عن حلقات الربط بين حضارة ديانة قائمة ستدخل أمتها قريبا وبالتدريج مرحلة الزوال والاختفاء حال تكذيب رسولها التالي، كما قال تعالى **(ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ)**[4]؛ وفي نفس الوقت يتكلم عن أمة جديدة فتية في طور الخلق والتكوين والولادة ستؤسس مع مرور الوقت حضارة قوية تالية، وندرك كذلك أن الأمة السابقة لن تنجو من مصيرها المشئوم ومن زوال عزتها، إلا إذا آمنت برسالة السماء التالية، لأن ظهور كل رسول تالي، إنما هو كمجيء معلم جديد لمراقبة مستوى تلاميذ معلم السنة

الماضية، فيأتي غريب عنهم لا يعرفونه، لكنه يملك الحق والقوة لاختبار حقيقة دراستهم وأيمانهم من خلال تصديق أو تكذيب دعوته، فمن لم يسع ولم يجتهد ولم يدرس خلال سنته الماضية، سيرسب ويتوقف تعليمه ويتدنى مستواه لا محالة، بينما ستعلو وترتفع منزلة كل طالب درس وفهم واستوعب منهج رسوله السابق وسيجتاز الامتحان النهائي ليرتقي إلى المستوى التالي، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى **(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ)**[5].

إن هذا التسلسل التاريخي لظهور أديان الله، يفسر جزءا مهما من جوانب قصة النبي سليمان، فهو نبي كريم كبقية أنبياء الله، ظهر ودعا الناس للإيمان بدين الله والعودة لعبادة الفرد الواحد الأحد وترك تبعية أوثان رجال الدين وأصنام سحرة العقول والقلوب. ومن المعلوم أنه في مثل هذه المرحلة الفاصلة، ينقسم الناس إلى فريقين، فئة باسلة شجاعة قليلة العدد تتجاسر وتتقدم للأيمان الجديد وتفضله على معتقداتها البالية وطقوسها القديمة مستعدة للتضحية بكل غال ونفيس لنشر أمر الله، وفريق آخر محافظ كثير العدد يبقى متمسكا بما وجد عليه آباؤه وأجداده، كما قال تعالى **(هذا ما وجدنا عليه آباؤنا..)**. وبعد استقرار شجرة الدين في أراضي قلوب العباد والمؤمنين، يكون الفريق الأول على الغالب قريب من مركز الدعوة وقطبها، بينما يكون أغلبية الفريق الثاني من القاطنين في

الأقاليم البعيدة التي تنضوي تحت ألوية أديان قديمة أخرى، وهذا ما يفسر بشكل من الأشكال سبب وجود أمم بعقائد قديمة حتى زمننا الحاضر.

من بين تلك الأمم القديمة، كان شعب مملكة سبأ وعلى رأسها ملكتهم المشهورة في القصص القديمة باسم بلقيس، فلقد كان شعبها كما يروى عنهم يتعبدون آلهة الشمس ومجموعة من الأوثان والأصنام، كما قال تعالى **(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ)**[6]، وكما سبق وقلنا أن هذا أمر طبيعي يحصل مع كل أمة من أمم أصحاب الكتاب بعدما يطول عمر دينها وترتخي قبضتها عن عروة الأيمان بتوالي أجيالها، لذا تشاء الإرادة الإلهية نسخ أوامر وطقوس الدين والشريعة السابقة، وتبديلها بماء دين سماوي آخر جديد ينزل من بعده، بعدما تعتق أديانها وتنسخ شرائعها ويستولي رجال دينها وسحرتها ومشعوذيها على عقول الناس وأفكارهم وعقائدهم، وكما أكد على هذا التبدل البطيء قوله تعالى **(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)**[7]. فالملكة بلقيس وأمتها كان لهم دين سماوي قديم تحول مع مرور القرون إلى أوهام وخرافات وأباطيل، وهذه هي الفترة التي تدل دائما على توقع ظهور رسول أو نبي جديد يجدد الأيمان والرحمة في قلوب الناس ويعيدهم إلى فكرة التوحيد وعبادة

الله الواحد، فالله سبحانه وتعالى طالما ذكّر عبيده بأنه لم يسبق أن تركهم لوحدهم دون هداية متجددة تنزل من سماء قدسه أو هبوط كتاب جليل أو ظهور رسول مبارك يمهد لهم سبل تجديد الأيمان، كما قال تعالى **(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُوراً)**[8].

إذن فالقصة تبدأ بتصوير حضارة أمتين من أمم أصحاب الكتاب الخالية، أمة سليمان اليهودية الجديدة وهي في عز قوة حضارتها، وأمة سبأ القديمة وملكتها بلقيس التي كانت تعيش أواخر أيام حياة شريعتها، الأولى عاشت في أرض الشام، والثانية سكنت أرض اليمن.

ومن هذا يمكننا تصور المسافة الشاسعة بين الأمتين وما يفصل بينهما من صحارى ووديان وجبال، وما تحتاجه عملية التواصل بينهما من قطع لكل تلك المسافات الطويلة، هذا إذا أخذنا في الاعتبار سبل المواصلات القديمة البطيئة، وهذا ما يفسر استغراق الشرائع والأديان في قديم الزمان للوقت الطويل في الانتقال من إقليم إلى آخر ومن أمة إلى أخرى، وبهذا كان لا بد لهذا الوقت الطويل وتعدد أفكار الناقلين وأمزجتهم وخلفياتهم الفكرية والثقافية من المساهمة بشكل أو بآخر، قليلا أو كثيرا، في تبدل أو تغيير أصل الأحكام والنواهي المنقولة وأفكارها الجوهرية.

وفي قصتنا، يكون من الوارد جدا أنه قد حصل التالي في تفاصيل أحداثها، فقد تكون شريعة سليمان ودينه قد انتشرا في الأراضي القريبة والمناطق المحيطة بها، ولما يكن خبرها قد وصل إلى أرض اليمن بعد. لذلك فالقصة تتكلم عن حكاية ابتداء انتشار دين سليمان (اليهودية) إلى أقصى جنوب غرب ما يسمى اليوم بشبه الجزيرة العربية، لأنه من المعلوم أن هناك علاقة جذب وانجذاب بين روحانية الأديان وأرواح البشر، كما هو الحال مع قطعة المغناطيس وبرادة ذرات معدن الحديد، فالأديان تنزل للبشر فقط وليس لغيرهم من مخلوقات الله سبحانه وتعالى، فحيثما تكون التجمعات البشرية تتجه وتنزل الأديان، فالهدى والأيمان وتنوير العقول ورفع مستوى الناس هو من أهم غايات الشرائع السماوية وأهدافها الأساسية.

ومن المعلوم أن الناس يخلقون من أشكال ومعادن وصور وهيئات مختلفة وأرواح متباينة القوة، وأبدان تتراوح بين القوة والضعف والصحة والسقم، وعقول تتسم بتنوع قواها المعنوية في حدة الذكاء والنباهة أو البلادة والحماقة، وهذه التصنيفات المتباينة في درجاتها وأشكالها وصورها، هي صفة عامة تشترك بها جميع الأمم، فلا يخلو شعب من الشعوب من هذه الشرائح المتباينة. وبذلك قد يكون هذا التناقض والاختلاف بين قدرات الناس وأشكالهم في قصة النبي سليمان، هو مفتاح الحل الذي يفسر سرّ قدراته

الخارقة في القصة على مخاطبة المخلوقات بمختلف أشكالها وأنواعها. أي أن المناقشات والحوارات التي كانت تجري بين النبي سليمان وبقية الحيوانات، إنما هي في حقيقتها إشارة إلى حوارات جرت بينه وبين بقية البشر بمختلف قدراتهم العقلية والذهنية وليس مع الحيوانات البكماء بالتحديد. فلو نظرنا إلى ما تتميز به الحيوانات من صفات ومزايا تشتهر بها، لوجدنا أن شخصية الإنسان لا بد وأن تمتلك أو تحوز شيئا منها بقدر مقدور، كالذكاء والحيلة والخداع واللطافة والشراسة واللؤم ..الخ. وبما أن النبي سليمان، مثله كمثل بقية الأنبياء، لم يظهر إلا لمخاطبة البشر وهدايتهم، وليس لهداية الحيوانات؛ لذا فمن الوارد جدا أن شخصيات الحيوانات في هذه القصة، إنما هي استعارة رمزية لشخصيات بشرية، وهذا ما يؤيده قوله تعالى عندما يمثل الكافرين من البشر ببقية الحيوانات **(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)**[9]، فالإشارة في هذه الآية الكريمة، جاءت على الكافرين من الناس، فهي تذمهم لغبائهم وعدم استعمالهم عقولهم في تمييز كلمة الحق الإلهية، وكما قال تعالى **(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)**[10]، فهذه الآية الكريمة أيضا تستعمل كلمة دابة وكلمة طير لتصف بها الإنسان وأمم البشر، فليس غيرهم من يحشر إلى

الله في يوم القيامة ليحاسب على أفعاله وتصرفاته، وما سبب ذلك إلا لامتلاكهم قوة العقل التي حرمت منها بقية الحيوانات. فالقرآن الكريم يمتلئ بمثل هذه التشبيهات حيث يشبه المؤمن الموقن في بعض الأحيان بالطير، وذلك لعلو منزلته ورفعة شأنه عند خالقه، ولسموه عن الشؤون الأرضية ومغرياتها الدانية، كما قال تعالى **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)**[11]، لأنه من المعلوم والبديهي أنه لا يسبح الله سبحانه وتعالى ولا يشكر نعمه إلا الإنسان مخلوقه العاقل. كما أن الطير ليس له صلاة ولا تسبيح، لأن مصدر هاتين الفريضتين هو الدين والرسول، وليس هناك دين نزل من عند الله للحيوانات ولم يسبق أن بعث رسول مرسل إليهم. إذن فالمقصود من الطيور الصافات في صلاتهم، هم العباد من البشر الذين عاشوا ويعيشون بين الأرض والسماء، فهم المخلوقات الوحيدة العالمة بتفاصيل صلاتها وتسبيحها والمدركة لأهدافها كل حسب شريعته وطقوسه وأحكامه، والله هو العالم بما يخفون ويجهرون وهو الذي يحاسبهم على تصرفاتهم.

وبنظرة سريعة إلى مجتمعات البشر، نجد أن بعضها ما زال يستعمل بعض الصفات والنعوت الحيوانية على بعض المواليد، فلو رافقنا طفل مولود وهو ينمو ويكبر، لشاهدنا وسمعنا الصفات التالية: يتقلب ويتلوى في مهده مثل السمكة.. وما زال صغيرا مثل

عصفور.. وهو يحبو مثل السلحفاة.. ويتكلم مثل البلبل.. ويركض مثل الغزال.. ويتقافز مثل القرد.. وحرارته مرتفعة مثل النار.. أو منخفضة كالثلج.. وهو ذكي كالجنيّ.. ومؤذي كالشيطان.. وطيب القلب كالحمامة.. يحب إخوته ويحنو عليهم كالدجاجة.. ويتعلم بسرعة البرق.. لكن أذناه طويلتان مثل أذنا الأرنب.. ومخادع مثل ابن آوى.. وسريع كالطير أو الغزال.. وحكيم كالحيّة.. وقوي كالحصان.. ومشهور كالعَلَمْ.. ومعروف كالجبل؛ وأن ساقا هذه البنت طويلة كسيقان الزرافة.. ووجهها جميل صبوح مثل القمر.. وشعرها أسود مثل الليل.. وعيونها كعيون المها.. وفمها صغير كاللوزة.. ورقبتها طويلة كالناقة.. وبيضاء كالبطة.. وسوداء مثل الفحم.. وسمينة ممتلئة مثل البقرة إلى غير ذلك من التشبيهات التي تختلف باختلاف لغات الشعوب وعاداتها وتقاليدها وآدابها.

لذلك ولقدم تاريخ تناقل قصة النبي سليمان بين صفحات تراث الشعوب وآدابهم.. أفلا يمكن أن يكون ما ورد وتداخل فيها من أحداث هو نوع من التشبيه أو التمثيل لمستويات ودرجات شخصيات أفراد قومه، خاصة عندما نجد مشابهات له في القرآن الكريم حينما يصف غباوة وعناد بعض الناس بالدواب والحيوان، كما قال تعالى **(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)**[12]، وما جاء هذا التشبيه إلا لتصوير شريحة الناس الذين لا يؤمنون بكلمة الحق عند ظهورها، فهم عند رب العباد بدرجة

الدواب ومستوياتها لابتعادهم عن فطرة الإنسان الحقيقية. أما عندما يمثل سبحانه وتعالى المؤمنون بالطيور، فهذا أمر آخر، إنه نوع من المديح، فهي إشارة جميلة تشير إلى علو مقامهم وارتفاع شأنهم الروحاني بين غيرهم من بقية الناس، كما قال تعالى **(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)**[13]، وهنا جاء التمثيل والتشبيه واضحاً بين الفريقين، فلقد شبه البشر بالدواب مرة وأخرى بالطير، وما هذين الصنفين من المخلوقات إلا إشارة إلى الكافرين والمؤمنين، فالدواب تتأثر كثيراً بموجودات الأرض ومغريات الحياة، بينما تسمو الطيور عن عالم التراب الداني وتبقى متعلقة قدر الإمكان بعالم الرفعة والسمو. فالقرآن الكريم يستعمل مثل هذه التشبيهات الصريحة الواضحة في مخاطبته للناس على مختلف درجاتهم الروحانية والعقلية والإيمانية.

أما عندما نقرأ قوله تعالى **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)**[14]، نفهم أن كلمة الطير ما هي إلا إشارة صريحة إلى المؤمنين عند اصطفافهم للصلاة والتعبد، لأن الطير لا يفعل ذلك ولا يصلي ولا يسبح ولا يصطف، وهذا ما يسلط النور على أحد جوانب معاني الآية المباركة الأخرى **(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)**[15]، فالنملة هنا قد تمثل أي

امرأة أو أي إنسان ضعيف بسيط لا حول ولا قوة له مثلما هو حال النملة الضعيفة، فهذا الشخص (النملة) يفصح عن مقدار ضعف أيمانه ومعتقداته في مواجهة جنود جيش حجج وبراهين وأدلة دين سليمان، فهو عاجز عن المواجهة ويفضل الانسحاب بعيدا نائيا بنفسه عن النقاش واللقاء محتفظا بما وجد عليه آباؤه وأجداده من دين وتراث.

من المعلوم أن كل دين لاحق يأتي بأمور جديدة تتناسب مع تقدم العقل والفكر الإنساني ومجتمعاته ويوضح ويبين في نفس الوقت ما سبق وعسر فهمه على أتباع الدين أو الأديان السابقة، ولا شك أن القرآن الكريم يوضح بصورة من الصور ما ورد في كتب الأولين ويبين رموزها بمقدار ويوضح صورها بدرجة أعلى مما سبقه، فالأديان والشرائع السماوية إنما هي دروس تربوية متسلسلة المراتب والعلو تتناسب مع تقدم الزمان وتطور العقول البشرية، لذلك نجد لهذه النقطة المهمة مكاناً مناسباً بين آياته الكريمة، فهو يتسلسل بهم ويتدرج مرتفعاً معهم ولا يقفز بالأفكار والمفاهيم بشكل سريع أو مفاجئ ليتخطى تراثهم وعاداتهم أو معتقداتهم – التي إن استمرت وبقيت وإذا ما تركت على حالها في بعض الأحيان حسب الحكمة الإلهية – فلن تؤثر على حقيقة أيمانهم، وما هذا التدرج في عملية الانتقال والتحويل إلا لتخفيف قوة الصدمة عليهم التي تدفعهم

في كثير من الأحيان وحسب شواهد التاريخ إلى محاربة الرسل والأنبياء.

فعلى سبيل المثال كان عرب الجاهلية يؤمنون بقوى الجن والعفاريت والشياطين وقوة السحر، وكانوا يهتمون بالتنجيم ومواقع الكواكب، ويعشقون اللغة العربية والشعر، ويتباهون بكثرة الأموال والأولاد، ويتعلمون الفروسية والطعن والقتال منذ نعومة أظفارهم، ويشربون الخمور ويعشقون النساء ويئدون البنات ويؤرخون بالتقويم الهجري القمري ويحجون إلى بيت الله في مكة.. لذلك نجد ذكر كل ذلك وغيره بدرجات مختلفة في القرآن الكريم، بل وجاءت الشريعة الإسلامية مكملة وموافقة للبعض منها.

إذن يمكن القول أن أمة النبي سليمان، هي أمة مثلها مثل غيرها من بقية أمم الأرض، كان بينهم طيور المؤمنون الذين سارعوا لاعتناق دعوته والتشبث بأذيال يقينها، وكان بينهم دواب الكافرين ممن أعرضوا عنه ولم يؤمنوا بدينه، وكذلك كان بينهم من هم لا من أولئك ولا من هؤلاء ممن لم يتخذوا لهم رأيا محددا تجاه شريعته، وهؤلاء يمثلون بقية أصناف مخلوقات الأرض، وكأنهم بهذا الاجتناب، لا وزن ولا رأي لهم في مثل هذه الأمور الروحانية الخطيرة ومن المؤكد أن لهم دورا آخر بين البشر سيثمر ويظهر في وقته المناسب.

وبالرجوع إلى الكتب القديمة، وبغض النظر عن قدسيتها أو درجة صحتها، نقرأ أن الملكة بلقيس تطرح على النبي سليمان عند أول لقائهما سؤالاً صعبا أو لغزاً محيرا لتختبر حقيقة دعوته، فيجيبها عليه بقوله: إنه سائل النفط. ورغم قلّة شأن السؤال أو الجواب على الظاهر، إلا أنه يلقي بعض النور على مستوى حضارات الأمم القديمة. فهو يعني أن الملكة وقومها في جنوب الجزيرة العربية، وكذلك النبي سليمان وقومه كانوا قد عرفوا مادة النفط واستعملوها. فإذا علمنا أن النبي سليمان عاش قبل ولادة السيد المسيح(ع) بعشرة قرون، نفهم أن ذلك السؤال قد طرح قبل ثلاثة آلاف سنة من تاريخ اليوم، وهذا يعني أن مادة النفط كانت منتشرة الاستعمال بين الناس آنذاك. فإذا علمنا أن أرض الشام وأرض اليمن من الأراضي الشحيحة بهذه المادة، وإذا علمنا أن أرض العراق كانت تشتهر به منذ ذلك الوقت، وأن النفط كان ينضخ ويخرج في بعض المناطق العراقية الشمالية لوحده ودون جهد إنساني، وأن شعلته كانت تبقى متقدة ومشتعلة على الدوام. إذا علمنا كل هذا، علمنا أن الإنسان القديم عرف الوقود السائل قبل آلاف السنين، وبالتالي عرف كيف يصنع النار، ونستنتج أن العراقيون كانوا يتاجرون بهذه المادة ويصدرونها إلى بقية الشعوب من حولهم، وقد يكون شعبا اليمن والشام من ضمنهم، وبهذا لا بد وأنهم قد استعانوا بالسفن المكسوة أحواضها بالقار أو بالجلود

المدبوغة في نقلها. وما دام الأمر كذلك، فيمكن القول أن مادة النفط قد وصلت إلى غيرهم من شعوب الأرض، مثل الهنود والصينيين واليونانيين والرومان. من كل هذا لا يستبعد أن تكون مادة النفط قد كانت . مثلما هو حال اليوم . من أحد أسباب اشتعال الحروب وقيام الغزوات بين تلك الأمم القديمة لما لهذه المادة الحيوية من أهمية كبيرة في حياتها. وبهذا نستنتج أيضا، أن النفط والوقود السائل لم يكن غريبا عن الحضارات القديمة المنتشرة في تلك العصور السحيقة وانه قد استخدم بشكل واسع، إضافة إلى ما كانت تشتهر به أرض الشام من استعمال لوقود زيت الزيتون في الإنارة والإضاءة وصناعة الشموع، وبهذا يمكن التكهن أن عمر حضارات البشر قديم جدا لا يمكن تصوره أو تحديده ببضعة آلاف من السنين كما يقول به البعض.

كل هذا يثبت بشكل من الأشكال، قوة سبل الاتصال والتواصل – رغم ما تستغرقه من وقت طويل – بين شعوب تلك الأمم القديمة وتأثير حضارات بعضها على بعض، فمن كانت مساحة دولته بهذه السعة والانتشار، فلابد أن تكون لها اتصالات واسعة بغيرها من الأمم، خاصة ومملكة النبي سليمان كانت تقع شرق سواحل البحر الأبيض المتوسط مما يسهل عليها الاتصال بحضارات الفراعنة غربا عن طريق البر والبحر، والسومريين والبابليين شرقا عن طريق البر، واليونانيين والإغريق والرومان

شمالا عن طريق البر والبحر، والأحباش جنوبا عن طريق البر والبحر ونهر النيل، وبحضارة الفرس الملتصقة بأرض الرافدين، هذا إذا لم تمتد أكثر من ذلك لتتصل بأرض الهند وما يتاخمها، وانه مثلما كانت بين تلك الشعوب فترات حروب ونزاع وغزوات تخرب وتدمر مدنها وحضاراتها وتسفك الدماء وتنشر القتل بين سكانها، كذلك كانت بينها فترات طويلة اتسمت بالتعاون التجاري والاقتصادي والزراعي والثقافي في أيام سلمها وهدوئها.

وإذا علمنا أن عمر أقدم الحضارات البشرية المعروفة يعود في بدايته إلى ستة آلاف سنة، كالحضارة البابلية والسومرية والآشورية والكنعانية والفارسية والفينيقية والفرعونية، وأن من أهم اكتشافات البشرية التي ساهمت في تقدم شؤونها، هي معرفة كيفية استخدام النار، أدركنا أنه من الوارد جدا أن تكون تلك الشعوب قد عرفت النار عن طريق النفط الذي بقي يشتعل ذاتيا على سطح الأرض في بعض المناطق دون المساس به، وانه من الممكن أن يكون زمن ظهور النفط ومعرفة الإنسان به وبفائدته وأهميته قد تزامن مع ظهور الحضارات البشرية القديمة المعروفة، ومن غير المستبعد أيضا أن يكون قد ساهم هذا الاكتشاف بشكل كبير في قيامها ونمو قوتها وتشييد صروحها.

* * *

عندما حلّت إحدى المناسبات الدينية أو القومية العامة بين شعب النبي سليمان، واجتمع الناس للاحتفال في ذلك اليوم، وحضر الملك إلى بلاطه وجلس بين كبار قومه، كان لابد أن يكون بين الحضور من حوله خيرة رجاله وكبار أعلامهم وصفوة رجاله من وزراء وأمراء ووزراء وعلماء دين ورجال سياسة وحكمة وعلم ومن طبقات الموسرين والتجار وأولي الشأن وشيوخ العشائر ورؤساء القبائل ثم أصحاب المهن والحرف والكسبة وصغار التجار وكذلك عامة الناس، فالحشد كان عاما شاملاً، صغاراً وكبارا، علماء وطلاب، مؤمنين وغير مؤمنين، وبهذا كان من الوارد جدا تمثليهم بمختلف المخلوقات.

فإذا لم ننس أن الناس ما زالوا حتى اليوم يسمون أبنائهم بأسماء بقية الحيوانات والطيور، مثل: صقر، غراب، ظبية، حمامة، أسد، عباس، ضيغم، ضرغام، حنش، نمر، فهد، ذئب ..الخ، وأن هذه المسميات قد تختلف وتتنوع حسب اختلاف اللغات أو تزيد وتقل نسبتها استنادا إلى درجة وعي المجتمعات ونسبة تعلقهم بتراثهم، علمنا أنه من الوارد أن تكون هذه المسميات مألوفة بين أمة سليمان وغيرها من بقية الأمم آنذاك.

هنا نعود إلى طيور المؤمنين وأسودهم وحيتانهم، فعندما تفقد النبي سليمان أتباعه المؤمنين وراح يسأل عنهم وعن أحوالهم، كما قال تعالى **(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنْ**

الْغَائِبِينَ)[16]، لم يجد بينهم المؤمن (هدهد)، وقد يكون قد غاب أو سافر منذ مدة طويلة لأمر من الأمور ولم يكتشف غيابه ولم يعلم به إلا خلال فترة الاحتفال. وعندما استفسر عنه، لم يستطع أحد من الموجودين أن يخبره بمكانه. عندها استغرب من غياب المؤمن هدهد عن مناسبة مهمة دينية مقدسة كهذه، وتساءل عما يكون قد منعه من حضورها؛ فقد يكون لمثل هذا الغياب في عرف أولئك القوم آنذاك تفسير خطير.

وعندما عاد المؤمن (هدهد) من سفرته الطويلة وعلم بسؤال الملك عنه واستفساره عن سبب غيابه، ذهب من فوره للقاء مليكه والمثول بين يديه. وهنا يخبر المؤمن مليكه أمرا لصيقاً بمهمته النبوية الدينية، وأنه قد أكتشف خلال سفرته الطويلة جنوبا أمة من الأمم ما زالت بعيدة عن دين الله الحق ولم تسمع به، وأنها ما زالت تتبع ديانة سماوية قديمة تبدل جوهرها وفسد أيمانها وتحول أتباعها من فكرة التوحيد إلى عبادة الشمس والأوثان والتعلق برجال الدين والسحرة، وأنها حاليا تتخذ لها ملكة تحكمها وتجلس على عرشها، كما قال تعالى **(إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ)**[17].

يبدأ الملك الحكيم في البحث عن أنجع السبل لدعوة هذه الأمة الضالة البعيدة إلى الأيمان، فيفكر في أول الأمر في إرسال رسالة إلى الملكة بيد الرجل هدهد مكتشفها الأول، لما له من سابق معرفة بقومها، كما قال تعالى **(اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ)**[18]، فيمتثل الهدهد لأمر مليكه ويسافر مرة أخرى عائدا إلى بلاد اليمن ليوصل رسالة نبيّه ومليكه، وعندما تسلمت الملكة رسالة النبي سليمان، أعلنت ذلك لقومها، كما في قوله تعالى **(قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)**[19]، ثم راحت تتشاور مع كبار قومها في هذا الأمر الخطير و **(قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ)**[20]، وهذا دليل على رجاحة عقلها وحسن تدبيرها وأيمانها بمبدأ الحوار والمشورة(*). فيساور قومها بذور الشك في أمر هذا الملك النبي، ويتحاورون معها في كيفية معرفة حقيقته، وإذا ما كان ملكاً كغيره من ملوك الأرض له غايات دنيوية أو أطماع في مملكتهم وخيراتها، أم هو نبي حق من عند الله لا يبتغي من وراء دعوته إلا هدايتهم لطريق الإيمان. ويذكروها بقوتهم وشجاعتهم وإمكانيتهم في محاربته والانتصار عليه إذا ما قررت هي الحرب والتصادم معه **(قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ)**[21].

ويبدو أن الملكة كانت امرأة حكيمة وعلى علم مسبق بنتائج الحروب وما يفعله الملوك المنتصرون من تخريب ودمار للبلدان والشعوب التي ينتصرون عليها وكيف يستعبدونها، **(قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)**[22].

وبعد تفكير طويل، توصل الجميع إلى طريقة يتمكنون بها من التمييز بين النبي والملك، فقرروا إرسال قوافل من الهدايا الثمينة المحملة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة مما تشتهر به أرض اليمن حتى اليوم **(وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)**[23]، فإذا رضي الملك سليمان بالهدايا وكفَّ عنهم وتركهم لشأنهم، فهو إنسان عادي وملك من ملوك الأرض يبحث عن السيطرة والتوسع والمال. أما إذا رفضها وردها وبقي يدعوهم إلى اعتناق دينه، فهو نبي من أنبياء الله، لأن الأنبياء لا يلتفتون إلى شؤون الدنيا وأموالها، بل تتركز أهدافهم على الروحانيات والمعنويات وما غايتهم إلا فتح معاقل العقول وقلاع القلوب وحصون أنفس العباد لهدايتها.

عندما وصلت النبي سليمان قوافل الهدايا، أدرك الحكمة من إرسالها والغاية منها، فردّها إلى أصحابها بمجرد وصولها وهو يشير بصورة من الصور إلى ما أتاه الله من خير الأيمان ونعمة الدين التي لا تقدر بثمن ولا تساويها كنوز الأرض جميعا **(فَلَمَّا**

جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ)[24].

وبعودة قوافل الهدايا إلى أصحابها، يكتشف أهل اليمن أن سليمان ما هو بملك كسائر الملوك، بل هو نبي حقيقي من عند الله، انتخبه قومه ليكون ملكا عليهم. لذلك قرروا أن يرسلوا له رسولاً يخبره بعزم الملكة وحاشيتها لزيارته في بلده.

أراد النبي سليمان أن يبتدع اختبارا أو طريقة يفاجئ بها الملكة وحاشيتها لكسب عقولهم وقلوبهم تحثهم على الإيمان بدينه، فكان لابد له أن يعرف بعض الأوليات عن دينها وعن عبادة قومها وطقوسهم قبل وصولهم وقبل أن يعرض عليهم الإيمان بدينه.

فالتفت في إحدى جلساته إلى من حوله في محضره من جبال رجال الدين وجنّ العلماء الذين يغوصون في كتب العلوم والتاريخ ويسبحون في بحور أسفار الشرائع والأديان، ليسألهم إن كان قد سبق لأحدهم أن علم شيئاً عن ديانة قوم اليمن وملكتهم **(قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)**[25]؟ أي هل بينكم من سبق له وعلم بجوهر أحكام عرش ديانتهم القديمة، وما هو ملخص فكرة عقيدتهم وخلاصة طقوسها، وما هي حقيقة الأمر الذي يستند عليه عرش أيمانهم؟

فكّر العلماء وأطرق حكماء النبي سليمان، ثم قال أحدهم ممن اشتهر بكثرة علومه وسعة اطلاعاته وغوصه في بحار الكتب

والمكتبات: **(قَالَ عِفْرِيتٌ مِنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)**[26]، أي بإمكاني أن أشرح لك موضوع عقيدتهم وحقيقة عرش ديانتهم بتفاصيله الدقيقة خلال جلستك هذه وقبل أن تقوم من مقامك هذا.

لم ينته العالم الأول من كلامه وإبداء رأيه حتى برز عالم كبير آخر من علماء الأمة، وكان على درجة كبيرة من المعرفة وسعة الاطلاع ليعلن **(قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)**[27]، أي يمكنني شرح موضوع عرش عقيدتهم وما يستند عليه جوهر شريعتهم لك بكلمة واحدة وبسرعة ارتداد طرف عينك: (مشركون). إنهم قوم مشركون.

من المهم جدا هنا، محاولة إيجاد العلاقة التاريخية أو معرفة الرابطة القديمة بين الإنسان وبقية المخلوقات الغيبية مثل الشياطين والجن أو الجان، لما لذلك من أهمية كبيرة في توضيح فصول هذه القصة القديمة. فعلى سبيل المثال، عندما نقرأ قوله تعالى **(وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ)**[28]، نفهم لأول وهلة أن من مزايا الشياطين هو البناء والتعمير، لكننا نتراجع قليلا عن هذا المفهوم باعتبارنا غير واثقين أن لها أيدي وسواعد لتبني أو تعمر بها. هذا بالإضافة إلى أنها شياطين.. لا تعمّر بيوت الإيمان ولا تبنيها، بل المعروف عنها ضلال العباد وتخريب بيوت أيمانهم. كما أنه من

المؤكد أنها عاجزة عن السباحة أو الغوص في الماء باعتبارها مخلوقات نارية مخالفة بجوهر طبيعتها لمادة الماء.

أما عندما نقرأ قوله تعالى **(وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ)**[29]، فنتوقف عند كلمة (نار) السموم، إذ ليس هناك نار سموم وأخرى نار ترياق أو ضمراء إكسير. لكننا إذا قلنا أن صفة الجنّي أو الجان قد تطلق على بعض الناس لما يبدو أو يظهر من تصرفاتهم إن كانت جيدة أم سيئة، يتضح أن هناك معنى آخر يمكن التطرق له.

فمثلا قد نقول عند التشبيه والاستعارة: فلان له ذهن وقّاد أو برّاق. ونقول أيضا: نار الذكاء ونيران الفطنة وضمراء سموم الأفكار السيئة وزؤان الكراهية وشوك الشكوك ورماح الفتن والخصومة. ومثلما يختلف العلماء والمفكرون بمختلف درجاتهم في نواياهم ومقاصدهم، فمنهم المؤمن الخيّر الذي يسعى لصلاح الناس ومجتمعاتهم، كذلك هناك الشرير السيئ ممن يسعى لتخريب المجتمعات ومحاولة السيطرة على أرزاقهم وموارد هم المادية والروحانية. كذلك هناك منهم **(وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ)**[30]، ونتساءل مرة أخرى: إذا كانت الشياطين والجان مخلوقات نارية أو مخلوقات معنوية غير مادية، فكيف يمكن أن يوثقوا بالأغلال أو يقرنوا بالأصفاد؟ وكيف للأصفاد والأغلال المادية أن تثبت على أيديهم أو رقابهم؟

لكننا إذا أدركنا التشبيهات القرآنية، وأدركنا أن الله ورسوله يكلمان الناس على قدر عقولهم، وأدركنا أن القرآن الكريم يضرب للناس من كل مثل لعلهم يعقلون، أدركنا أن الجان ما هم إلا كبار القوم وعلماء الأمم، وما ورد تمثيلهم بهذه المسميات إلا لعلو مقاماتهم ومقدار تأثيرهم على تقدم المجتمعات أو تخلفها. فهم بمنزلة العقل لروح الإنسانية وبمنزلة المخ لجسدها، ولأنهم يجنّون ويخفون أفكارهم في عقولهم ولا يظهروها إلا ساعة النطق بها؛ فإن كانوا مؤمنين، كانوا من الأخيار، أما إذا كانوا كفار، كانوا من الأشرار.

من هذا نفهم أن أغلالهم وأصفادهم ووثاقهم، ما هي إلا حبال أفكارهم وأصفاد معتقداتهم وأغلال نظرياتهم وسلاسل موروثاتهم وخيوط عناكب أفكارهم التي يوثقون أنفسهم ويقيدون أتباعهم بها ولا يبتغون الإنعتاق أو التخلص منها بمشيئتهم وإرادتهم حتى لو مدَّ لهم غيرهم يد المساعدة للتخلص منها، لما توارثوه عن آبائهم وأجدادهم من المفاهيم الصدئة القديمة، كما قال تعالى **(.. وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)**[31].

هذه هي أشكال الأصفاد الفكرية والأغلال المعنوية التي يوثق بها شياطين العلماء وجن رجال الدين أنفسهم وأتباعهم، وإلا

فلو كانوا كائنات مخلوقة من هذه النار التي تحرق كل شيء، فلا يمكن والحالة هذه توثيقهم وإغلالهم وإقرانهم بالأصفاد والأغلال.

(فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)[32]، إذن هذا هو ملخص الموضوع وجوهر فكرته، فلقد اتضح لسليمان أن عرش بلقيس وما تستند عليه في حكمها لقومها، هو الشرك والضلالة والكفر، وهذه هي نقطة الخلاف وجوهر الفرق بين شريعة قوم اليمن وملة سليمان؛ انه يسأل عن عرش دينها وجوهر شريعتها، ولا يسأل عن عرش ملك مرصع بالجواهر والدرر ومحلى بالفضة والذهب.

فلما اتضح الموضوع لسليمان، وعرف أن قوم سبأ يتبعون ديناً قديما وشريعة منسوخة منذ زمن بعيد، وان جوهر عقيدتهم قد تغير وتحول إلى أوهام وخرافات وأنهم يخوضون في بحور الشرك والضلالة. شكر وحمد ربه على ما هو عليه وقومه من أيمان وهدى، وتحركت في بحر صدره أمواج التبليغ وهاجت في روحه رياح دعوة الناس إلى دين الله. فطلب من علماء ملته أن يبتكروا طريقة ذكية ليمتحنوا بها الملكة ومن سيرافقها من علماء أمتها بشؤون دينهم وعلومه **(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنْ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ)**[33]، أي انتخبوا واختاروا من جواهر آيات كتابنا ودرر أحكام ديننا ما يشابه آيات عرش دينهم وأحكام

شـريعتهم ويتوافـق معهمـا، واعرضـوه علـيهم، فـإن كـانوا مـؤمنين حقيقيين، فسينتبهون لتشابه كلمات الله وآياته في الدينين، وسيقولون **(وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)**[34]، أي أن هذا هو كلام الله، وهو من ذات المصدر الإلهي، وهو شبيه لما عندنا في القوة والروحانية، وبذلك سيؤمنون بديننا، لأنهم سيكتشفون أنه مكمل لدينهم وعقيدتهم. أما إذا كانوا متعصبين ومغالين لشريعتهم، فسيصدون عنه ولن يؤمنوا به.

وبما أن كل أمة تالية من أصحاب الكتاب تكون أوسع علما من الأمة السابقة لها، استطاع علماء أمة سليمان تنفيذ أمر سليمان وتجهيز بعض درر الآيات وجواهر الأحكام المشابهة لآيات وأحكام دين وشريعة الملكة بلقيس، ليختبروا بها علية قوم اليمن وكبار رجال دينهم. وقالوا فيما بينهم: إذا انتبهوا لما هم عليه من وهم وأباطيل وعرفوا الحق والهدى وتقدموا للأيمان بدين سليمان الجديد، فقد حق المراد وانتهى الأمر. وإلا فهم على ضلالة كبيرة وعلينا التوسع في تعليمهم الدين الجديد.

فلما قدمت الملكة وقومها وجلست واستقر بها المقام، وحان وقت مقابلة الملك وكبار جنّ علمائه لمناقشة أمور الدين والشريعة.

سألها الملك سليمان وأتباعه بعدما شرحوا لضيوفهم أصول دين التوحيد وجوهر حقائقه وأصل الأيمان:

(فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ)[35]؟ أي أهكذا هو أصل دينك وجوهر عرش شريعتك الذي تستندين عليه في حكم قومك، أم لا؟

(قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)[36]، أي: كأنه هو نفس الدين وذات الأيمان ومن نفس الأصل والمصدر، ولقد كنا مسلمين مثلكم مسلّمين قلوبنا وعقولنا إلى الله رب العالمين، لكنه يبدو أن أحوال شريعتنا وأصولها قد تغيرت مع مرور الزمان وتوالي الأجيال وابتعدنا عن حقيقتها وتمسكنا بكلام رجال ديننا وسحرة عقولنا ممن توالى ظهورهم بيننا، ولما لم نسمع بدين جديد آخر ظهر من بعد ديننا، ولما لم نفهم أن سنّة الله سبحانه وتعالى تقضي بالتطور والتجديد واستمرار نزول الأديان السماوية، فها أنا وقومي نعترف أمامكم إننا كنا حتى هذا اليوم قوم كافرين على ضلال، جاهلين بقدرة الله على بعث رسالة جديدة بعد ديننا.

(وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ)[37]، في هذه الآية المباركة يتضح أن الملكة وقومها لم يتقدموا إلى الأيمان على الفور، بل تمهلوا قليلا وتريثوا للتحقق من

صدق دعوة النبي سليمان ودينه، فلقد عزَّ عليها وعلى قومها ترك دين آبائهم وأجدادهم إلى دين جديد.

فلما سمع النبي سليمان ورجاله وعلمائه منها ومن قومها هذا الاعتراف الصريح بكفرهم، عرضوا عليهم الأيمان والاعتراف بدينهم والانضمام إلى ملتهم: **(قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ)**[38]، أي ادخلي صرح قلعة الأيمان ومدينة الدين الحق.

(فَلَمَّا رَأَتْهُ)، أي فلما تعمقت وتفهمت أمور الدين أكثر مما سبق وبشكل أفضل **(حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا)**[39]، أي تبين لها ولقومها كم كان مقدار خطأهم وغفلتهم في فهم أمور دينهم، وانكشفت لهم أباطيل ما كانوا يعتمدون ويتكئون عليه من أعمدة التفاسير وسيقان التأويل وكم كانت كتب تفاسيرهم مليئة بباطل الأفكار وبدع الأوهام، ومع مرور الوقت تبين لها كم هي عميقة وواسعة بحور أسرار الأديان وكم هو مقدار غفلة الناس عندما يظنون أن آياتها بسيطة المعاني ضحلة الأعماق.

فقال لها سليمان عندما رآها متعجبة منبهرة من روعة الدين الجديد ومن قوة أحكامه ونقاوة مياه أيمانه وصفائها: **(قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ)**[40]، أي أنه ماء دين خالص نقي صاف زلال لم تتكدر مياه تعاليمه بعد ولم تدخله شوائب التفاسير الباطلة، وما زال طعم معانيه ومذاق كلماته محفوظا في قوارير الكلمات الإلهية.

عندها وبعد اطلاعها وقومها على حقيقة دين سليمان وأسرار معاني دينها ودينه وفهمهم حقيقة الأيمان، **(قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)**[41]، أي ربي إني ظلمت نفسي بمفاهيم قومي البالية، وكنت من المشركين بدينك وبرسولك وشريعتك، وها أنا أسلم قلبي وعقلي وروحي لك يا رب العالمين ولأمر دين سليمان الحق وأعلن أيماني بدعوته.

الحواشي

(1) سورة الكهف، الآية 45.
(2) سورة فاطر، الآية 24.
(3) سورة النمل، الآية 33.
(4) سورة المؤمنون، الآية 44.
(5) سورة العنكبوت، الآية 2.
(6) سورة النمل، الآية 24.
(7) سورة الأعراف، الآية 34.
(8) سورة الإنسان، الآية 1.
(9) سورة الفرقان، الآية 44.
(10) سورة الأنعام، الآية 38.
(11) سورة النور، الآية 41.
(12) سورة الأنفال، الآية 55.
(13) سورة الأنعام، الآية 38.
(14) سورة النور، الآية 41.
(15) سورة النمل، الآية 18.
(16) سورة النمل، الآية 20.
(17) سورة النمل، الآيتان 24،23.
(18) سورة النمل، الآية 28.
(19) سورة النمل، الآيتان 30،29.
(20) سورة النمل، الآية 32.

(*) تذكرنا دعوة الملكة هنا لكبار قومها للحوار والمشورة، بقصة فرعون وسلوكه سبيل المشورة وقبوله مبدأ الرأي والرأي الآخر. فنستغرب جدا للفرق بين حال اليوم والأمس!.

(21) سورة النمل، الآية 33.
(22) سورة النمل، الآية 34.
(23) سورة النمل، الآية 35.
(24) سورة النمل، الآية 36.
(25) سورة النمل، الآية 38.
(26) سورة النمل، الآية 39.
(27) سورة النمل، الآية 40.
(28) سورة ص، الآية 37.
(29) سورة الحجر، الآية 27.
(30) سورة ص، الآية 38.
(31) سورة الأنعام، الآية 93.
(32) سورة النمل، الآية 40.
(33) سورة النمل، الآية 41.
(34) سورة البقرة، الآية 25.
(35) سورة النمل، الآية 42.
(36) سورة النمل، الآية 42.
(37) سورة النمل، الآية 43.
(38) سورة النمل، الآية 44.
(39) سورة النمل، الآية 44.
(40) سورة النمل، الآية 44.
(41) سورة النمل، الآية 44.

الفصل السابع

قصة سيدنا المسيح(ع)

تميز سيدنا المسيح عليه السلام عمن قبله وبعده من رسل الله وأنبيائه الكرام بقدراته العجيبة على عمل وإجراء العديد من المعجزات الخارقة لنظام الطبيعة، مثل: إحياء الموتى وإخراجهم من داخل القبور وإبصار العمي وشفاء المرضى وتكلمه مع الناس وهو

ما زال رضيعا في مهده وتحويل الطين إلى طيور ترفرف بأجنحتها في أعالي السماء أمام عيون الناظرين، كما أكد على ذلك قوله تعالى **(وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)**[1]، وكذلك قوله الكريم **(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ)**[2].

هذا بالإضافة إلى قدرته على إنزال مائدة طعام من السماء عامرة بشتى أنواع الأطعمة والمأكولات، كما قال تعالى **(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ)**[3].

ومن المعلوم أن إجراء مثل هذه المعجزات الخارقة لنظام الطبيعة هي من صفات وقدرات الرسل والأنبياء عليهم السلام، ومن

الممكن جداً حصولها وتحقيقها على أيديهم بقوة الله وإرادته وهذا أمر لا شك ولا ريب فيه إطلاقاً.

لكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: ما هي علاقة حصول مثل هذه الأنواع من الأفعال العجيبة أو تحقيقها، بحقيقة دعوات الرسل للناس إلى توحيد الله تعالى وإلى الصراط المستقيم وإلى الهداية والأيمان؟

أوليس من المفروض أن يكون الدليل أو البرهان من جنس العمل المراد إثباته حتى يؤدي إلى تثبيت الفكرة وتحقيق نفس الهدف؟

وبمعنى آخر: هل يجوز للطبيب أن يكتب قصة قصيرة ليثبت جدارته في مهنته؟ أو هل يجوز للرسام أو الموسيقي أن يصنع كرسياً أو منضدة خشبية ليثبت انه رسام أو موسيقار؟ وهل ينفع الفارس لإثبات فروسيته، السباحة في نهر أو بركة ماء؟ وماذا عن أولئك السحرة الذين امتلأت كتب التاريخ بذكر أعمالهم العجيبة في شتى بقاع الأرض، وهل كانوا سينجحون ويكسبوا أتباعا ومريدين لو أنهم ادعوا عند تحقيق سحرهم وتنفيذه أمام أعين الناس، أنهم رسل أو أنبياء من عند الله؟

ثم لماذا يمتنع سيدنا محمد عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام عن إجراء مثل هذه المعجزات، عندما طلب منه أهل زمانه من المشركين وغيرهم من أهل الكتاب، تنفيذ بعضا منها،

فيعتذر – رغم قدرته المؤكدة على فعلها – ويؤيده رب العالمين على امتناعه بتنزيل آيات قرآنية تؤيد اعتذاره، كما قال تعالى **(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إلا بَشَرًا رَسُولاً)**[4]؟

وبما أننا علمنا من خلال استقراء أحداث التاريخ وأحوال الأمم وما وصلنا من أخبارها، أن أمة فرعون في مصر في زمن سيدنا موسى(ع)، وأمة اليهود وأهل فلسطين في زمن سيدنا المسيح(ع)، كانتا أكثر تقدما وأعلى حضارة وعلما من عرب الجاهلية والمشركين في زمن سيدنا محمد(ص).

لذا يظهر السؤال التالي: ألم يكن من الأجدى والأجدر أن تستعمل لغة العقل والمنطق والحجة والبرهان مع الأمتين الفرعونية واليهودية المتحضرتين كوسيلة للمحاجة والبرهان والإقناع بدلا من اللجوء إلى خوارق العادات. وفي المقابل تستعمل لغة المعجزات والخوارق مع جهلة العرب المشركين باعتبارهم لن يفهموا منطق الحوار المتحضر ولن يقتنعوا به؟ فلماذا حصل العكس؟

وبمعنى آخر، لماذا استعان سيدنا موسى(ع) بالعصا لتلتهم ثعابين السحرة، ولماذا استعان بها ليشق البحر؟ ولماذا أحيا سيدنا المسيح(ع) الموتى، ولماذا نزلت عليه مائدة من السماء؟ بينما بقي سيدنا محمد(ص) يدعو قومه المشركين للإيمان عن طريق آيات القرآن الكريم وقوة حججه وعظيم بيّناته؟

قد يجيب البعض: أن زمن المعجزات قد ذهب وانقضى في زمن ظهور سيدنا محمد(ص)!.

لكن مثل هذا الجواب، قد لا يقنع البعض.

ولإيجاد جواب مقنع قدر الإمكان لمثل هذه التساؤلات، ولمحاولة التوفيق بين الدين والعقل، أو بين الأيمان والعلم، كان لابد من التفكير بعقلانية مجردة خالية من التعصب والتقليد وبعيدة عن المحاباة والغلو، في محاولة للخروج من تلك النغمة المكررة، بعدما بدأ حتى أشد أتباع الديانات الإلهية تعصباً بسلوك سبيل العقل والميل إليه. وبعدما بدأ بعض المفكرون يسلطون أضواء الشك والريبة على أحداث مثل هذه القصص التي يرتفع مستواها إلى التقديس ويصرحون أنها نوع من أنواع القصص التراثية القديمة والأساطير الخرافية!

فهناك من يقول منهم: أننا لو وافقنا وسلمنا بحدوث خوارق المعجزات في قديم الزمان، فإن تصديقها سيقتصر على من شاهدها وسمعها في وقت حدوثها وحصولها، فكيف لنا التأكد من

صحة حوادثها المخالفة لقوانين الطبيعة وهي تنقل شفاهة أو تدويناً في كتب الرواة والمؤرخين من جيل إلى جيل عبر آلاف السنين؟ ألا يمكن أن يكون قد شابها شيء من التحريف أو الإضافات بسبب المحبة والغلو الشديدين للدين أو العقيدة؟ ألا يمكن أن تكون لها معاني جوهرية خفية لم يسبر غور أعماق بحور أسرارها بحارة المفكرين في الأزمان السالفة؟ فحتى القصص الواقعية الحديثة، تختلف وقائع سردها وتتباين أحداثها بين رواتها وناقليها ومتلقيها، فكيف بنا بقصص تمتد أعمارها إلى أعماق التاريخ وأعداد لا تحصى من الأجيال المتعاقبة؟ ولماذا لا نصدق ما ينقل ويقال عن الأمم الوثنية غير المتدينة من قصص عجيبة عن خوارق عادات أجدادهم ومعجزات طواطمهم؟ وكيف نفرق بين كذب هذه وصدق تلك؟.

لا يخفى على كل لبيب، أن هذا المنطق المتشكك فيه شيء من المعقولية والقبول لو نظرنا إليه بعين الإنصاف والعدل، خاصة وأن هناك من البشر من لا يتقبل تعليلها أو نسبتها إلى قدرة رسل الله الكرام على فعل المعجزات حتى ولو كانت بإذن الله.

وهنا يظهر تساؤل آخر، وهو: إن كان السيد المسيح(ع) قد أجرى كل هذه الأنواع والأشكال من المعجزات الخارقة لقوانين الطبيعة أمام عيون الأشهاد، فلماذا كانت النتيجة النهائية لدعوته خلال حياته الشريفة، هي التكذيب والإعراض ثم الاضطهاد

والصلب، إلى درجة أن عدد مؤمنيه ساعة وفاته وصعوده إلى سماء التقديس لم يزد عن أحد عشر رجلا وامرأة واحدة؟ وحتى هؤلاء الحواريون اهتز أيمانهم وثبطت عزيمة إيقانهم لمدة ثلاثة أيام بعد وفاته، ولولا شجاعة وأيمان تلك المرأة الفريدة مريم المجدلية وحثها لهم للعودة إلى الأيمان بالعقيدة المسيحية والقيام على نشرها بين الناس، لما قاموا ساعتها على إعلاء شأنها من جديد!. فأين أولئك المئات ولا نقول الآلاف من سكان القرى والمدن الذين حضروا وقائع تلك المعجزات وشاهدوها بأم أعينهم؟ وأين اختفى من عادت لهم الحياة بعد موتهم؟ وأين ذهب من تعافوا وشفيت أمراضهم المزمنة؟ وأين من شاهدوه وهو يعجن الطين بيديه ويشكّله وينحته على هيئة الطير، ثم ينفخ فيها لينقلب إلى طيور وحمامات حقيقية تطير وتخفق بأجنحتها في علو السماء؟ ولماذا اختل أيمان الحواريون بعدما شاهدوا كل تلك المعجزات وبعدما نزلت عليهم مائدة طعام من السماء وأكلوا وشربوا منها؟ ألم يكن بينهم إنسان رشيد منصف حتى يعقل ويثبت على الإيمان بدعوته؟! أليست النتائج الجيدة دليل على صحة العمل؟

من الوارد جدا أن هناك من سيجيب على مثل هذه التساؤلات: أن سيدنا المسيح(ع) ولد وعاش وأعلن دعوته في أرض فلسطين، ومن المعلوم أنها كانت مركزا لأمة اليهود وأحبارهم في ذلك الوقت، وبما أن اليهود أمة تتميز بالخيانة والغدر، لذلك لا

نستغرب من هذه النتيجة الهزيلة لأمر السيد المسيح(ع) في بداية دعوته.

لكننا عندما نقرأ الآية الكريمة **(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)**[5] ونتخذها ميزاناً للحكم على أحوال الناس، ونفهم أن من معانيها أن الله سبحانه وتعالى يعيب على العباد الأيمان ببعض آيات كتابهم والإعراض عن معاني غيرها، ولو نتذكر الآيات الكريمة الأخرى في كتابه العزيز **(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)**[6]، وتكرارها في نفس السورة وبذات الكلمات **(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)**[7]، عندها نستغرب من هذا الأمر! فكيف ينعم عليهم رب العالمين بكل هذه النعم السماوية المباركة ويوثقها في كتابه العزيز التالي ويسجلها ويكرر قوله مرتين، بينما يشتهر اليهود بالخيانة والغدر، كما في قوله تعالى **(أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)**[8] وكذلك **(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلاً)**[9] وأيضا **(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا**

بِـهِ وَلا تَـزَالُ تَطَّـلِـعُ عَلَـى خَائِنَـةٍ مِـنْهُمْ إِلا قَلِيلاً مِـنْهُمْ فَـاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[10]!؟.

لا يمكن التوفيق بين مفاهيم هاتين المجموعتين من الآيات الكريمة، إلا إذا علمنا أن ميزان العدل الإلهي، يعلو ويهبط في تقدير ثواب وعقاب أمم أصحاب الكتاب حسب مقاييس الأيمان ودرجاته وأوزانه، لذلك فكل أمة تستجيب لأمر الله وتؤمن بدين وقتها وزمانها، يرتفع مقامها بين غيرها من الأمم وتعلو كفة ميزان حسناتها، بينما تتدنى وتهبط كفتها عند الصدّ والعناد والإعراض عن أمر الله الأخير.

من خلال هذا، يمكن تفهّم بعض من حقائق سر هذا التباين وجوهر هذا الاختلاف الظاهري للنعوت الإلهية في المديح والذم لأمم أصحاب الكتاب، فكل أمة تستجيب للإيمان بدعوة رسول زمانها، يكون أيمانها وتصديقها مغناطيساً لملائكة رحمة الله وأمطار بركاته وسحب نعمائه وجنود تأياته، لذلك تنزل الآيات الكريمة من سماء الغيب لتؤيد هذه الاستجابة الشجاعة وتوثقها في الكتب المقدسة وتسجل تاريخها حتى تكون عبرة لأولي الألباب. أما عندما ينسخ الكتاب السابق وينزل كتاب سماوي آخر جديد بعده، كما قال تعالى **(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)**[11]، نجد في الكتاب الجديد ذات المديح والأوصاف الإلهية الجليلة التي نعتت بها الأمة السابقة قد عاد لتوصف بها الأمة التالية. وهذا يعني أن ما سبق ونزل من

أوصاف لطيفة وجميلة عن لسان رب العزة إلى الأمة السابقة قد انتهى مفعوله وبطلت قوته حال تكذيبهم رسولهم التالي، وها هو يتحول في مؤشره إلى الأمة الجديدة التي انضوت تحت لواء دعوته، وهذا يعني أن بساط النصر وسجادة تأييد الأمة القديمة قد سحبا من تحتها ليمتدا ويفرشا تحت أقدام الأمة الجديدة.

وبهذا يمكن الانتباه إلى ما يفسر الغلو والتعصب لجميع أمم أصحاب الكتاب، فهي تبقى متشبثة بما نزل من نعوت راقية عن لسان الله سبحانه وتعالى في حقها، وترفض التخلي عنها وعن معتقداتها لما وجدته من تأييد إلهي مسبق لأيمانها، وتبقى جاهلة بهذه السنّة الإلهية الدائمة المتجددة في مدح الأمم المستجيبة لتداول الأيمان وتجدده وذمّ الأمم المغالية المتعصبة؛ وهذا ما يفسر أيضا بقاء كثير من أمم أصحاب الكتاب القديمة على معتقداتها وأديانها، فهي لم تفهم أبداً هذه السنة الإلهية في التغيير والتطوير، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى (.. **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**)[12]؛ وهذا ما يفسر كذلك أسباب ذم الأمم القديمة مثل عاد وثمود والمؤتفكات وغيرها، إذ تنطبق عليها جميعا ذات السنة الإلهية الدائمة، لأنها قد سبقت أمة اليهود في ارتكاب ذات خطأ التعصب وجريمة الغلو عندما آمنت برسل أزمانها وكفرت بدعوات من ظهر بعدهم.

وبهذا التخريج، يمكن تفهّم الغاية الحقيقية من عملية المدح والذم الإلهي بحق أمم أصحاب الكتاب، فالمديح قرين الاستجابة، والذم قرين الإعراض كما بيّنه القرآن الكريم، لأن هذا الكتاب الكريم هو كتاب حق تالي ولاحق لسلسة الكتب السماوية ومنهجاً صادقاً آخر للمناهج الإلهية يكمل ما سبقه من مناهج الأيمان والدين الحق، كما أكد على ذلك قوله تعالى **(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)**[13]، لذلك كان لابد من قص قصص بعض وليس جميع أمم الأولين وإيراد ذكر أحوال أيمانهم أو كفرهم، باعتبارهم نماذج عن أفعال الأولين لما لذلك من فائدة كبيرة على عقول المؤمنين.

لذلك لو قلنا أن الإعراض والاعتراض والغلو والتعصب وظهور أعراض أمراض الكفر والإلحاد على الناس كانت وما تزال كثيرة متعددة ومن الأسباب الرئيسة لتخلف كثير من الشعوب والأقوام فكريا وروحيا وماديا، بينما الإيمان بالله الواحد والتمسك بأوامره وأحكامه فيه شفاء للناس من كل أمراضهم الاجتماعية وعللهم الروحانية.

* * *

لو سلمنا بهذا المنطق لأمكن النظر إلى قصة سيدنا المسيح(ع) من زاوية علمية إيمانية جديدة، فقد يكون لعملية إحياءه الموتى معنى آخر ليس فقط بإعادة الحياة للرجل حتى يأكل ويشرب

ويتحرك، وهذا الاحتمال قد ينطبق أيضا على عملية إعادة البصر للرجل الأعمى وعلى حالة شفاء الأبرص والمشلول، بل وقد يتعدى كل ذلك ليشمل موضوع تحويل الطين إلى طيور . ولو أنها قد تكون قد حصلت بالفعل . فهذا ليس بعيدا عن القدرة الإلهية، لكن إيرادها واستعمالها قد يكون له دلالات معنوية عظيمة في إقبال الناس إلى الإيمان.

إن مثل هذه الحالات الخارقة لو كانت قد حصلت بالفعل بصورتها المادية الجسدية آنذاك، فهي لم تغن الدين والإيمان في شيء، لأن من قام من الموت لم يعش إلى الأبد ولم يكتب له الخلود، بل عاد ومات مرة أخرى بعد سنوات مثل غيره؛ ومن شفي من العمى عاد وعميت عيناه حال وفاته؛ ومن برء من الشلل أو البرص عاد وشلّت كامل أعضاؤه وأكل العفن والدود جسده حال دخوله اللحد. هذا بالإضافة إلى أنه ورغم حدوث كل هذه الحوادث العجيبة لم تكن نتيجة الأيمان كبيرة وبقي عدد المؤمنين والمستجيبين قليل جدا.

ثم ما هي الفائدة المرجوة من كل هذه الأعمال الخارقة إن كانت ستمحى آثارها مع مرور الوقت وسيأتي مع مرور الزمان من يشكك بصحة أخبارها؟ وما هي علاقتها بأحقية دعوة سيدنا المسيح(ع) إلى الإيمان وتقبل الناس لدعوته؟ كما أنها – وكما ذكرنا – حجة وبرهان على من شاهدها ورآها في وقتها، وليست

حجة على جميع الناس في جميع الأزمان وبينهم من لا يؤمن بكتاب ولا رسول في الأزمان اللاحقة.

لكننا اليوم نقف عاجزين أمام أهم تدوين مقدس يثبت حدوث مثل تلك المعجزات ووقوعها، وهو القرآن الكريم الذي لا ينطق إلا بالصدق والحق والذي وصلتنا نصوص آياته كاملة تامة لا نقص ولا زيادة فيها، وهو في نفس الوقت بعيد كل البعد عن التحريف والتزوير، كما قال تعالى **(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)**[14].

هنا نقف أمام مفترق طرق حائرين بين كلام الله سبحانه وتعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبين التحليلات العلمية والعقلية التي يثيرها بعض المتشككين في حصول ذلك؛ ومن الطبيعي أن يصطف المؤمنون بالله سبحانه وتعالى وبصحة ودقة كلماته ويثبتون مع نصوص الكتاب الكريم، بينما يقف المنادون بتحكيم العقل في الجهة المقابلة، فلا هؤلاء سيرضون بتشكيك أولئك، ولا أولئك سيرضون بتأكيدات هؤلاء، فالفريقان على طرفي نقيض.

من كل هذا كان لابد من البحث عن رأس خيط ذلك الحل الوسط الذي بقي غائباً عن الفريقين لفترة طويلة والذي من الوارد جدا أن يوفق بين هذين الاعتقادين ويهدم جدار العزل والإقصاء الذي ساهم الطرفان في تشييده بين فكرتيهما، فهذه القضية

الجوهريــة أو هـذه المسـألة الدقيقـة كانـت منـذ القـدم هـي أسـاس الاختلاف بينهما، وهي التي أدت إلى ظهور فكرة العزل بين الدين والسياسـة وبـين رجـال الحكـم ورجـال الـدين، وهـي التـي صـبغت صفحات التاريخ بالدماء والحروب، ولم يكن وقود كل تلك الفترات المظلمة وحطبها إلا بسطاء الناس وأرواحهم.

من المعلوم أن أحوال الناس في قديم الزمان لم تكن بمثل ما هـي عليـه اليـوم مـن علـم وثقافـة وكثـرة اطـلاع ومعـارف، فلقـد كـان غالبيتهم يجهلون القراءة والكتابة، وكانت بعض المجتمعات القديمة تنزل عقوبة الموت على من يجرؤ على التعلم من العبيد، ولم تكن الكتب منتشرة ولا عملية الطباعة مخترعة ولا غير ذلك من وسائل نشر الثقافة والمعرفة الحالية؛ لذلك عاش أولئك الأجداد القدماء في حياةٍ غلّفتها طبقات الجهل وعلتها سحب الأمية بشكل تام، وهذا ما كان له تأثير عظيم على قدراتهم الفكرية والذهنية وترك مجالا واسعاً لرجال الدين وسحرة العقول للسيطرة عليهم، فما كان يقوله وينطق بـه سـاحر العقـول، كـان هـو قـول الفصـل فـي مسـيرة حيـاة تلـك المجتمعات، فإن نطق بالعلم والمنطق السليم أو بالجهل والخرافات فلن يجرؤ أحد على مناظرته أو مخالفته؛ ويبدو أن الحالة الثانية هي التي كانت سائدة في الأزمان الماضية استنادا إلى وصلنا منهم من مدونات وأخبار وما أفصحت عنه صفحات التاريخ، إلا تلك القلّة القليلـة التـي امتـازت بعقولهـا المنـورة وبقيـت آثارهـا كـالنجوم

البارقة في ديجور ذلك الظلام، وهذا ما يمنح تلك الشعوب القديمة العذر الكامل في عدم مناقشة كبار علمائها لما طرحوه من مفاهيم مشوهة غير دقيقة مثلما يحصل اليوم بين الفريقين بعدما انتشرت المدارس والجامعات والمطبوعات وتقلصت أطراف الأرض حتى صارت قرية صغيرة تتقافز في أرجائها أصداء العلوم والاكتشافات والمعارف بسرعة كبيرة.

فلو قلنا على سبيل المثال أن إحياء الموتى كان إحياءً إيمانياً أكثر منه إحياءً مادياً، أي أن الله سبحانه وتعالى يعتبر الإنسان حياً عند تعلقه بعروة الدين الحيّ، ويعتبره ميتاً عند تشبثه بدينه المنسوخ الميت، كما أكد على ذلك قوله تعالى **(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)**[15]، فحال دخول قوة روح الإيمان في قلب أي إنسان، يشعر بحياة جديدة تدب في جسده وروحه ويشعر وكأنه ولد من جديد، وهناك في القرآن الكريم آية توضح هذا المفهوم وتشير إلى هذا المعنى **(أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)**[16]، فلو نظرنا إلى هذا المفهوم بمنطوقه الظاهري لصعب فهمه، لأننا لو وافقنا على قدرة الإنسان على القتل، فلا يمكننا الموافقة على قدرته في الإحياء، إذ لا يمكن لأي إنسان إحياء إنسان آخر بعد موته. بينما إذا أخذنا مفهوم الآية

الكريمة بطريقة أخرى، نجد توافق شقيها المتناقضين ظاهريا؛ فعندما يقوم المؤمن بإقناع أي إنسان للإيمان بدين الله الحق الحيّ الفاعل، يكون وكأنه أحياه من جديد، بل وأحيا كل نسله وأحفاده وكل من سيتأثر بقوة أيمانه فيما بعد، وهنا يكون هذا المؤمن مصداقا لقول الآية الكريمة **(مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)**[17]، ففي هذه الحالة تكون عملية الإحياء ممكنة ومعقولة ويمكن تصديقها وقبولها، فكثير من المؤمنين وعلى مر التاريخ دعوا الناس للإيمان واستجيب لدعواتهم، بل أن نفس مؤمنة واحدة قد تكون سببا مباشراً في أيمان أمم بأكملها، وهذا هو الإحياء المشار إليه في الآية الكريمة سابقة الذكر، فالإشارة فيها كانت إلى الإحياء الروحاني وليس إلى الإحياء المادي لأجساد الموتى.

وهناك آية أخرى أكثر دلالة ووضوحا في قوله تعالى **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)**[18]، ففي هذه الآية الكريمة نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى يناشد خلقه بكل لطف ومحبة ورقة للاستجابة إلى الأيمان بما يدعوهم إليه الرسول الكريم محمد(ص)، حتى يخرجوا من قبور الكفر ولحود الضلالة ليعودوا إلى الحياة الروحانية الحيّة، فكما علمنا أن الكافر

يعتبر في نظر الحضرة الإلهية ميتاً حتى ولو كان يمشي ويتحرك، بل ولا يمكن اعتباره إنساناً عاقلا مميزا، كما قال تعالى **(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)**[19]. فالاستجابة للإيمان، هي نوع من أنواع بعث الحياة في الروح، إنها الولادة الثانية، الولادة الروحانية، وهذا هو الفرق الحقيقي بين المؤمن بدين حيّ، وبين من يؤمن بدين ميت منسوخ لا حياة فيه، فالمؤمن الحقيقي يرى أمور الحياة وشؤونها بمنظار مختلف تماما عما يراه غيره، لأنها حالة روحانية معنوية خاصة به وليست حالة مادية عامة للجميع، وبهذا نراه وأمثاله عازفون عن ملذات الدنيا وشؤونها، مفعمون بمشاعر أهمية الجماعة والمجتمع ومناصرة مبادئ الخير والرحمة والتكافل وصلاح المجتمع، وهذا ما يفسر بشكل من الأشكال تقدمهم بكل سرور للتضحية والفداء في سبيل غيرهم. وإلا فالآية الكريمة لا تعني أن سيدنا محمد(ص) يدعو أموات الأجساد ومن في القبور إلى الأيمان بدينه الحق، فهذا المعنى لا يتفق مع العقل والمنطق السليم ولا يفعله إنسان عاقل رشيد، لكن المقصود من الأموات هنا هم أموات الأرواح والإيمان الذين ظهر بينهم.

نعود إلى نقاط الاختلاف بين موازين العقل الإنساني وبين النصوص الإلهية التي تظهر واضحة بين رجال العلم الماديين وبين رجال الدين الروحانيين. وفي الحقيقة أن مثل هذه المقارنة هي

خطأ شائع، لأن حقيقة الاختلاف كانت وما زالت بين درجات مفاهيم البشر أنفسهم؛ بين العقل البشري المتحرر وبين التفسير البشري الجامد للنصوص الإلهية؛ بين موازين العقل البشري وبين ما يقدمه البشر ذاتهم من مفاهيم وتوضيحات مختلفة للنصوص الإلهية السامية دقيقة المعاني. هذا هو جوهر الخلاف والاختلاف بين أصحاب الفريقين، فلو علمنا وأيقنا بصدق كلمات الله سبحانه وتعالى وقدسيتها، وأنها لابد وأن تتفق كل الاتفاق مع العقل السليم، لأنه هو خالق العقل وموجد قوة التفكير، وآمنا أن سمو العقل ورقيه يتوافق ويتناسب طردياً مع درجة ومستوى المجتمع، وعلمنا أن درجات الفهم والإدراك تتأثر تراجعا وتقدما مع المستوى العام لما ينتشر بين الناس من علوم ومعارف دينية ودنيوية – وبما أننا أثبتنا دنو وضحالة مستوى ثقافة الشعوب القديمة، وكذلك رقيها وعلوها في الوقت الحاضر – نفهم الآن سبباً مهما من أسباب الاختلاف بين الفريقين، ولماذا كانت تضيق وتتسع هذه الفجوة العميقة فيما بينهما على الدوام مما باعد بين رجال الدين ورجال العلم.

إذن يمكن القول أن الإنسان كلما توفرت له ظروف المعرفة والعلم الصحيح السليم، استطاع الخروج بنتائج صحيحة للمعضلات الدينية والمسائل الفكرية العالقة منذ قديم الزمان، فإذا لم يفعل، فهذا مؤشر واضح على بقائه على مقربة من ذات المستوى القديم.

نعود إلى الفروقات العالقة بين موازين العقل وظواهر كلمات النصوص الإلهية، وبما أننا اتفقنا على أن العقل البشري قابل للتطور والنمو طالما توفرت له الظروف المناسبة، وبما أن النصوص الإلهية ثابتة لا تتغير؛ من هذا نعلم أن العقل الإنساني القديم قد تعامل معها بقدراته الذاتية الآنية في ذلك الزمان. وبما أننا نتفق من جديد على أن هناك فرقاً شاسعاً ومسافة لا يمكن تقديرها بين إنسان اليوم وإنسان الماضي، بل وبين إنسان هذا القرن وإنسان القرن الماضي والقادم. نجد أنه من الممكن جدا المحاولة من جديد لتفهم النصوص الإلهية، لأنه من المؤكد أن إنسان الأمس جاهد كل الجهد وسعى كل السعي لفهم النصوص الإلهية المقدسة، وكانت النتيجة والمحصلة النهائية هو ما تركه لمن خلفه من أدبيات وكتابات ما تزال بين أيدينا، وهذا ما يدفعنا للعمل وفاءً لمجهوداتهم وشكراً لسعيهم. لكن هذا لا يمنع من التقدم للمحاولة من جديد، فلقد اختلف الميزان العقلي والثقافي والعلمي لجميع البشر، وإن ما وردنا من مفاهيم للنصوص المقدسة من الأجداد ما هو إلا محاولات واجتهادات إنسانية مخلصة مشكورة، لكنها لا تحمل بأي شكل من الأشكال صفة القداسة أو الطوطمية حتى يجاهر البعض في تحريم التقرب منها أو محاولة مناقشتها، فالقرآن الكريم قد نزل لكل العقول بجميع مستوياتها، كما أكد على ذلك قوله تعالى **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)**[20]، وكذلك

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[21]، وأيضاً **(قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)**[22].

من كل هذا يتضح أن جوهر الاختلاف بين العقل والدين، هو في حقيقته اختلاف بين العقل وبين التفاسير الإنسانية الوضعية وليس بين العقل ومعاني النصوص الحقيقية، فطالما يعلم الخالق أن عقل الإنسان في تطور ونمو، بل في الأحرى هو الذي خلق له ميزة النمو وقدرة الاتساع والإبداع والتأمل والتفكير، ويعلم أن مخلوقه المفضل لابد وان يصل في يوم من الأيام إلى هذا المستوى المتقدم من التفكير، بل وقد يتخطاه مستقبلا إلى مراحل متقدمة عالية، وانه سيقف متأملاً ليناقش المفاهيم الدينية ويتفحص فحوى النصوص ويكتشف أن هذه الكلمات الإلهية هي أس أساس العلم ومصدر طاقة العقل وسبب نموه وتفوقه وأنها تتفق وتتوافق في جواهر مفاهيمها مع جميع مستويات العقول البشرية، إذن فلابد وأنه يعلم أن العقل الإنساني سيلتقي ويتوافق في يوم من الأيام مع حقيقة معاني كلماته في نهاية الأمر.

فالآية الكريمة التي يناشد فيها سبحانه وتعالى مخلوقه المفضل للإيمان بدعوة الرسول الكريم والعودة إلى الحياة الإيمانية، توضح أن سيدنا محمد(ص) قد قام بذات معجزات السيد المسيح(ع) في إحياء موتى الأرواح، وأنه لا فرق بين قدرتيهما، وأنهما فعلا قاما بذات نوعية المعجزة، لأن ذات الله الكريمة قد

نطقت بالحق عندما ساوى بين قدرات رسله الكرام ولم يفرق بينهم في قوله تعالى **(كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)**[23]، فكما أحيا السيد المسيح(ع) الناس بروح الأيمان فرادى في حياته، كذلك فعل سيدنا محمد(ص) وأحيا الناس بروح الأيمان فرادى وجماعات، بل إن معجزات الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ظاهرياً، تبدو أكبر وأوسع من معجزات المسيح(ع)، لأن المسيح(ع) كان يعيش في مجتمع متقدم نسبياً ومستوى حضاري أعلا مما كانت تعيشه قبائل الجاهلية في جزيرة العرب، وأن عملية الإقناع والتعليم والتربية ودعوة الناس للهداية والإيمان كانت أقسى وأصعب على سيدنا محمد(ص) من السيد المسيح(ع)، فالعرب كانوا قد تركوا أديان الله الحيّة منذ مئات أو آلاف السنين ولم يؤمنوا برسول من عند الله منذ زمن سيدنا إبراهيم(ع) رغم اختلاطهم بالنصارى واليهود، بينما ظهر السيد المسيح(ع) بين أمة اليهود وفي منطقة تتوسط مواطن الحضارات العظيمة كالبابلية والسومرية والآشورية في العراق والفرعونية المصرية والرومانية في جنوب أوربا، وأن أمة اليهود كانت آخر أمة مؤمنة بكتاب سماوي على الأرض في زمانه، حيث لم تكن صفة الإيمان قد فارقتهم وانتقلت إلى النصارى أو المسلمين بعد، لعدم وجود هاتين الأمتين آنذاك. لذلك فمن المؤكد أن عملية تبليغ اليهود وإقناعهم للتحول للإيمان بدين النصرانية الجديد، كان أسهل بكثير

من تبليغ وإقناع المشركين في الجزيرة العربية الذين رفضوا الأيمان بديني النصرانية واليهودية واكتفوا بتقديس وعبادة الحجر والصخر والمدر والتمر، فاليهود مهما كانت درجة عنادهم شديدة لدين السيد المسيح(ع) ومغالاتهم القوية للتمسك بدينهم، فهم يعتبرون من الأمم الموحدة وأصحاب كتاب سماوي منزل آنذاك.

وبمناسبة الموت والإحياء الروحاني، نتذكر جواب السيد المسيح(ع) بالرفض عندما طلب منه أحد تلامذته فرصة للذهاب والمشاركة في دفن والده، (وقال له آخر من تلاميذه: يا سيد ائذن لي أن أمضي أولا وأدفن أبي. فقال له يسوع: اتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم)[24]. فهذا النص، يدل على أن السيد المسيح(ع) رفض طلب تلميذه للاستئذان في الذهاب لدفن والده المتوفى، ولا شك أنه قصد بذلك: دع موتى الإيمان يدفنون موتى الأجساد. فقوله هذا يوضح أن أحياء الروح أفضل وأولى عند الله ورسله من أحياء الأجساد، وأن من لا إيمان له، لا حياة له، فمثلهم يعيش حياته بحواس جسده المادية كبقية المخلوقات فاقدة العقل والإيمان، والآية القرآنية الكريمة التالية تعطي مفهوما ساطعا لهذه الشريحة من البشر **(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)**[25]، فلحظة الموت عندما تحل على الكافر، يكون وكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً عند الله، وبالتالي فهو خاسر لحقيقة وجوده وسببه. بينما يعيش المؤمن دنياه وهو على

طريق الحق والصواب حتى ولو جهل وغفل عن جميع هذه المفاهيم العميقة، كما قال تعالى **(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ)**[26]، ويموت المؤمن وهو مدرك أنه ينتقل من عالم محدود إلى عالم آخر أرحب وأوسع، مثلما سبق وحصل معه عند ولادته من بطن أمه، كما قال تعالى **(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ)**[27]، لذلك يحاول المؤمن جاهداً التمسك في حياته بما يؤدي إلى رفعة مقامه في آخرته.

* * *

فإذا عدنا لمناقشة الآيتين اللتين وردتا في أول هذا الفصل في قوله تعالى **(أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ)** وكذلك قوله الحق **(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي)**، فلا يمكننا والحالة هذه منع عقولنا من التفكير في مفاهيم جديدة لهذه النصوص المباركة، وأول سؤال يخطر على البال، هو: لماذا يركّز سبحانه وتعالى على ذكر الطير وتشبيه عباده بهم عندما يريد مديحهم؟ ولماذا لا يشبههم بالنسور القوية أو الصقور السريعة أو الدجاج المفيد أو النعّام الكبير أو حتى الطاووس الجميل المزدان بأجمل الرياش والألوان؟ وهل هناك حكمة وغاية من وراء ذلك؟ ولماذا يكرر هذا المديح مرتين، مرة في قصة سيدنا المسيح(ع)، ومرة في قصة سيدنا إبراهيم(ع)!؟[28].

لو نظرنا إلى الفروق الواضحة بين الطير وبقية الطيور، لأدركنا أمرا دقيقا في هذه الأمثلة الإلهية العجيبة، حيث يضرب المثال بشكل لا يعلوه ولا يسمو عليه أي مثال تقريبي أو تشبيهي آخر، فالدجاجة على سبيل المثال لا تفي بالغاية المرجوة ولا حتى النعامة أو الطاووس رغم جمال وفائدة هذه المخلوقات اللطيفة، لأنها تسكن وتعيش على تراب الأرض وتمضي جلَّ حياتها تمشي على سطحها، لذلك فهي كائنات أرضية متعلقة بالماديات ولصيقة بعالم التراب لا يمكنها الفكاك عنه، وهذا ما يجعلها تشارك البشر بعضا من شؤون حياته الأرضية، وهذا هو سبب إبعادها عن المثال؛ أما بالنسبة للنسور والصقور، فلو تفحصنا حياتها فسنجدها من صنف الكواسر ومن أكلة اللحوم وتتميز بالعداء وتقتات على أجساد غيرها، وهذا ما يبعدها أيضا عن الغاية الحقيقية من ضرب المثال، فسبحانه وتعالى يريد مثالاً ينطبق تماما مع غاية مقصده.

بينما لو نظرنا إلى صفات الطير، لوجدناها تنفرد بصفات فريدة، فهي وديعة السلوك غير مؤذية، لطيفة المنظر جميلة المظهر رقيقة المزايا تنفر عن الظلم والاعتداء تملأ الأجواء بتغريدها الجميل وزقزقتها الهادئة، لا تألف ولا تعايش إلا أمثالها، تنفر جافلة لتحلق بعيدا عن المخلوقات الأرضية، تكتفي بما يحيط بها من قوت ثمار الأشجار، تمضي جلَّ حياتها مترفعة في أعالي الجو، تبني أعشاشها على أطراف الأغصان وفي نهاياتها بعيدا عن

أعين بقية المخلوقات، تحلق في الفضاء مرتفعة نائية عن عالم التراب إلا في أوقات قصيرة تنزل فيها إلى جداول المياه لتترك ما علق برياشها من الأدران والأوساخ، وهذا ما يبقيها نظيفة طاهرة بعيدة عن عالم الماديات، تملأ الدنيا بأناشيدها الحلوة وأصداحها الجميلة وتغريدها اللطيف وأشكالها الجميلة؛ وكل الظن أن هذا ما يريده سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين الموقنين من ضرب هذا المثال والتركيز على مخلوق الطير اللطيف الوديع، فهو جلَّ وعلا يدعوهم للعيش بسلام وصفاء ونبذ المشاحنات والحروب والقتال والابتعاد عن عالم الماديات ووحوش البشر والتشبه بعلاقة الطير مع الدنيا والاستمرار على الترتيل والتصديح بنعم الله وأفضاله وعميم بركاته وبما منَّ به عليهم من نعمة الإيمان وأن يكونوا بسلوكهم قدوة حسنة لغيرهم؛ وهذا ما يدعو العاقل لتذكّر قوله تعالى عندما يدعو عباده للتفكّر بشؤون خلقه ومخلوقاته **(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)**[29].

من هذا يمكن الخروج بمعنى آخر لسبب الإشارة الإلهية في التركيز على الطير دون غيره من المخلوقات، وهي أنها دعوة للإنسان إلى الترفّع والسمو بنفسه عن الماديات والشؤون الدنيوية والانتباه للغاية الحقيقية من وجوده وخلقه، حيث أن من معاني المثال المجازية هو تشبيه الإنسان غير المؤمن بحفنة التراب أو

الطين التي لا قيمة لها، وأن سيدنا المسيح(ع) كان يأخذ بيد عنايته ورعايته ليعجنه بماء الأيمان الطاهر وليربيه بحبوب المحبة اللطيفة ويجمع شتات أفكاره بجوهرة التوحيد الفريدة وينفث في داخله نفحة الأيمان المقدسة، ثم يطلقه بعد كمال خلقه الروحاني ليطير في عوالم السمو والرفعة والأيمان بين أسراب المؤمنين وغيرهم وليستقر مطمئناً على أعشاش الإيقان الرفيعة العالية. وهذا ما فعله السيد المسيح(ع)، وهذا ما فعله سيدنا إبراهيم(ع)، بل وهذا هو حقيقة ما فعله المصطفى المختار سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام، بل وما فعله جميع رسل الله وأنبيائه طراً، أنها عملية تحرير طائر الروح البشري وعتقها من قفص عالمها الترابي ثم كسائها برياش الأخلاق الناعمة وتزيينها بوداعة طيور السماء وإطلاق ألسنتها بنغمات التسبيح وألحان التهليل والغناء والإشادة بعظمة شأن الخالق رب العباد ثم إطلاقها في فضاء السمو والرفعة بقوة أجنحة الأيمان لتنال حياة التقديس التي خلقها الله لأجلها.

إذ علمنا كل هذا، علمنا أن هناك معاني سامية غاية في الرفعة والعلو لمعاني كلمات الله سبحانه وتعالى، فالغاية من كل هذه الأمثلة المقدسة إنما هي دعوة لرقي الروح الإنسانية وإعدادها للاستقرار والسكن في جنان الله الخالدة، رحمة ومحبة وعطفاً بهم، كما قال تعالى **(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا)**[30]، فالإنسان هو أقرب مخلوقات الله

سبحانه وتعالى إلى نفسه الكريمة، وهذا من فائض رحمته وفائق نعمته عليهم. وإلا لو كانت مثل هذه المعجزات قد حصلت أمام أعين الناس بمفاهيمها المادية كما هو منتشر بينهم، وقام الأموات من القبور وشفيت الناس من أمراضها وعللها واعتدل المشلول والفالج ولم يحترق الأبرار في هذه النار التي تحرق أقوى المعادن، ومع كل هذا وذاك، لم يؤمن الناس بأصحابها المكرمين، لكان ذلك نقصاً كبيراً في حجج الله سبحانه وتعالى وعجزاً في قدرته المتعالية على إقناع خلقه الضعفاء وصنعة يديه الكريمتين. فحاشا لله تقدس وتعالى عن هذا الكلام. وهذا ما يذكرنا بقوله تعالى **(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)**[31].

أخيرا بقيت نقطة مهمة، ألا وهي مسألة نزول مائدة طعام من السماء على سيدنا المسيح(ع) وحواريوه، كما قال تعالى **(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ)**[32]، وقد سبق وجئنا على مفاهيم المائدة السماوية في قصة النبي صالح(ع)، فيرجى الرجوع إليها.

بهذا يمكن استنتاج معاني أخرى لما حصل من شفاء المرضى على يد سيدنا المسيح(ع)، فهو الشفاء من العلل العقلية والروحية ومن أمراض الضلالة والخرافات والأوهام ومن آفات الكفر

وأوبئة الإلحاد، فهذه الأمراض المعنوية لعقل الإنسان وضميره وروحه هي أصعب بكثير وبشكل لا يقبل المقارنة من شفائه من أمراض الجسد، لما تسببه هذه الأمراض المعنوية والعلل الفكرية الخطيرة من تخلف اجتماعي وإنساني وعلمي وديني يصعب حتى على أفضل الفلاسفة والمصلحين شفائها، والتاريخ خير شاهد على عجز الفلاسفة في تحقيق هذا الهدف الغالي وعلى ما أنجزته قوة الإيمان بالديانات الإلهية من نجاحات فائقة أنتجت حضارات عظيمة ما زالت آثارها شامخة حتى اليوم في العراق ومصر وفلسطين وإيران والهند والصين، حيث نجد على الدوام أن هناك علاقة خفية مستورة لكنها قوية متينة بين أماكن ظهور شموس رسل الله ورسالاتهم وبين أماكن ظهور الحضارات البشرية، لكن معرفة هذه العلاقة الوثيقة كانت وما تزال بحاجة كبيرة إلى الأيمان بحقيقتها ومن ثم البحث والتدقيق وقبل كل شيء الإنصاف في قوة تأثيراتها.

الحواشي

(1) سورة آل عمران، الآية 49. (2) سورة المائدة، الآية 110.

(3) سورة المائدة، الآية 114.

(4) سورة الإسراء، الآيات من 90-93.

(5) سورة البقرة، الآية 85. (6) سورة البقرة، الآية 47.

(7) سورة البقرة، الآية 122. (8) سورة البقرة، الآية 100.

(9) سورة النساء، الآية 155. (10) سورة المائدة، الآية 13.

(11) سورة الرعد، الآية 38. (12) سورة فاطر، الآية 43.

(13) سورة الرعد، الآية 21. (14) سورة فصلت، الآية 42.

(15) سورة النحل، الآية 21. (16) سورة المائدة، الآية 32.

(17) سورة البقرة، الآية 261. (18) سورة الأنفال، الآية 24.
(19) سورة الفرقان، الآية 44. (20) سورة سبأ، الآية 28.
(21) سورة يوسف، الآية 2. (22) سورة الزمر، الآية 28.
(23) سورة البقرة، الآية 285.
(24) إنجيل متى الإصحاح الثامن الآيتان 22،21.
(25) سورة الفرقان، الآية 44. (26) سورة الحج، الآية 11.
(27) سورة الأنعام، الآية 94.
(28) أنظر قصة سيدنا ابراهيم في مفهوم الطير.
(29) سورة آل عمران، الآية 191. (30) سورة الإسراء، الآية 89.
(31) سورة النساء، الآية 165. (32) سورة المائدة، الآية 114.

الفصل الثامن

نبوءة النبي أشعيا

من خلال كل ما سبق من قصص المرسلين والأنبياء، يمكن الانتقال إلى معنى آخر قديم ذكره نبي من الأنبياء القدماء قبل مئات السنين يتفق بشكل من الأشكال مع كثير مما ورد ذكره في هذا الكتاب وكتب أخرى، وهو النبي أشعيا، فلقد تنبأ بما سيحصل في آخر الزمان من تغير في أحوال الناس وفي حياتهم حينما تنقلب

الأمور وتتغير الأحوال وتحصل طفرة نوعية كبيرة في مختلف شؤونهم الاجتماعية، كما هو حاصل اليوم على ما يظن. فبحدود قرن واحد من الزمان، ظهرت وبسرعة مدهشة جالبة للانتباه كثير من الاختراعات والمكتشفات التي غيرت وجه الأرض وبدلت حياة البشر تماما، فعلى سبيل المثال استعيض عن النار بالكهرباء وعن الشموع بالمصابيح وعن العشار والدواب بالطائرات والمركبات، وازداد المال وتوسعت المدن وارتفعت المباني وازدادت أعداد البشر وتحسنت صحتهم وطالت نسبة أعمارهم وتحسنت سبل الاتصال حتى انعدمت المسافات.. إلى غير ذلك من الاختراعات والاكتشافات التي يصعب حصرها في هذا المجال حتى صرنا نسمع في كل يوم عن ظهور اختراع جديد. ولو أجرينا مقارنة بين إنسان اليوم وما قبل قرن واحد فقط، فلن نتمكن من تحقيق ذلك أبدا، وهذا ما أشارت إليه أيضا سورة التكوير في القرآن الكريم وتنبأت به بشكل واضح، قال تعالى **(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ . وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ . وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ)**[1]، نعم.. فلقد شقت الطرق على سفوح الجبال ومهدت وحفرت أنفاق السيارات والمركبات في باطنها وأعماقها وبطل استعمال الخيول والبغال والجمال والحمير ونسيت مشاقها وتعبها واستعيض عنها بالسيارات الفخمة والطائرات الرائعة والمراكب الواسعة والسفن الضخمة، وحشرت الوحوش والكواسر في غابات وحدائق واسعة

وحددت حريتها، وغاص الإنسان في أعماق البحار ليكتشفها ويفجر ما في داخلها من كنوز وثروات طبيعية. وكذلك قوله الكريم **(وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ)**[2]، فلقد ظهرت الطباعة ونشرت الصحف والمجلات وأنواع المنشورات والمطبوعات، وما كل ذلك إلا إشارة واضحة إلى هذا الزمن الذي نعيشه اليوم.

يقول النبي أشعيا: *[فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمّن معاً وصبي صغير يسوقها. والبقرة والدبّة ترعيان. تربض أولادهما معاً والأسد كالبقر يأكل تبناً. ويلعب الرضيع على سرب الصل ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان]*[3].

مرة أخرى نستغرب لمثل هذه النبوءات ونقول: هل يمكن لعقل عاقل تصديقها؟ وكيف يمكن تحقق مثل هذه الأمور العجيبة؟ وهل يمكن للذئب أن يعيش مع الخروف، وهل سيقتات على الأعشاب مثل فريسته!؟ وهل يعقل أن يصاحب النمر المرعب والأسد المفترس الجدي الصغير والعجل الضعيف!؟ وهل يمكن للأم الرءوم أن تترك ولدها وفلذة كبدها يلعب مع الثعابين ويمرح مع الحيّات!؟ إن مثل هذه النبوءات لم يسبق أن تحققت ولا يمكن تحققها وحدوثها بمعناها الحرفي الدقيق حتى ولو بعد آلاف أو

ملايين السنين، لأن طباع وغرائز هذه الحيوانات ثابتة لا تتغير، فهي مجبولة عليها، ولابد أن يأكل الأسد والنمر الجائعان الخروف والظبي، ولابد أن تعض الحيّة وتلدغ من يقف في طريقها، ولابد للدب أن يفتك بالبقرة ويفترسها فهذه سنّة الحياة.

لكننا نعود ونقول أن هؤلاء الذوات المقدسة كانوا من رجال الله المختارين بين الناس، وكانوا معلميهم الممتازين، ولابد لسبحانه وتعالى أن يختار الأفضل والمميز لتعليم عباده، فلقد كان وما يزال وسيبقى الإنسان مخلوق صنعة يدي الله الخلاّقة المبدعة، كما جاء ذكره في كتابه العزيز **(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)**[4]. إذن كيف يمكن تفسير أقوالهم ونبوءاتهم العجيبة هذه، ومن ذا الذي سيعطيها بعض من معانيها وتفاسيرها المقبولة، ومتى ستتحقق؟

لكننا وعلى ذات المنوال . وتجنباً للتكرار . إذا استعضنا عن الذئب بالإنسان القوي الشرس الظالم القاسي، واستبدلنا مفهوم الخروف بالإنسان اللطيف المسالم الضعيف، وعن شخصية النمر الكاسر بالرجل المحتال اللئيم الغدّار، وعن الجدي والعجل بالإنسان الساذج البسيط اللطيف، وكذلك عن الطفل والبقرة والدب والأسد والرضيع والصل بنفس المقاييس حسب اختلاف معادن البشر

وتعدد شخصياتهم، لأدركنا أن هذا التفسير أو هذا التحليل يتفق بشكل من الأشكال مع ما أشار إليه نص سورة التكوير المباركة، وكذلك يتفق مع قول النبي أشعيا عن حتمية حلول السلام العالمي في نهاية الزمان، وان البشر بمختلف طباعهم وعاداتهم وقسوتهم ورحمتهم وظلمهم وعدلهم وشراستهم ولطفهم وحروبهم وسلامهم سيجتمعون ذات يوم على خوان واحد وصحفة واحدة ويأكلون من قصعة واحدة ويحل السلام على الأرض بين البشر وتطبع سيوفهم وتحوّل رماحهم إلى مناجل وآلات للزراعة والصناعة والخير والعطاء، ولا تعد ترفع أمة على أمة سيفاً أو تطلق مدفعاً، ويكون البشر جميعا إخوانا متحابين، مصداقا لما أشار إليه القرآن الكريم في سبب خلق الناس والهدف الحقيقي من وراءه في مرحلة متقدمة من آخر الزمان، وهو وحدتهم واتفاقهم وتوحيدهم لتثبيت دعائم السلام العالمي بين البشر على الأرض، فقد قال وقوله الحق **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)**[5]، فمن أهداف المشيئة الإلهية المقدسة هو جعل الناس أمة واحدة حتى ولو كانت أحوالهم سابقا ولاحقاً لا تنطق ولا توحي بذلك، لأنه لذلك الهدف الجميل خلقهم، أي أوجدهم وخلقهم لتحقيق هذا الهدف السامي.

وهذا يتفق مرة أخرى مع ما ذكره النبي أشعيا في قوله أيضاً: *[فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل. لا ترفع أمه على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب في ما بعد]*(6).

وكما هو واضح، فهذه العبارة لا تحتاج إلى كثير من التفكير لفهم مغزاها المتنبئ بحلول السلام العالمي على الأرض.

أما إذا كان معنى الأسد هو هذا الحيوان المفترس (السبع أبو خميّس) الذي يملأ صوت زئيره القلوب رعباً، ومعنى الذئب هو ذلك الحيوان المخيف الذي يعوي طوال الليل في السهول والقفار، وأخذنا معنى البقرة والجدي والصل والطفل كما يفهم منه ظاهرياً، فأي فائدة ترجى من ذلك؟ وماذا تستفيد البشرية إذا أكل هؤلاء من صحن واحد أو ناموا وسكنوا في حظيرة واحدة، أو إذا أكل الأسد تبناً والنمر عشباً؟ وما هو شكل الخير الذي سيجنيه البشر إذا لعب الرضيع مع صلّ الحيّة ومرح معه؟

إن مفاهيم ومعاني كلمات الرسل والأنبياء هي غاية في الحكمة والعصمة، وعندما يتكلمون وتدوّن كلماتهم ويبقى صداها على مر التاريخ، فلابد وان تكون لها معان خفيّة عديدة وحكمة

بالغة. وإلا فما هو الفرق بين الإنسان العادي وبين من يصطفيه الله تعالى ويختاره لمهمة هداية الناس وتعليمهم؟

وللتأكيد على ما سبق وذكرناه في معنى الآيتين الكريمتين 118،119 من سورة هود، في وعد حلول السلام العالمي بين الناس، يمكننا ملاحظة ذات المعنى والهدف السامي أيضا في قوله تعالى **(وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)**[7]، فهذا الحكم الإلهي المعصوم لابد وأن يجري ويتم ويكون الناس أمة واحدة، فهو من أمر الساعة ومن علامات يوم القيامة ولابد من تصديقها وعدم الشك بها أو تكذيبها، وما نشاهده اليوم في جميع أنحاء المعمورة من دعوات وآراء ومطالبات بشرية لنبذ الحروب والتوفيق بين الأمم وإحلال السلام بين مجتمعات الناس، ما هي إلا بداية تكوين ذلك المجتمع العالمي الجميل لإنشاء كرة أرضية مثالية، وهذا ليس بالأمل الخرافي، فالثقة تامة كاملة بقدرة الله على تحقيقه، وعقول البشر قادرة على استيعابه وتنفيذه، وكل ما نحتاج إليه هو المنهج الإلهي السليم والتعليم والأخلاق والإيمان.

والخلاصة: إن لجميع القصص والأمثلة الواردة في الكتب المقدسة، معاني وحكِم عظيمة لم يستطع إنسان القبل القديم الغور

أو الغـوص فـي عظـيم بحـار معانيهـا لاسـتخراج جـواهر لئالئهـا الثمينـة، فهـي مرهونـة بتقـدم العقـل الإنسـاني ومـدى تطـوره. وكمـا لاحظنا يمكن استنباط الكثير من جواهر هذه المعاني والاستفادة من درر حكمتها في تطوير مناهج التفكير والتربية والتعليم التي تؤثر في تقويم السلوك الإنساني.

الحواشي

(1) سورة التكوير، الآيات 3-6.

(2) سورة التكوير، الآية 10.

(3) التوراة . اشعيا – الإصحاح 11 الآيات 6-8.

(4) سورة الإنسان، الآية ا. (

5) سورة هود الآيتان 118، 119.

(6) التوراة . اشعيا . الإصحاح 2 الآية 4.

(7) سورة الزخرف، الآيتان 60،61.

الخاتمة

إن نظرة شاملة لحياة البشر على الأرض، تؤكد بلا شك وجود حياة أخرى بعدها. فالجنين في بطن أمه يمضي فترة تكوينه منتظراً نمو جسده وحواسه كي يستعملها في مسيرة حياته حال خروجه إلى هذه الدنيا المادية، والإنسان يمضي حياته مجاهدا لنيل عيشة مقبولة وسعادة عسيرة المنال، ولو احتسبنا مدة المتع والمسرات في حياته، لوجدناها قصيرة جدا لا تساوي قيمة كل هذه المشاق والمصاعب.

وبهذا يظهر سؤال محير: أين هي نتيجة هذه الحياة، وماذا عن ثمرتها وأين سعادتها، أليس الإنسان هو مخلوق الله المفضل؟ ألا تعيش الطيور وحتى الحيوانات حياتها بكل سعادة وحرية حتى يمكن القول أنها أفضل من حياة البشر رغم حرمانها من نعمة العقل وقدرة التفكير؟

إن عموم البشر ومنذ الأزل يمضون ما يقرب من ثلث حياتهم في النوم والسبات الذي يعتبر في حقيقته فترة غير محتسبة ووقت مستقطع من مجمل مدة الحياة القصيرة، ويمضون أكثر من نصف أعمارهم في العمل والسعي لتوفير متطلبات العيش لهم ولأفراد أسرهم، هذا إذا تذكّرنا أن كثير من الناس يدخل معترك الحياة والعمل والشقاء في سن مبكرة وهم أطفال صغار، ويستمرون على ذات الحال حتى توافيهم آجالهم. وأفضل مثال على ذلك، نصف المجتمع الثاني، النساء، فمنذ نعومة أظفارهن وهن يخدمن أفراد عوائلهن، إن كان في بيت الوالد أم الزوج قائمات على تدبير شؤون بيوتهن، وهن أول من يستيقظ من النوم فجراً أو صباحاً وآخر من يأوي إلى الفراش، لذلك تنقسم حياة المرأة في غالبية المجتمعات الشرقية إلى قسمين لا ثالث لهما، ربع للنوم وثلاثة أرباع للعمل لخدمة شؤون العائلة والمنزل، وأنه ولرب السماء والأرض لظلم عظيم.

والإنسان عموماً يمضي سنوات عديدة من حياته تحت رعاية والديه في طفولة بريئة لا يفهمها، ومن الناس من يمضي أكثر من ثلث حياته في الدراسة والقراءة وطلب العلم والاستعداد لدخول معترك الحياة أو لتحقيق هدف محدد، وجميع البشر يمضون نهاية حياتهم في عجز وشيخوخة متمنين تركها ومغادرتها والتخلص منها، هذا بالإضافة إلى ما يصرفه الإنسان من أوقات متقطعة في أداء حاجاته ومتطلبات حياته اليومية مثل الأكل والشرب والتنقل والأمور المختلفة الأخرى.

ومن الجانب الآخر، فإذا ما نظرنا إلى فترات المتع والمسرات في حياة البشر، فسنجدها قصيرة جدا، فمهما طالت فترة النوم والراحة، لابد من حلول وقت اليقظة والحركة، ومهما امتدت فترة الأكل والشرب والشبع، فلابد من الشعور بالجوع والعطش، وأطول فترات الفرح والسرور تنتهي بعد دقائق أو ساعات ويزول تأثيرها، ناهيك عما يتخلل الصحة والنشاط من علل وخمول. وعلى العموم تعتبر جميع أوقات المتع ودقائق اللذات وتجارب فترات الراحة، لذيذة جدا في بدايتها، لكنها مع التكرار تكتنفها مشاعر الملل والاكتفاء وتخبو نيران إثارتها.

مـن كـل هـذا وبحسـبة بسـيطة نسـتنتج، أن أكثريـة البشـر يمضون حياتهم في السعي والمجاهدة، أما تلك النسبة الباقية القليلة المحظوظة منهم، فلو حسبنا ما يعيشونه من فترات الراحة والهناء، لوجدناها قصيرة جداً لا تتعدى في مجملها مجموعة من الأيام أو الشهور إذا ما قيست واحتسبت بشكل دقيق وصحيح، هذا إذا لم ننس أولئك الذين يغادرون الحياة وهم في عز شبابهم وقوتهم لأي سبب من الأسباب الطارئة أو القاهرة.

مـن كـل هـذا يسـتنتج أن مـدة سـعادة الإنسـان علـى الأرض تعتبر قصيرة جداً إذا ما قورنت بطول مدة التاريخ والزمان والوجود، فهـي أقصـر مـن عمـر زهـرة نـادرة فـي فصـل ربيـع قصـير، بـل أن الحياة في مجمل حقيقتها تعتبر حياة تعب وشقاء وعذاب، إنها وهم كاذب وسراب خادع وخيال زائل، كما قال تعالى **(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الـدُّنْيَا إِلا لَهْـوٌ وَلَعِـبٌ وَإِنَّ الـدَّارَ الآخِـرَةَ لَهِـيَ الْحَيَـوَانُ لَـوْ كَـانُوا يَعْلَمُونَ)**(64 العنكبوت)، فكم من شريعة سماوية، ورسول مقدس، ونبـي كـريم، ناهيـك عـن الفلاسـفة والعلمـاء والمفكـرين، أمضـوا حيـاتهم مجاهدين فـي سـبيل تحقيـق حيـاة أفضـل للبشـر، إلا أنهـم ومـع كـل التأييـدات الإلهيـة وقـدراتهم الفـذّة وأفكـارهم العبقريـة وسـننهم الدينيـة ونظريـاتهم العلميـة، لـم يحققـوا إلا مـا سـمحت بـه شـرعة الحيـاة

السابقة، والسبب في تلك المحدودية في تحقيق هذا الهدف السامي هو ما جئنا على ذكره مسبقاً من عدم نضوج الفكر الإنساني.

من هذا المختصر نستنتج أيضاً أنه لابد من وجود معنى حقيقي ونتيجة نهائية لهذه الحياة المادية بكل منغصاتها وآلامها وتعبها وترحها، وأنه لابد لكل هذا السعي والجد والعمل والمثابرة والطاعة والعبادة والقناعة من ثمر ونتيجة وغاية، بينما تنتهي غالبية أعمار البشر الأرضية بلا نتيجة ولا ثمر ويذهبون وتطوى صفحات حياتهم بلا ذكرى ولا أثر إلا قلة قليلة؛ لذلك لا بد من وجود هدف ما، بشكل ما، في مكان ما.

إذن لا بد لثمرة هذه الحياة المادية الجسدية أن تظهر في حياة أخرى، في حياة ووجود لا يعقبهما موت أو فناء، وفي سعادة وسرور لا يتخللها ترح وشقاء، وصحو ويقظة لا يعقبها نوم وسبات، وصحة ونشاط تخلو من العلة والمرض، وهذا لن يكون إلا إذا نزع الإنسان رداء الجسد وثوب المادة عن حقيقة روحه وجوهر وجوده ساعة انتقاله إلى العالم الآخر بعد الفناء الجسدي كل حسب وقته وزمانه.

والسلام

المؤلف

سيفي سيفي